بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى الوالدين الكريمين اللهم اغفر لهما وارحمهما كما ربياني صغيرا.
- إلى الوالد الودود رحمه الله الّذي بارك لي هذا العمل المتواضع وفرح به أيّما فرح.
- إلى الشيخ بوبكر حمزة رحمه الله الّذي أُكِنُّ له كلّ الاحترام – و إن كنت أختلف معه في بعض الآراء - ولكنّ علمه الغزير وأعماله الجليلة طوال حياته الزاخرة - حيث يكفيه شرفا أنّه كان يعتنق الإسلامَ على يديه العشراتُ من ذوي الجنسيات المختلفة رجالا ونساء–، كلّ ذلك يجعلني أنظر إليه كالطود الشامخ ، أسأل الله أن يرحمه ويدخله فسيح جنانه .
- إلى كلّ أفراد أولاد سيدي الشيخ أينما كانوا و حيثما حلّوا .
- إلى جميع محبّيهم ذوي النيات الخالصة ...
- إلى كلّ من له غيرة على أن يزاح الغبار عن التاريخ الجزائري لكي يظهر في أبهى صوره المجيدة .
- إلى كلّ الأحبّة دون استثناء.
- إلى الشعب الجزائري المعطاء الصبور.
- إلى شعوب العالم التي عانت من ويلات الإستعمار الغاشم قديمه وجديده.
- إلى الشعب الفلسطيني على وجه الخصوص الّذي يواجه أخبث استعمار والنصر قريب إن شاء الله تعالى ...

م . آ .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

مقدمة المترجم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على المصطفى ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[طه 25-28]" وبعد :

فإن هذا العمل المتواضع الذي أضعه بين يدي القارئ ليس الهدف من ورائه إلا نفض الغبار عن بعض الحقائق التاريخية التي كاد طول الزمن بمحو أغلب آثارها لولا رجال أمثال الشيخ بوبكر حمزة الذي قد اختلف معه في بعض الفروع لكني أُكنّ له كل الاحترام والتقدير. فهو رجل علم ورجل دين ورجل دعوة، كما أنه رجل تاريخ.

كشف في هذا الكتاب عن وقائع تاريخية حدثت مند زمن سيدي الشيخ، كما حاول قدر المستطاع أن يبحث بكل ما يملك من إمكانيات - وقد كانت لديه إمكانيات قلّما يصل إليها غيره - دق بواسطتها على أبواب، ووصل إلى أماكن مختلفة يستقي منها المعلومات والوقائع والحقائق المخبوءة.

كما تطرق إلى تصحيح الياقوتة وشرحها شرحا موضوعيا يدل على أن الرجل لديه باع في العلوم الإسلامية : من قرآن وتفسير وفقه وعقيدة وغيرها. كما أن لديه اطّلاعا واسعا بالفرق الإسلامية عبر التاريخ، حيث عرض علينا أراء بعضها وسلوكيات بعضها الآخر وشطحاتها واعتدالها وتطرفها وضلالها واستقامتها، ومن خلال ذلك عرّفنا بالطريقة الشيخية: أصولها وفروعها وشروطها وتاريخها وآثارها ووظائفها ورجالها، معرجا على تعريف شخصيات بارزة وغير بارزة واجتهد في أن يجد في بطون المراجع مميزات كل شخصية على حدة لا تخلو من الفائدة لكل من يريد أن يطلع على التاريخ الإسلامي بصفة عامة وعلى عالم الصوفية بصفة خاصّة، الذي ركز عليه وأبدى أراءه فيه من الداخل بموضوعية قلما نجدها عند الصوفية أنفسهم، مظهرا حسنة المحسن وسيئة المسيء..

قد يختلف معه البعض لكن لا يجب أن يؤدّي هذا الاختلاف إلى الجرح والشتم والسب أو إلى الطعن فيه دون رويّة ودون أدلة دامغة، او بطرق جاهلية بعيدة كل البعد عن الحكمة والجدل بالتي هي أحسن كما أمرنا الله تعالى.

ثم تطرق إلى الكلام عن المقاومة المجيدة التي قام بها أولاد سيدي الشيخ على رأس معظم القبائل العربية والبربرية المتواجدة، ابتداءا من سي حمزة وأخيه سي لعلى إلى أبناء سي حمزة وهم على التوالي سي سليمان وسي محمد وسي احمد وسي قدور...إلى سي بوعمامة بن العربي دون أن يسترسل في ذكر جميع الوقائع إنما اكتفى بالإشارة إلى أبرزها مستشهدا ببعض الأبيات من الملحون للشاعر الوفي محمد بلخير خاصة وغيره أيضا ممن خلدوا المقاومة كما أبرزوا القيمة والتأثير الكبيرين

للطريقة الشيخية وأولاد سيدي الشيخ على منطقة الجنوب الصحراوي بالغرب والوسط الجزائري بل وحتى بالمغرب.

أعلم أن هناك من يستنكر على الشيخ تحامله أحيانا على قبيلة ما أوشخص ما قد تربطه به علاقة ما، لكن الشيخ أتى بأدلة تاريخية لا يجب انكارها أو دحضها إلا بأدلة أقوى منها من ناحية المادة العلمية التاريخية الموضوعية، وبدون عصبية، فنحن لا ندّعي العصمة لأحدٍ من الوقوع في الخطأ لا شيخنا الجليل السي حمزة بوبكر ولا القبيلة أو الشخص المتحامِل عليه. ومهما يكن من أمر فإن أخطاء الأجداد لا يتحملها الأحفاد إن كان هؤلاء الأحفاد صالحين، ولنا في القرآن وقفة حين يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة134].

وليعلم إخواني القراء أن الجزائر حررها جميع الجزائريين بالكثير أو بالقليل دون استثناء أوإقصاء لأحد، وأبغض الأمور إلى الله هو إحياء النعرات والتفرقة بين الإخوة والأحبة. بالعكس: ما أحوجنا إلى البحث عن كل ما من شأنه أن يجمع شملنا ويقوي صفنا ويغيض أعداءنا: أعداء الجزائر والعروبة والإسلام.

كما أن من أهدافنا أن تتقارب الرؤى بين جميع من لديه على هذا الدين وهذا الوطن غيرة مهما كانت قناعته، تنتزع تلك الحواجز التي تفرق بين المسلمين سواء منهم المنتسبين إلى الطرق الصوفية – الذين قد ينظر بعضهم إلى غيرهم أنهم في ضلال بدون استثناء – أم المنتسبين إلى الحركات الإسلامية بمختلف فصائلها – الذين قد ينظرون بدورهم إلى الصوفية نظرة قاتمة سوداء فلا يرون فيهم إلا الإنحراف والشرك دون استثناء أيضا–.

فما أحوجنا أن يستمع كل مسلم للآخر على أساس الإسلام لا غيره وبنيّة خالصة لله وحده، ويعمل الكل على أساس التعاون في أية نقطة اتفقوا فيها ويلتمسون العذر لبعضهم فيما اختلفوا فيه، ويتجادلون فيما بينهم بالحكمة والموعظة الحسنة بدل الأحقاد والغرور، ولنمسح من قلوبنا كل ما من شأنه أن يوغر القلوب ويحقن الصدور، كما لا يجب أن ننقل أحقاد الفرق والطوائف الغابرة الماضية إلى يومنا هذا بيننا. فعلى كل واحد يعتبر نفسه مسلما يحبّ الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ويخلص عمله لله من أجل التمكين للإسلام أن يتقي الله في نفسه وفي أمّته لأننا في عصر يتطلب من المسلمين أن يبدأوا بالتقارب والتكاتف والتكتل وليس العكس، وتلك من متطلبات الإسلام نفسه[1]..

واخير إذا وجد القارئ الكريم أي نقص سواء في الترجمة من الفرنسية إلى العربية، أم في المعلومات التاريخية أم غيرها، وله على ذلك أدلة قاطعة، فإنّني أرحب كل الترحيب بمن ينبهني إليها وهو مأجور إن شاء الله تعالى "رحم الله امرءا أهدى إليّ عيوبي"[2].

---

[1] أنظر أوائل فصل : الشيخ بوعمامة

[2] رواية ابن عيينة عن رجل عن أبي إسحاق الفزاري أخبرنا أبو الفتح بن الإخشيد، أنا أبو طاهر بن عبد الرحيم، أنا أبو الحسن الدارقطني، حدثني صالح بن علي الحصيني بمصر، ثنا أبو بشر الدولابي، ثنا محمد بن منصور، ثنا سفيان، ثنا دفافة، عن أبي إسحاق الفزاري قال: قال عمر رضي الله عنه: "أحب الناس إلي من أهدى إليّ عيوبي" و منهم من يرويه باللفظ المذكور أعلاه عن عمر بن عبد العزيز، والله أعلى و أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المراجعة الثانية

نسخة مزيدة ومنقحة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على نبيّنا المصطفى.

وبعد : فهذه المراجعة الثانية من كتاب: صوفي جزائري سيدي الشيخ (النسخة المترجمة الى اللغة العربية)

ابدأ بالشكر لله أول وآخرا ثم لكل من قرأها وانتفع – ان شاء الله – بما فيها.

لقد ارتأيت في هذه النسخة ان أضيف:

1 – **إضافات في المضمون**: وتمثلت في:

أ – نقل الآيات القرآنية مشكّلة مع تدوين أرقامها وسورها.

ب – تخريج الأحاديث النبوية الشريفة متنا واسنادا وروايةً.

ج – تصحيح بعض الأخطاء اللغوية.

د – إضافات في بعض المعلومات المختلفة.

2 – **إضافات شكلية** تمثلت في :

أ – تغيير صفحة الغلاف.

ب – صورتين للشيخ بوبكر حمزة.

ج – وصورة لبعض اولاد سيدي الشيخ الذين شاركوا في مقاومة اولاد سيدي الشيخ أو عاصروها.

و أخيرا أرحب بأي نقد أو إضافات أخرى أو اقتراحات أو نصائح في العنوان التالي:

medi71234@yahoo.fr

والله الموفق والهادي الى السداد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. والحمد لله ربّ العالمين أولاً وآخرًا.

البيض يوم الخميس 26 شعبان 1437هـ

الموافق لأول جوان 2016م

م. ح. آ

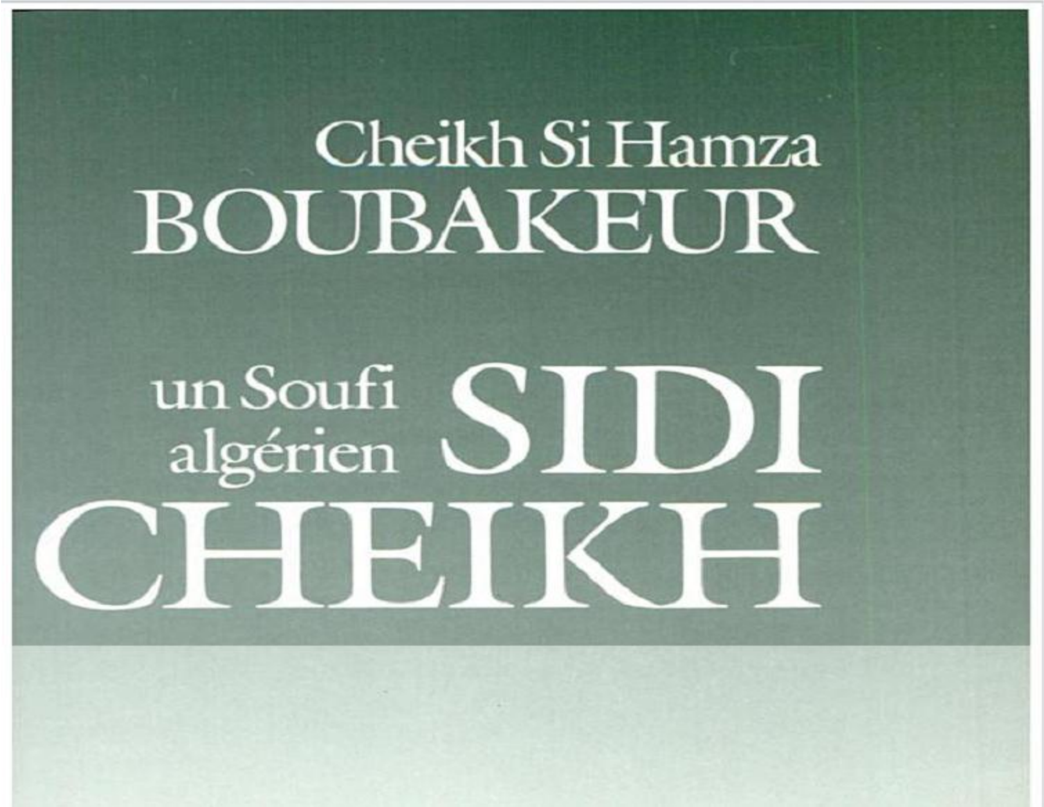

صفحة الغلاف في النسخة الأصلية

الشيخ سي حمزة بوبكر يحاضر

الشيخ سي حمزة بوبكر داخل مسجد باريس

الفصل الأول

حياة سيدي الشيخ بإيجاز

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة سيدي الشيخ بإيجاز

سيدي الشيخ ([3]) واحد من الوجوه الأكثر بروزا في الجنوب الغربي الجزائري على الصعيد الديني كما على الصعيد التاريخي، تسمية **سيدي الشيخ** التي عُرف واشتهر بها هي لقب يدل على علوّ مكانة مشيخته وَ ولايته .

اسمه الحقيقي : عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة ،نشأ في نواحي قصر([4]) أربوات : وهي واحة واقعة على الطريق المؤدي إلى البيّض ([5]) في اتجاه الأبيض على بعد حوالي 25 كلم من هذه الأخيرة . وبالرجوع إلى عمل المؤرخين المسلمين فإن كتّاب مناقب سيدي الشيخ اعتادوا الإشارة إلى أجداده من أبيه ، لكنهم مقتضبون بل وساكتون عن ذكر نسبه من أمّه.

حسب بعض الأهازيج الشعبية المعروفة، فإنّ أُمّه تسمّى **شفيرية** كانت إبنة الشريف سيدي علي بن سعيد أحد " أولياء " المنطقة، وقبره مشيّد في قبّة في **قصر الغاسول**، على بُعْد حوالي 30 كلم جنوب البيّض حاليا .

وعن تاريخ ميلاده ووفاته ومسقط رأسه يوجد شك كبير. إن المخطوطات ([6]) التي نمتلكها تعطينا معلومات متضاربة وغير يقينية لا تمكّننا من الإستنتاج الصحيح.

([3]) لقد وجدنا أنفسنا في هذه الترجمة الموجزة مضطرّين إلى الرجوع إلى النقل باللهجة المحلية كما وضعتها الإدارة الفرنسية المدنية والعسكرية حسب النطق العربي الناقص أو المحرف من جميع النواحي ، وكما سطرت في المؤلفات التاريخية والمجلات وخاصة في سجلاّت الحالة المدنية والخرائط الجغرافية ، ولن نحيد عن ذلك إلا إذا كان هذا النقل " مكروها " وقد لجأنا إلى ذلك فقط من أجل أن نجنب القارئ الحيرة . والنقل العلمي للقب واسم وليّ الصحراء الأكبر : سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد أو سيدي الشيخ . ونذكر على سبيل المثال النقل المتعارف عليه والمتبقي لإسم القرية (الأبيوض) ! ؟ وهذا اللفظ غريب عن اللغة العربية الكلاسيكية وعن النطق باللهجة المحلية للمنطقة حيث أن اسم القرية هو (الأبيَض) بفتح الباء.

([4]) قصر : جمعه قصور ، وهو تحريف للعبارة المتداولة (أقصر) التي تدل في الصحراء (الجزائرية) على قرية أنْشِئَت قرب عنصر ماء أو نخيل .

([5]) البيّض : (جريفيل سابقا ،1304 متر فوق سطح البحر) هي عمالة هامّة (ولاية حاليا) في الجنوب الوهراني ، في سفح جبل كسال بالسلسلة الكبرى للأطلس الصحراوي.
العقيد جيري قرر إنشاء معقل في هذا المكان لإستعماله كنقطة ارتكاز عسكرية للعمليات التي كانت مرتقبة آنذاك قصد غزو الصحراء. لم تكن قبل هذا التاريخ (1845 م) إلا قرية خَـرِبَة مع آثار مقبرة ومجموعة آبار يمتلكها كل من القبيلتين المهمّتين القراريج وأولاد عمران .

([6]) المخطوطات التي نمتلكها هي في حالة سيئة جدّا وليست لها قيمة كبرى، نذكر منها :
ا–أحمد بن محمد الفيقيقي مؤلف ترجمة وتاريخ الولي سيدي الشيخ :كتاب مناقب سيدي الشيخ وكراماته، مُؤَلَّفٌ سنة 1649 م /1056هـ أي كما سنرى، بعد وفاة سيدي الشيخ ب33 سنة. يذكرعن المؤلف أنّه هو أيضا استند إلى مخطوط في نفس الموضوع كان موجودا في زاوية الشيخ الروحي لسيدي الشيخ وهو الصوفي عبد الرحمن السهلي، موجودة بقير العلوي على بُعْدِ مائة كلمتر من بوذنيب (تافلالت) وسنسميه *المخطوط ا* و نرمز له بـ: (م ا)
ب–مخطوط عن حياة سيدي الشيخ ،كتبه رجل مجهول وهوغير مؤرَّخ نسميه *المخطوط ب* و نرمز له(م ب)

زد على ذلك أنه لا يمكن التيقّن من الزمان والمسافات بين الولادات عند البدو الرحّل الذين تتميز حياتهم بالترحال المستمر دائما وراء القوت ، مجبرون بطبيعة حياتهم على العيش مع أغنامهم متنقلين حسب الفصول أو حسب الظروف السياسية أو الإقتصادية على الهضاب أو بين السهول وغالبا حول عنصر الماء ، سواء أكان عينا أو ثمادا أو بئرا . النقول الشفهية ([7]) تخبرنا أن عائلته كانت تحط الرحال عادة في الحمّام بنواحي الشلالة حول القليتة (Gleita)؛ غير بعيد عن القرية الصغيرة أربا الفوقاني بعض " الأوتاد" الطبيعية استعملت كمعالم لتحديد مكان خيمة أبيه عندما نشأ في تاريخ لم يُجمِع عليه مترجمو حياته . يمكن أن نحتفظ ليس بسنة 951هـ/1544م المقدَّمة من طرف مخطوط مجهول المؤلف (*المخطوط م ا*) لكن يمكننا أن نصل إلى نتيجة مستندين إلى تاريخ وفاته الذي تكاد تتفق عليه جميع المراجع . المخطوطات تصرح أن سيدي الشيخ توفي سنة 1025 هـ/ الموافق ل 1616 عن عمر يناهز 85 سنة هجرية و من ذلك نستنتج أنه ولد سنة 940هـ/ 1533م.

إنه ينزل من سلالة أول خليفة في الإسلام أبي بكر الصديق وإن كانت هذه السلالة لم تطعن أبدا فإنّ سلسلة نسبه قد وجد فيها من وثيقة إلى أخرى بعض الإختلافات. أقرب وثيقة إلى الصواب وجد فيها بعض التعديلات بإجتهاد من إمام زاوية سيدي الشيخ السابق العالم الراحل محمد القاسمي الذي اغْتِيل غدرا في البيّض من طرف مجرم مجهول سنة 1379هـ /1960 م . حسب هذه الوثيقة المخطوطة فإن سلسلة نسب سيدي الشيخ تكون كالآتي : الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة بن أبي ليلى بن أبي يحيا بن عيسى بن معمر بن سليمان بن سعد بن عقيل بن حرمة الله بن عسكر بن زيد بن أحمد بن عيسى بن الثادي (او الثودي) بن محمد بن

ج- مخطوط متأخر كتبه أحمد بن محمد الدلدولي التواتي ، مُؤَرَّخٌ في 1325هــ/1905م بخط حسن لكن ترقيم صفحاته مضطرب سنسميه *المخطوط ج* (م ج).

د-مخطوط مجهول وبدون تاريخ ، واضح لكنّه موجز جدّا نسمّيه *المخطوط د* (م د).

([7]) النقول الشفهية الخاصة بسيدي الشيخ تمثل مرجعا للمعلومات كثيرة الإطناب لكنها تساوي نفس ماتساويه جميع وثائق النقل الشفهي . لقد أعطت خلال الفترة ما قبل 1348هــ/1930م إسهاما كبيرا لكل من عكفوا على طريقة وعائلة سيدي الشيخ وخاصة الضباط الفرنسيون والمكتشفون والعديد من كتاب التراجم التاريخية أو الدينية لأولاد سيدي الشيخ ، وبصفة خاصة العقيد تروملي (Trumelet) والرائد رين (Rinn) ودوبو (Depont) و كوبيلاني (Coppilani) ودولامارتينيير (Delamartiniere) ولاكروا(Lacroix) ،

هؤلاء الأخيرون كُتَّاب لأوسع وأهمّ سلسلة " وثائق حول الغرب الإفريقي " (الجزائر 1896 الجزء 2 – ص758-951) مع ملحق من سبعة شجرات النسب مفصلة لأجداد وأحفاد ولي الصحراء.وواضح أنه ليس الأمر هنا إحصاء كامل للكتب الخاصة بشخص سيدي الشيخ واعماله ودوره التاريخي هو وأحفاده . يجب إذا الرجوع إلى ارشيف الوزارة الفرنسية للحرب بمدينة فانسين(Vincennes) باريس وأرشيف ماوراء البحاربإكس أوم بروفانس(Aix-en-Province) خارجا عن بعض الفصول المملوءة بالأخطاء والتي يمكن مطالعتها:

كتب تاريخ الجزائر لتوفيق المدني وجيلالي عبد الرحمن ومتعلّمين تاريخيين آخرين يمكننا القول أن المراجع العربية الخاصة بهذه العائلة ومؤسّسها وأحفاده تكاد تنعدم . الشعر الشعبي على الأقل خلّد سيدي الشيخ وأبناءه البارزين ، وكثيرا مانسمع في المقاهي و الأسواق واماكن التجمعات نسمع الشعراء البدائيين والمداحين يغنون وينشدون الأشعار المنظومة لشرفه، خاصة محمد بلخير وسيدي الشلالي وآخرون كثيرون ، بغض النظر عن الغنوات الشعبية التي تنظمها وترددها النساء.

عيسى بن زيدان بن يزيد بن طفيل بن المضي بن ازراو بن زغوان بن صفوان بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق .

عائلته أقامت مند بداية القرن التاسع الهجري (14 الميلادي) في هذه المنطقة مترحلة بين العرب والبرابرة . وكانت تتمتع بشهرة وإطراء نظرا لانتسابها لأول خليفة في الإسلام سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ([8]) الصاحب الوفي والصديق الدائم للرسول صلى الله عليه وسلم(6)، شهرة مضاعفة نظرا للدور الروحي الكبير الذي لعبه أجداده (آل أبي بكر) أو كما هو متعارف عليه (البوبكرية) في تونس والجزائر والمغرب .

لكي نتمكن من توضيح حضور البوبكرية بين العرب الرحل ولكي تظهر المراحل الهامة لمحنهم يجب علينا أن ندخل ملحقا في هذه الترجمة التاريخية الدينية ، بعض المآثر البطولية والأحداث التي ليس لها ظاهريا إلا علاقات ضئيلة بعملنا لكنها تمكننا من الإحاطة الجيدة بالموضوع ومن تصحيح كثير من الهفوات .

استقر القائد الديني والسياسي للبوبكرية في الجنوب الوهراني : وهو سيدي معمر أبو العاليا ؛يجب علينا في هذا الصدد أن نبدد المفارقات التاريخية التي تظهر وأن نضع حدا للأسطورة التي راجت كثيرا بين أحفاد سيدي الشيخ ،الأسطورة التي تذكر أن سيدي معمر أبو العاليا هو أخو سيدي محرز ولي تونس. كثير من المخطوطات تذكر هذه " الأخوة" التي تظهر لنا أنها خطأ مطلق.

حسب مناقب ([9]) سيدي محرز بن خلف الوالي الروحي لتونس الذي قد توفي في سن 70 سنة أي حوالي سنة 431هـ/1039م أي 29 سنة قبل دخول الهلاليين إلى إفريقيا (442هـ/ 1068م) في حين أن نزوح العرب الرّحل الذي كان من بينهم (البوبكرية) وعلى رأسهم سيدي معمر أبو العاليا يرجع تاريخه -حسب نفس المخطوطات- إلى سنة 891هـ/1489م . بذلك يكون الفرق بين سيدي محرز وسيدي معمر أكثر من 4 قرون وهنا يكمن ضلال الوثائق التي نمتلكها، واحدة من هذه الأساطير التي يشتهيها الرواة وكتّاب التاريخ المقدّس العرب لكن دون اعتبار تاريخي ثم إن سلسلة نسب سيدي محرز لا تنطبق مع سلسلة نسب سيدي معمر أبي العاليا. حسب المؤلف المذكور آنفا فإن سلسلة نسب سيدي محرز هي كالأتي([10]) محرز بن خلف بن رزين بن يعقوب بن اسماعيل بن حنظلة بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق التيمي رضي الله عنه.

([8]) عبارات التضرع والدعاء المروية او المدونة طبقا للسنّة من طرف المسلم كلّما ذُكِر إسم رسول من الرسل (عليهم السلام) أوصاحب رسالة الإسلام (صلى الله عليه وسلم) أو هذا أو ذاك من صحابته (رضي الله عنهم) تذكر ضمنيا بعد النص أو يشار إليها بصفة استثنائية من أجل تسهيل التحرير والكتابة.

([9]) المرجع : روجي إدريس – مناقب سيدي محرز بن خلف والجتنياني– بارس 1959 .

([10]) ص89

حسب مناقب سيدي الشيخ فإن سلسلة نسبه تكون كالأتي : محرز بن أبي سعيد بن خلف بن رزين بن يعقوب بن أبي زياد بن حنظلة بن خليفة بن إسماعيل بن الشابي بن زيد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

هاتان القائمتان تختلفان في بعض النقاط لكن نعتبرهما يَقِينِيَتَيْنِ.

الشيء المحقق هو أن أسلاف سيدي الشيخ كان وجودهم في منطقة الجنوب الوهراني بسبب سيدي معمر بن المعراج الملقب بأبي العاليا .هذا اللقب الذي اكتسبه نظرا لاحتدامه في المعارك ،حيث أن الرواية الشفهية تخبر أن رمحه كان في المعارك " فوق كل الرماح "، هذا ما أكّده لنا مقدّم سيدي الشيخ، الفقيد الحاج محمد بن علي بن كبار الذي توفي في جوّ قدسي في بريزينة حوالي سنة 1359هـ /1940م رحمه الله. كما يرجع له الفضل في امتلاكنا بعض المخطوطات .

كما أنّ هذا اللقب رغم قلة تداوله كان قد لقّب به قبله مفسر وسلفي un exegete et traditionaliste مشهور في مدرسة المدينة المنورة و هو رفيع بن نهروان أبو العالية (توفي عام 90هـ/709م) .

كان سيدي معمر أبو العالية . حسب المخطوطات . على رأس القبائل العربية البدوية التي أبعدت عن منطقة تلمسان من طرف الزيانيين.

المخطوط (م د) يسمّي هؤلاء الرحّل بالطائفيين، ثمّ يزيد: طائفة بني هلال كان على رأسها سيدي معمر ابو العالية، والطائفة الأخرى: طائفة سويد كان على رأسها الشيخ ماضي، جدّ المواضي والشعانبة الّذي استقرّ بمنطقة الأغواط وأسّس القرية التي تحمل اسمه(عين ماضي)"[11].

في هذه الظروف استقرّ سيدي معمر في نواحي أربوات التي كان يحكمها ممثل مجهول من قادة الخوارج المحلّيين (بعض المخطوطات تذكره تحت اسم: السلطان لكحل).كل المنطقة كانت معتنقة مذهب الخوارج رغم وقوع الرستميين بتيارت منذ قرون (296هـ/909م)؛ بوسمغون ،

([11])حسب المخطوط (ب) فإنّ تحت العاهل يغمرسن كانت عرب بني ياحمد ، بني عامر التي تحتوي على أجزاء حميان (وشِعَبها الشافيع وجنبة)،أولاد صرور ،الرزاينة ،عكرمة ،قبائل الطرافي ،أولاد زياد ؛ كان على رأس هؤلاء كلهم سيدي معمر ،فغادروا المقاطعات التي حصلوا عليها حول تلمسان ليذهبوا و يستقرون في منطقة جبل عمور وكسال و بونقطة و جبل عنتر(أي منطقة العين الصفراء) ،أربوات ، البيض، ستيتن، آفلو ، بجوار بعض الأجزاء الأخرى للهلاليين مثل أولاد يعقوب والأرباع إلخ..

المخطوط (ج) يزيد أن طرد العرب إلى جنوب تلمسان يرجع إلى سنة891هـ/1486م و حسب (م د) سنة 871هـ/1466م ، هذان التاريخان لا يمكن أن يعوّل عليهما لأنّهما يقعان في فترة هيمنة الوطّاسيين في فاس و يوافقان أحداثا وقعت على قرنا و نصف قبل ذلك.

ولأنّ هيمنة يغمرسن بن زياد تقع بين سنة 636 و 682هـ/1239 و 1283م ، هذه الهيمنة التي استطاع طيلة مدّتها أن يتصدّى لهجومات ولغارات المرينيين و الحفصيين بتونس آخر مماليك الموحّدين والمنافسين الزناتيين ،كان عليه أيضا أن يردع الفوضى التي أثارها البدويان معقل و الزاوي عبد الإله محرضين لجميع المغامرين ؛ حيث نظم ضدهم أكثر من 72 حملة عسكرية . و انتهى الأمر بإجلائهم بعيدا عن عاصمته... إذا كان تاريخ هذا الاجلاء هو حقّا 891هـ/1486م ــ حسب المخطوط ج ــ يتفق ان نفترض أنّ يغمرسن ــ حسب وثيقة المخطوط د ــ لا يمثل مؤسس الأسرة المالكة للزيانيين و لكنه واحد من خلفهم .

الشلالة، أربوات، الغاسول، بريزينة ... باختصار كل القرى البربرية كانت مركز هرطقة وإلحاد. سيدي معمر والعرب الرحّل ،الّذين أُبعدوا من تلمسان بسبب صخبهم، عزموا على تطهير كل هذه المناطق من مذهب الخوارج لاستبداله بمذهب السنّة والجماعة على مذهب الإمام مالك.

توفّي سيدي معمر حسب نفس الوثيقة بعد أن أرجع الناس إلى الطريق المستقيم في المنطقة سنة 822 هـ/1420م. هذا التاريخ لا يمكن قبوله لأنّ تاريخ وصوله الى المنطقة كان سنة 891هـ /1486م أي 66 سنة مفارقة.(كما أنّنا نعتبر هذه التواريخ خيالية ونشك في صلاحيتها التاريخية). أما ما يليق الاحتفاظ به فهو أنّ دخول الهلاليين الى منطقة أربوات وقع في القرن التاسع الهجري أي الخامس عشر الميلادي، والله أعلم.

توفّي إذن بأربوات .كما تذكر بعض المخطوطات . لكن ليس هناك ما يؤكّد ذلك، لأنّه لم ينظّم أيّ ''ركب'' (الاحتفال السنوي). في هذه الواحة البربرية شيّدت قبّة على قبره ''للزيارة'' لكن لا يوجد أيّ شيء يؤكّد أنّ جثمانه مدفون في أربوات، خاصّة أنّ هناك موضعين جزائريين يدّعيان هذا الشرف وهما منطقتا تنس وغليزان،من أجل ذلك لقّب ''أبو قبرين''.

لقد ترك أربعة أولاد، أكبرهم عيسى بالعاليا الّذي أصبح قائد عائلته البوبكرية، هذا المنصب الّذي ورّثه لابنه ''ابي الحيا'' الّذي هو بدوره خلفه ابنه أبو سماحة الّذي كان معروفا هو الآخر بتقواه. هناك مخطوط يذكر أنّه كان يمتلك ثروة كبرى و كان في حياته يبعث بالثلث إلى مكّة ونظّم بالثلث الآخر مركز العلم والإطعام (الزاوية). يكون هذا الأخير قد دفن في ''شروين'' (تجمّع سكني يقع على بعد 60 كلم من تيمون حيث يقام احتفال سنوي). وجوده ووفاته بشروين غير مفسّرة من طرف الرواية الشفهية: توفّي في شروين؟ في الشلاّلة الظهرانية؟ الله أعلم ..

ابنه وخليفته أبو دواية سليمان، جدّ سيدي الشيخ، كان إحدى الشخصيات البارزة لسلالة أبي بكر الصدّيق آنذاك، لقد أظهر منذ صباه استعداده المتميّز للعلم والتصوّف.

بعد أن أنهى ما يمكنه أن يتلقّاه من التعليم بالمنطقة خاصّة بفيقيق والشلاّلة (قرآن، حديث، سيرة،نحو،فقه) ذهب الى قرية بني راشد . حسب المناقب التي تتصف بالخلط وعدم التنظيم والمملوءة بالمفارقات التاريخية . هي قرية بالغرب الجزائري أصبحت بفضل الإشراق الفكري لِواحدٍمن أكبر الصوفية الجزائريين آنذاك هو سيدي أحمد بن يوسف المعروف باسم''المليانى'' (صاحب مليانة) والراشدي (أي من أصل بني راشد).هذا الإمام الصوفي المغربي كان قطب إشراق للطريقة الشاذلية في شمال إفريقيا ويستحقّ أن نفتح له قوسا لكي نعرّج على الدور الفعّال الّذي قام به في ذلك الوقت.

هو أبو العبّاس أحمد بن يوسف الملياني الراشدي، نشر تعليمه في بني راشد. أمّا فيما يخصّ تاريخ ميلاده ووفاته كما هي الحال عند جميع الشخصيات التاريخية بشمال افرقيا يوجد الكثير من التردّد. بعض الوثائق تشير الى ان تاريخ وفاته كان سنة 931هـ/1527م. أمّا الناصري صاحب كتاب الاستقصاء فيشير الى سنة 927 هـ/1521م. و مهما يكن من أمر فإنّ الشيخ أحمد بن يوسف كان له تأثير متميّز بعمقه في المغرب العربي بالأمس وحتى اليوم. لقد ذكر في''الياقوتة '' (منظومة سيدي الشيخ) حيث سنرجع اليه في شرحها والتعليق عليها. ولكن الجدير بالذكر هنا هو أنّ دروس هذا الشيخ الشاذلي الكبير كانت متبعة من طرف المئات (بعض المخطوطات تذكر الآلاف) من التلاميذ القادمين من جميع الآفاق خاصّة الجزائر والمغرب.

وقد انبثقت من شهرته وتعليمه عدة طرق شاذلية أسّسها تلامذته المباشرون ثم تلامذة تلامذته. وهذا نفسه وقع للطريقة النصرية التي أسّسها الشيخ محمد بن ناصر الضراعي في أقصى جنوب المغرب ، توفّي في تامقروت سنة 1080هـ/1669م، والطريقة الغازية التي أسّسها أبوالحسن الغازي في واد الضراع بالمغرب سنة 932هـ/1526م، والطريقة الشابية التي أسسها أحمد بن مخلوف في تاريخ لم نتمكن من تحديده ،والطريقة الطيبية التي أسسها مولاي عبد الله الشريف (متوفي سنة 1278هـ/1879م) التي أصبحت مشعّة بفضل حفيده مولاي الطيّب الذي سمّيت الطريقة باسمه في وازّان وهي مدينة صغيرة تقع في جبل وازّان على بعد 150كلم جنوب غرب طنجة، والطريقة الحنصلية نسبة للدرويش سعيد بن يوسف الحنصلي من بني مطير جنوب فاس (توفي سنة 1114هـ/1702م)، والطريقة الزيانية التي أسست في منتصف القرن 11 الهجري (17ميلادي) في قنادسة قرب بشار من الحاج محمد بن عبد الرحمن سنة 1016هـ/1608م وهو الذي نظم حماية قصور توات وقورارة ضد سطو التوارق . والطريقة الدرقاوية التي أسسها مولاي العربي الدرقاوي من بني زروال من أجزاء درقاوة ،توفي سنة 1238هـ/1823م في بوبريش شمال فاس، والطريقة المدنية التي أسسها محمد بن حمزة المدني حوالي سنة 1235هـ/1820م وتوفي في تاريخ غير محدد بمدينة مسراتة (ليبيا). من بين هذه الطرق التي يرجع أصلها الفكري بصفة مباشرة أوغير مباشرة إلى سيدي أحمد بن يوسف ،توجد الطريقة الأكثر شهرة و بدون منازع ألا وهي الطريقة الشيخية التي أسسها الشيخ عبد القادر بن محمد الملقّب ***سيدي الشيخ*** (أي الشيخ على الإطلاق) ومنها يتصل أتباع من أتقى المحاربين هم ***المكاحلية*** الذين هم اليوم في بئر النسيان.

توجد رواية مذكورة في كثير من المخطوطات تخبرنا أنه جمع يوما مريديه حول منزل مهجور وقد أخذ في يده سكينا وأظهره لهم قائلا:''إنّ الله قد أمرني هذه الليلة في المنام بأن أضحّي بعشرين رجلا منكم لكي يجنّبكم مصيبة كبيرة يمكن أن تقع علينا وعلى كلّ البلاد.. أعرف أنّكم أوفياء لي

وأنّ ثقتكم بي كبيرةٌ، لا أريد أن أرغم أي واحد منكم، فالّذين يحبون الله القريب، ويحبّونني يأتون ويمدّون لي رقابهم لكي أضحي بهم: ‘‘لكن سرعان ما وجد الفراغ حوله؟ إنّ مريديه الأوفياء الأتقياء قد اختفوا إلاّ سبعة منهم أجاب كلّ منهم:"ها أنا ذا يا سيّدي " من بين هؤلاء السبعة المرشحين للأضحية أو المذابيح .كان هناك بالتحديد جدّ سيدي الشيخ: سليمان ابن أبي سماحة.

لم يكن ذلك إلاّ امتحانا تخيّله الشيخ أحمد بن يوسف الّذي كان عليه أن يهب سرّ الطريقة، ويتطلّع إلى روح التضحية والإخلاص لدى مريديه لكي يصوّب اختياره.

سليمان بن أبي سماحة كان أول من قال:"ها أنا ذا" قابلا أن يخضع لامتحان البرهان الّذي فرضه شيخه الملقّن، فأعطى بذلك دليل إخلاصه وعزمه المملوء بالثقة في الطريق الّذي هداه الله إليه. المناقب تزيد: "طاعته وإخلاصه وتقواه العميقة التي أظهرها طيلة حياته كان لا بدّ أن تظهر في ذرّيته. إنّه كان سيّد الطريقة التي جعلت جدارة واستحقاق البوبكرية واضحة، ورفعت علمهم عاليا".

لقد ترك شيخه وهو مزوّد بمنصب ***"مقدّم"*** للشاذلية ورجع الى مسقط رأسه حيث تفرّغ لتعليم العلوم الدينية.

المخطوط (د) للمناقب يزيد:"في فيقيق تكفّل بأن يعمل على تعليم الناس لهدايتهم الى الطريق المستقيم.." لاحظت في إحدى التراجم المخصصة له أنه كان يُعَدّ من أحسن الرواة، ثمّ زاد أنه كان يروي الحديث كالآتي:"هذا حديث قاله من لا ينطق عن الهوى (يعني الرسول صلى الله عليه وسلّم) في اليوم الفلاني، والحديث الفلاني نطق به في اليوم الفلاني، والحديث الفلاني قاله وهو(صلى الله عليه وسلم) في هيئة حسنة، والحديث الفلاني قاله وهو في حالة غضب، و الحديث الفلاني قاله وهو قائم، والحديث الفلاني قاله وهو جالس، والحديث الفلاني قاله وهو مضطجع على جنبه الشريف، والحديث الفلاني قاله وهو في بيت زوجه عائشة والحديث الآخر في بيت ميمونة والآخر عندما كان في المدينة والآخر في البادية والآخر في الليل والآخر في وضح النهار ... إلخ وهذا كلّه يبين قوّة ذاكرته وجهده (لكي يحصل على كلّ هذه المعارف رضي الله عنه). ولقد ألف بعض الكتب مثل: (الأسئلة الكتابية والأجوبة السماحية) كما ألّف كتبا أخرى في الإلهيات والنحو التي لم اتمكن من الحصول عليها بعد.

يزيد المؤلف أن: "ابن مريم الملاتي ([12]) منحه كتابا في الكلام".

([12])هذا الكتاب هو بدون شك لصاحب "البستان "_الذي ترجمه الى الفرنسية بروفنزالي في الجزائر 1910م .

لقد توفي سنة 1011هـ/1603م.ويمرّ مؤلف المخطوط مرّ الكرام على بعض مراحل حياته: "لقد زار مواضع كثيرة في شمال افريقيا ثم في الأندلس ليتابع في غرناطة دروسا عن الفقهاء المشاهير أمثال الشيخ المؤاق (من شرّاح خليل) وابن الأرضون والسبكي وابن فارس.. إلخ"

المخطوط(د) يزيد:"سليمان أبو دواية بن أبي سماحة ترك غرناطة قبل أن يستولي عليها الإسبان، أي في اليوم الثاني من ربيع الأول سنة 877هـ"

ومن الملاحظ أن هذا التاريخ ليس صحيحا لأنّ سقوط غرناطة في يد الإسبان ومعاهدة "القدّيسة في" Sante Fe يعود تاريخها الى سنة 897هـ/1492م. ومهما يكن فإنّه التجأ إلى فاس حيث كلّف بالتدريس في جامع القرويين المشهور؛ هذا التكليف الذي تحمّله مدة 7سنوات .كما هو في نفس المخطوط. ثم غادر عاصمة بني وطّاس وهي في كامل تأجّجها لكي يرجع الى موطنه الأصلي.

بعد بضع سنوات الدراسة والتأمّل غادر قرية الشلالة الظهرانية (الشمالية) لكي يعيش في العزلة. ‘‘لقد نصب خيمته قرب عين اشتراها من المسمى أبو صالح حجري من قبيلة بني عامر بثمن 500 دينار ذهبي‘‘. هذه العين ما زالت موجودة تحت اسم عوينات بودواية قرب جبل زتام غير بعيد عن الشلالة. "ولقد أنتج فيها بعض المواد (خضر وحبوب) من عمل يده، متفرغا الى حياة الورع والزهد الى أن كشف الله له الأسرار التي تمكنه من بلوغ أعلى درجات الصوفية".

" توفي في سنّ 80 سنة (940هـ/1532م) في بني ونّيف حيث بنيت قبته الموقّرة وزاويته التي تستقبل العديد من الزوار".

حول التواريخ المذكورة في المخطوطات لدينا كثير من التحفظات كما سيأتي. فهذه السنة . حسب الوثائق التي نمتلكها . هي التي ولد فيها حفيده **سيدي الشيخ** .

لقد ترك عند موته ثلاثة أولاد وبنت واحدة، منهم محمد بن سليمان (أبو سيدي الشيخ) الذي درس العلوم والقراءات القرآنية تحت إدارة شيخه عبد الجبار بفيقيق. والعالم سيدي الحاج بن عامر أيضا".

ابنه الثاني سيدي أحمد المجدوب توفي في جوّ قدسيّ بقرية ***عسلة*** حيث شيّدت على ضريحه قبّة (ودفن في الشلالة الظهرانية) أحفاده يحتفظون دائما ببعض الإستقلالية عن أولاد سيدي الشيخ.

أما ابنه الثالث لعرج فليس هناك أي شيء يذكر بخصوصه من طرف المخطوطات التي تشير في المقابل الى تقوى ابنته صفية مولاة قرية صفيصيفة قرب عين الصفراء، وقبيلة أولاد نهار تأخذ أصلها من صفية، وقد وقع بينهم وبين أولاد سيدي الشيخ سوء تفاهم عنيف فرّق بينهم.

سيدي محمد بن سليمان كرس حياته دون لمعان مترحّلا في مناطق الرعي الموجودة بين القرى الحالية: سيدي الحاج بن عامر والشلالة واربوات. ومن الملاحظ أنّ قرية الأبيض سيدي الشيخ لم تكن موجودة آنذاك، إنما كانت توجد قرية بربرية تسمى ***مشاقين*** على بعد 15كلم شمال غرب الأبيض في ناحية تافرحيت قرب شعاب خناق واد الصم، حيث ما زالت توجد بها أطلال ومقبرة. ولا توجد أيّة وثيقة ممّا نمتلك تشير الى هذه القرية، والرواية الشفهية وحدها تحتفظ بها كذكرى. ويمكن للحفريات أن تعطي ـ بدون شك ـ معلومات حول ماضيها الوثني، ومن المحتمل أن تكون هذه المنطقة قد عرفت حقبة زاخرة في فترة ما قبل التاريخ حسب الجثوات (الكراكير) العديدة الموجودة في مختلف هذه النواحي.

إذن ما هي الوضعية التاريخية والسياسية في شمال إفريقيا؟

إنّها متميزة بتيار قوي للصوفية موازية للتيار الروحي الذي كان يهبّ على أوربا المسيحية من جهة، ومن جهة أخرى التأثير الكبير للطرق الدينية مع زواياها والمخافر المقواة على طول الشواطئ (الرباط) تحسبا لأيّ هجوم، وعدم الاستقرار السياسي واسترجاع روح المقاتلين وحدّتهم في الحروب الصليبية التي نقلت ميدان المعركة من الشرق الأدنى إلى شمال إفريقيا.

في هذا الجو التاريخي نشأ سيدي الشيخ الذي كان حسب مترجميه منذ ولادته يتميّز بطابع القداسة. إن كراماته تملأ مناقبه. ولن نتطرّق في هذه الدراسة إلاّ إلى الأعمال التاريخية المحضة، تاركين لمن يهمّهم أمر هذه المسألة من هذا الجانب (الذي لا يجب إهماله) أن يرجعوا إلى هذه الأعمال وإلى الروايات الشفهية المحلية.

منذ صغر سنّه أظهر استعداداته المتميزة للدراسات الدينية. أثناء تكوينه الفكري تابع الدروس متلقّيا التشجيعات من مختلف شيوخه المحلّيين أمثال الشريف سيدي الحاج بن عامر، مؤسس القرية التي تحمل اسمه، و من أقرباء أبيه بالمصاهرة، وأمثال الشيخ عبد الجبار بالقصر الصغير الشلالة الظهرانية من نفس المنطقة، والشيخ موسى الحسن الكرزازي مؤسس فرع من الشاذلية الكرزازية مركزها الواحة التي تحمل نفس الاسم، و الموجودة بطريق بشار إلى قورارة. لكنّ شيخها الأوليّ الملقّن للشاذلية كان الشيخ محمد بن عبدالرحمن من قرية السهلي.

المخطوطات لا تقدم أية دقّة حول وصول سيدي الشيخ الى زاوية السهلي، ولا حول مدة دراسته تحت إشراف شيخه هذا بالذات، الّذي يظهر أنّه ليس صوفيا حقيقيا فحسب بل هو شيخ الصوفية على ضوء ما احتفظت به الرواية الشفهية وما يمكن استخراجه من مناقب سيدي الشيخ (المخطوط أ. ص 72،50،9،8)، كان متعلقا بمتاع الدنيا: يغار من تفوّق تلاميذه ويفرض عليهم أتاوى وعلى سيدي الشيخ بالذات مرتّبا سنويا (خادم سوداء وزربية وناقة بيضاء). هو

نفسه أخذ تكوينه الصوفي على يد الشيخ الشاذلي الكبير أبو العباس أحمد الملياني، فمرجعيته غير مباشرة لأنّ رواية المناقب التي ترجعه الى الشيخ الملياني هو نفسه تظهر لنا غير منطقية نظرا للفارق الزمني. طيلة حياته الصوفية كان سيدي الشيخ يكنّ له وفاء و إجلالا عميقين. في حين أن الشيخ عبد الرحمن السهلي يظهر- حسب المناقب - أنّه كان ذا طباع صعبة وطلباته لا يمكن تحمّلها. أما فيما يخصّ أصله فإنّ المخطوطات فيها خلط. تقول ان أصله من ***السهلي*** حيث يوجد اليوم قبره و زاويته. لكن نجد في المناقب - ايضا - انه يوجد المسمى محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر السخوني إلاّ أن هذه العلاقة العرقية تذكرنا بحيّ في فيقيق: السهلي هذا ألا يكون فيقيقيا؟ مهما يكن فإنّ مقارنة المخطوطات التي نمتلكها وتسلسل الأحداث التاريخية وشهادة العياشي (كتاب الرحلة ج2 - ص421) فإنّ شيخ سيدي الشيخ: محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة 990هـ/1582م بالسهلي هو ليس تلميذا مباشرا للشيخ الصوفي أحمد بن يوسف الملياني وإنّما هو تلميذ تلميذه الفيلالي علي بن عبد الله.

هذه التفاصيل والاستطرادات ليست بالحشو الزائد ولكنّ هدفنا من ذكرها يكمن في استخراج المادّة الجوهرية من المخطوطات التي بحوزتنا (و هي صعبة القراءة، كثيرة النقصان والهفوات، غير منظمة، فارغة من الناحية التاريخية، مطنبة عندما يتعلّق الأمر بالروايات الغريبة)، لكي نجعل حياة ولي الصحراء-بين الرحّل وفي وقت حاسم من تاريخ المغرب العربي- واضحة قدر المستطاع.

دراساته في السهلي انتهت (دراسات نظرية) فغادر شيخه في تاريخ غير محدد لكي يرجع الى بلده ويتابع دعوته الصوفية.

فبعد أن أخذ الإذن من شيخه، غادر السهلي وذهب الى الجنوب الغربي الجزائري حيث أنه استقرّ أولا في مغرار التحتاني غير بعيد عن العين الصفراء ولكنّه وجد هذا المكان معزولا فأعرض عن مشروع إنشاء زاوية به. فغادره لكي يجرب تحقيق مشروعه عند حميان بالمشرية أولا ثم عين ماضي ثم تاسّلة، توات، فيقيق: هذه الواحة التي كانت تتمتع بالإزدهار الاقتصادي وبانطلاقة كبرى لمركزها للتعليم الديني المعتدل، هذا ما جلبه إليها على الخصوص. لكنّ العقلية البربرية وعداوة فقهائها للصوفية حطمت أمله. غادر فيقيق إذن قائلا: "إذا أراد أيّ وليّ أن يمتحن صبره على الأذى فليعش مع أهل فيقيق" (اللي قال أنا وليّ يعاشر أهل فيقيق).

غادر فيقيق عابرا واد الناموس مرورا بملك سليمان وهي قرية وثنية، فهدمها واستقرّ أخيرا في الحاسي الأبيض الّذي أصبح منذ ذلك الحين يسمى ***الأبيض*** ، أنشأ الزاوية الأم التي لم تلبث أن غطّت مساحة واسعة بفضل " المقاديم" الّذين كوّنهم لدرجة أنه بعث بأحدهم يمثل طريقته في الجزائر العاصمة. قائمة هؤلاء المقاديم مع الأماكن التي كانوا يمثلون فيها طريقة سيدي الشيخ أو

الشيخية والتي هي فرع من الشاذلية موجودة في المناقب. الشيخية تتصل بالشاذلية بواسطة ***سلسلة الذهب*** التي تتنوّع من كاتب لآخر ولكنّ أصالتها وشرعيتها قد صحّحها شيدي الشيخ نفسه في الياقوتة. الاختلافات الطفيفة الموجودة بين الشاذلية والشيخية تمسّ تلاوة الوظيفة التي تتبع الصلوات المكتوبة والنوافل عند الشروق والغروب.

هذه الوظيفة تتضمن عند الشيخية :

1. ثلاث مرات الفاتحة.
2. ثلاثمائة مرة الشهادة.
3. مائة مرة الاستغفار.
4. مائة مرة الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم.
5. ألف مرة غبارة التوحيد "لاإله ألاّ الله".
6. "الجلالة" التي سنذكرها معلّقين عليها فيما سيأتي إن شاء الله.

و بعد قراءة الجلالة بصوت مرتفع أثناء الحضرة يجب على المنضمّين أن يردّدوا كلهم ثلاث مرات بعد كل بيت "الله الله الله" مكررة. شرعيتها تستند إلى سلسلة الذهب التي سنذكر فيما بعد ترجمة كل واحد منها في الشرح التعقيبي للياقوتة.

كان لسيدي الشيخ في حياته عدّة زوجات منهن واحدة مسيحية وآخرتهنّ عائشة بنت عبّو (تحريف لعبد الله أو عبد الإله) دفنت فيما تبقّى من منزل سيدي الشيخ في القصر الغربي غير بعيد من المسجد العتيق الّذي بني من طرف ولي صحراوي منذ بداية رسالته.

بينما الصوفية تقدم أولا التقشف والعزلة والزهد في العالم الدنيوي، والصلاة والأذكار والنداء المستمر للرعاية الإلهية والتفكر.. بدأت إذن لديه فترة العزلة في الأماكن الخالية بعيدا عن العالم وأوهامه وتناقضاته وتفككه وسخفه الظاهر.

سُجلت التجربة الصوفية لسيدي الشيخ في إطار الطريقة الشاذلية، بينما طريقة الشيخ أبي الحسن (المتوفى656هـ/1258م) كما نعرفها حسب الكتابات القليلة التي تركها لنا هو نفسه وأتباع فكرته مثل أبي العباس المرسي وابن عطاء الله، هي رائعة نظرا لوفائها للرأي المستقيم، كما أنها تعتبر ـ مع طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ الأقدم والأوفق للقرآن والسنة. لقد سجلها في كتابه أبو حامد الغزالي والمكي في "قوت القلوب" حيث تنبعث منها مجموعة من مبادئ وقواعد التقشف من أهمها: الثقة المطلقة في الله والتوكل عليه والإتّباع الحرفي للفرائض في القرآن والسنة، والورع والاستعانة والبحث عن الفضل واللطف والخشوع والزهد والأذكار الدائمة وتلاوة الأوراد وحب الله والإخلاص والطاعة وتقرب العبد إلى ربه ليصل الى معرفة الله ولقائه بفضل الرياضة

الروحية للاقتراب من الكمال والترنم الداخلي[13]. هذه الرياضات المتسلسلة على مراحل في أوقات مناسبة والمصحوبة بالسكر الفائق والجذب وفقدان الحواسّ والإرادة من طرف المرشح الطموح. هذا النوع من الفناء يؤدّي إلى الإحياء في الله بروح وحساسية جديدين، انصهار إرادة المخلوق في إرادة الخالق بعيدة عن الرهبنة(Monisme) التي يدّعيها بعض الصوفية الضالة، لأنه لا يوجد شيء أو أحد يساوي أو يختلط أو يتقارن مع الله تعالى في الغيب ومطلق وحدانيته (ارجع الى سورة الاخلاص 112).

الشيء الذي يحتسب حسب تعليم الشيخ الشاذلي وبعده سيدي الشيخ هو التديّن الحقيقي وليس الاصطناع والتكلف ولا التفاخر. في هذا الصدد ليس للصوفية الحق في اظهار تقشّفهم في الملابس البالية والمقطّعة والمرقّعة ولا ان يظهروا متسخين وقذرين، إنّ التسول وطلب الشفقة من الآخرين هما في ذاتهما محتقران واكثر مقتا من تعلّق الأغنياء والحكام بالحياة الدنيا .

بدل أن يكون له مظهر خارجي يوحي للناس:"أن انظروا إلى حالنا المزرية، إنّنا نحتاج إليكم.." فإنّ الصوفي الحقيقي يجب أن يعمل ويعيش محترما بعمله، ويلبس ثيابا لائقة أو حتى فاخرة لكي يظهر لأشباهه: "أن انظروا إلى ثيابنا، نحن لا نحتاج إليكم ولا لإسعافكم لنا..".

إن النجدة والإسعاف الحقيقيين للصوفي قد تكفلهما له الله تعالى معبوده ومحبوبه الذي يوجه اليه توسلاته.

هذه الوسيلة التي يجب ان يعبر عنها ليلا ونهارا، ولكي يغالب النوم فإن الوسائل المصطنعة يجوز استعمالها وخاصة القهوة البنّ التي منذ ظهورها (القرن7هـ/13م)أصبحت مشروبا شاذليا.

لكي تكون مطابقة للسنة وموافقة للصوفية الشاذلية فإن الطريقة التي أسسها سيدي الشيخ لا تظهر مختلفة كثيرا عن الخطوط الأصيلة.

أثناء الحضرة والذكر لا يجوز استعمال أي شيء للإستعانة به، لا موسيقى بالآلات ولا رقص.. إلخ كل ذلك مرفوض من الطقوس والشعائر. وهناك أصالة أخرى: أهمية الخلوة المناسبة للتفكر واستخلاص الروح مع الله. الرواية الشفهية والأشعار الشعبية والمناقب تعترف له ب110 خلوات في الواد الغربي وواد الناموس وعبر الناحية الوسطى لجبال الأطلس الصحراوي (كسال وبونقطة وعنتر) وفي الكهوف وقرب المقابر المهجورة وفي الدهاليز.. (انظرالمناقب ص 85،48،23،18،16 إلخ..).

ان دراسة منظومته الصوفية **الياقوتة** تمكّننا من استخراج خصوصيات أخرى مهملة. لكن نفس المنظومة تلحّ على الناحية العقائدية وحول قضية القدرية لله، وحول العفو والعقوبة، وحول

[13] لعله يقصد الدندنة كما في الحديث...

الخير والشر، إنّها مواضيع تفَكر سيدي الشيخ بدون شك أثناء عزلته من خلوة الى خلوة (5سنوات و5 أشهر و5 أيام حسب المناقب ص 18و48)..

كل عمل محرم يعتبر معصية لله الأبدي يلبّس صاحبه خطورة كبرى. كل الناس معرّضون للطرد من النجاة إن لم تلحقه رحمة الله في صرامته، عقابه عدل، وجزاؤه فضل. كما أنّه يحرم اليأس من رحمة الله، والكل يؤدي إلى قضية الرضا ..

الورع الجيد يؤدي الى استحقاق رضا الله الذي هو حر في قبول أو رفض برّ مخلوقاته، لأنه لا أحد يدعي أنه يملك بأيّ سبب كان أيَّ حق على الله.

الصلاة والصوم والثقة والتوسل تخلق استحقاقات للعبد الوفي أن ينال الرضا ولكن ذلك ليس إجبارا في حق الله أن يجازيهم. إن طاعة الله وعبادته ليستا مشروطتين، وعفوه يرجع إلى محض اختياره. لا شيء يربط الله بالناس خارج حلمه ورحمته ورأفته التي كتبها على نفسه. إنّه لمن الضلال البعيد أن نضع العلاقة بين الخالق والمخلوق في زاوية العدل. إن العدل كما هو معروف عند الناس هو عدل بشري له علاقة بالميزان البشري أي يحكم بالظاهر الخارجي لا بالحقيقة والعمق الداخلي. وإنه لا يجب أن يتداخل ذلك مع العدل الإلهي المتدفق من اللامعروف (المجهول) في المقياس الإلهي .

من ذلك فإنّ الطريقة التي تؤدّي إلى رضا الله والتي اتّبعها أهل السلوك([14]) طريقة اكتشفها الصوفية المتعطشون الى الله والذين هم أهل لأن يكونوا قدوة للذين يجهدون أنفسهم لأن يلحقوا بهم عن طريق اختبار الألم في " الحقول التي تنبت الأدوية "، لأحباب الله الذين تيقنوا أن الحب لا معنى له إلا إذا صاحبته التضحيات. إرادة العاشق يجب أن تكون جهدا مستمرا ليخرج من أنانيته ويقترب من الكمال و يكون أهلا للحب وينكر ذاته حتى يستبعد كل تبادل تجاري أو فكرة احراز «المناصب الجيدة الدنيوية» و« العلاقات الجيدة في الحياة المستقبلية الدنيوي» .

سيدي الشيخ يعلن في الياقوتة ان تقواه تفيض بالفضل الذي وهبه الله اياه. ليس الخوف من النار ولا الطمع في نعيم الجنة هما اساس صلاته وصيامه وحسراته وسهره وزهده في الدنيا، وذكره في الوحدة.

إنّه يحب الله دون أن يفكر في الجنة ولا في النار ولكن لله وبالله فحسب. يمكننا ان نجد في المناقب هذا التوكيد على الترفع والعفة وتقواه الداخلي: "إنّ الله ينظر الى قلوبكم" " أقلّ الرجال أدبا مع الله من يعبد الله خوفا من النار أو طمعا في الجنة " (ص 35،34،13). هذا الحب يكون

([14]) ياقوتة سيدي الشيخ تعطي قائمة هؤلاء الأمراء (أنظر البيت 100 ومابعده) نعترف أن أي مؤسس لطريقة صوفية يجب أن يعدد شيوخه الذين يزعم أنه وارثهم الروحي. هذه القائمة تسمى سلسلة الذهب تحفظه من أن يتهم على أنه بدعيّ ضال.

ناقصا اذا لم يضم في أول انطلاقه نموّه واختبارَه، هذا الحب نفسه الّذي من شأنه أن يكشف عن الأصل والهدف: محمد رسول الله وآلُه وصحبُه (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم). كما نكرر أن الطريقة التي رسمها سيدي الشيخ مثلها مثل الشاذلية تقع في إطار القرآن والسنة اللذين بدونهما كل عبادة تصبح ضالّة عن هدفها وعن اتّجاهها، ضلال روحي وهذيان في الألفاظ. طريقته هذه تستند الى الشهادة التي يجب على المريد أن يتعمق في معناها الظاهري وفي حقيقتها الخفية، ويخضع لمتطلباتها والعواقب الناتجة عنها، يعيش محتواها بالحركة والفكر "لا إله إلاّ الله". عندما يتفهم المريد الشهادة جيّدا ويعيشها تصبح بالنسبة اليه عنصره ومحور حياته، تنمّي فيه الحب وتقوده الى الكشف عن الأسرار ونشوة لقاء الله تعالى.

يجب على المريد أن يرددها حسب الدرجة التي توصل اليها عبر اتّباعه للطريق:
12 ألفا إلى30 ألف و حتى الى 60 ألف مرة في اليوم.

ينتقل في ابتهالاته وتوسلاته من ذكر اللسان إلى ذكرالقلب الى ذكر العقل الى ذكر السر.
التأكّد الجازم من وحدانية وتفوّق الله في قدرته وعلمه المطلقين ومشيئته وكماله وحلمه ورحمته، كل ذلك يجد بيانه في هذا الركن الأول من أركان الإسلام: الشهادة، شهادة الإيمان. و إنّ صيغتها المرددة دون ملل والتي يسندها التنفس والحركة المنتظمة للجسم المتفرغ لها تفتح أمامه آفاقا لامتناهية "لا" :نفي مطلق . "إله": ألوهية (الآلهة الكاذبة، وكل ما يمكن أن يُعبَد كالغنى أو شخص محبوب أو محاولات شيطانية) ."إلاّ": استثناء يترك الأمل يطلّ . "الله": بداية ونهاية كل شيء والّذي بدونه كل شيء عدم، منه يأتي كل موجود وإليه يرجع الخلق كله.

عندما ننطق بالشهادة نرسم بالجسم حركة دائرية من اليسار الى اليمين: الدرجة صفر في بداية الإنحاء؛ 90 درجة من الدائرة يرسمها الرأس والصدر؛ 180 درجة عندما يكون الرأس مواليا للأرض؛ 270 درجة عندما يرسم الصدر والرأس منحنى آخر بـ 90 درجة والرجوع الى الوضعية الأولى؛ وبعد رسم منحنى جديد بـ90 درجة نحصل في النهاية على 360 درجة في المجموع. هذه الدائرة والعدد 8 والسبحة المزودة بحبة مرجان ستكون كلها مفاتيح المعرفة الصوفية كرموز سرية وهي معروفة فقط من طرف شيخ الطريقة.

الأهمية التي تكتسيها عبارة الشهادة في طريقة سيدي الشيخ كبيرة حيث أنه أثناء حصص الترتيل الجماعي التي يترنم فيها الأتباعُ الياقوتةَ والجلالة (وهي نظم آخر)، تستعمل الشهادة كمطلع لازم بعد كلّ بيتين أثناء تلاوتهم.

إن الطريقة الصوفية التي رسمها سيدي الشيخ قد عرفت شهرة واسعة نظرا لأنها مستنبطة من القرآن والحديث والطريقة الشاذلية.

هذه الشهرة التي تحققت ظاهرة في حياته بين الرُحّل خاصة الذين ينتمي إليهم وعاش بينهم فكانوا يحبونه ويوقرونه (المناقب ص 45،48) .

مترجموه يحفّونه بهالة من الغرائب كما هو الحال بالنسبة لجميع مؤرخي القديسين (المناقب ص1-36-40-56-70-85-91-107-114-193 ألخ...)أغلب هذه العجائب (المعجزات أو الكرمات) تتعلق بطلبات وأدعية لسيدي الشيخ إستجاب الله له لصالح المحرومين الرحل في بؤسهم ومصائبهم المادية ومجاعتهم وقلة الأمطار والظلم الذي كانوا يقاسونه والبطش الذي كان يصيبهم ظلما (المناقب ص 22 إلى 27 إلخ...)

المناقب تُظهِر أيضا كثيرا من مظاهره الخارجية وبعض طبائعه. حسب هذه الوثيقة إنه كان في تجارة جيدة مع البسطاء أي المستضعفين ورجال العلم ومع أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم (الشرفاء) (ص23 و24) مليء بالرأفة لضعف معاصريه، متشددا مع نفسه، متواضعا، يعشق العزلة ويظهر في كل أحواله تقوى مؤثرة (ص12–22)، كرمه كان مثاليا (ص11-8-13-22)، كان علمه واسعا وعميقا: أصبح شيخا لا يضاهى في علم الحديث (ص36-76). الياقوتة تشهد على بقية إتساع معارفه في ميدان العلوم الدينية واللغة العربية والطرق الصوفية، إلخ...

حول مظهره الخارجي وملبسه فإن المناقب تخبرنا أنه كان جميلا جدا يرتدي ملابس فاخرة وأسلحة ثمينة (ص13-22-23-85) في حين أنه بالنسبة للصوفي العادي يكون ملبسه وبصفة عامة مظهره الخارجي يشهد على الفقر التام طبقا لقواعد التقشف، وهذه واحدة من الشروط الأساسية لكل صوفي متفهم. لكن هذا الشرط غير مقبول في الطريق الشاذلية بصفة عامة كما أشرنا إليها فيما سيأتي وذلك لسببين:

*__السبب الأول__ :هو أن الكثير من الصوفيين المزوّرين يظنون أن ارتداء الخرقة هو علامة كافية لكي يعتبره العوام من أولياء الله. الشاذلية ترفض النظرية القائلة (أن الملبس يصنع القديس) أي الولي.

*__السبب الثاني__ : هو أن عند الشاذلية المظهر الخارجي الجميل يعتبر تحديا.كما تنص عليه طريقتهم: بالملبس الحسن يجب أن تُظهِر للناس أنّ الصوفي الحقيقي لا ينتظر شيئا من أحد ولا يطلب شيئا من أشباهه. ينتظر كل شيء من الله هو وحده معينه ومساعده، كما تشير إليه علامات أحواله الخارجية.

لما اشتهر بتقواه وشجاعته في المعارك ضد الإسبان الذين تمركزوا بوهران، و بعلمه العميق، كان يستشار في بعض أمور الدين. نعرف أن مع موت السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي كان له نحو سيدي الشيخ تقدير كبير، أخذ ابنه الأكبر زيدان السلطة التي نازعه فيها أخواه أبوفارس والمأمون. لقد أشارت المناقب إلى هذا الاقتتال بين الإخوة (المخطوط ب: ص12 .13 .44 .72 .80 .81)

وكذلك إلى نص الفتوى التي أصدرها سيدي الشيخ التماسا من السلطان زيدان، والتي يرجع تاريخها إلى ربيع الثاني 1016هـ/جويلية 1606م (ص27) هذا التقدير من طرف السلطان زيدان كان سببا في الحقد الشرس الذي رصده له أحد الدساسين في عصره وهو ابومهلّي الذي سنرجع إليه.

من جانبهم فإن أتراك تلمسان كانوا يجلّونه ويقدمون له الهبات دليلا على ولائهم له. من هذه الهبات نشير إلى امرأة مسيحية أسيرة تحمل اسما عربيا هو الياقوت، و التي تزوّج بها، و منها انحدر أحفاد ابنها الحاج احمد. بعض أصحاب المقامات العالية (الأشراف) اعتنقوا طريقته. كان الأتراك يكنون له الاعجاب والتقدير ليس فقط من أجل قداسته ولكن أيضا من أجل مشاركته في الجهاد ضد الكفّار الذين تمركزوا بصفة متينة في وهران وتونس.

إنّ الطرق الصوفية . و منها الشيخية . هي الّتي جعلت من وهران مسرحا للمعارك المتتالية من أجل طرد الإسبان.

لكن كما يقول المثل القديم لايوجد نجاح دون حاسد. ووراء كل نعمة حسود. فإذا كان لسيدي الشيخ أصحاب أوفياء بل ومثاليون فقد كان له أيضا أعداء محلّفون. يقول صلى الله عليه وسلم: "ما من نعمة إلاّ عليها حسود" هذا الحسد لايمكن أن يأتي بطبيعة الحال إلاّ من قبل الفقهاء.

بين الفقهاء المدقّقين في أمور العقيدة والمعادين لكل معرفة باطنية (الباطن)، وبين الصوفية الذين يرفضون دائما ارجاع الدين إلى التفسيرات الظاهرية (الظاهر) يوجد دائما –بينهم- معارك ونزاعات تُناقِض بين المعرفة العقلية و"المعرفة" الحدسية المصرّفة من قبل الله تعالى وذلك منذ بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. جدال فتّان بين أبطاله وشهدائه، في فتراته المأساوية والهادئة رغم المصالحة التي أعلنها الإمام الغزالي. إذن لا ننزعج للإتّهامات التي رمي بها سيدي الشيخ وطريقته الصوفية حيث كان المغالون يعاملونه كـ"بدعيّ". المناقب(م أ ص81.72،61.44) والياقوتة (البيت 74 و79) فيهما ردود الأفعال الساخطة لسيدي الشيخ ولَعَنَاتُه العنيفة ضد الذين يشوّهون فكرته ويفترون الكذب على حياته الخاصة ويعيّرونه بـ " شيطان الرّحّل أو شيخ الأعراب " (المناقب ص 35-85-91-107-114) .

طريقته كانت هدفا لكثير من الإنتقادات الحادة من طرف الحَرْفِيّين الذين كانوا يعيبون عليه بعض المتناقضات التي كان يدافع عن نفسه إزّاءها بيقين و قوّة.

- تأخير صلاة العصر إلى المغرب.
- تلقين النساء وقبولهن في النظام الذي أنشأه (طريقته)
- التنازل عن الحبوس والأوقاف في بعض الحالات.

➢ الحماية التي كان يقوم بها – خطأً – لأحد مثيري الفتن الملقّب: العتروس.

حول هذه الشخصية التي هي أشدّ أعداء سيدي الشيخ خداعا، لابد أن نعطي بعض التفاصيل التاريخية:

إن الأمر يتعلق برجل متهوّر أصله من تافيلالت، لما رفض الصوفي الشهير أن يخدم أهدافه السياسية أصبح ساخطا. فقام بحملة قدح وتشنيع حقيقية ضد سيدي الشيخ واصفا إياه بأخطر مبتدع، بِنَقْدٍ لاذع وعنف نادر. من هذه المقالات النقدية توجد إلى الآن مخطوطات محفوظة في المكتبة الملكية بالرباط (القسطاس – الإصليط – المنجنيق). عند قراءتها يتبيّن لنا بسرعة أنّه لم يكن يهاجم الطريقة الصوفية التي أنشأها سيدي الشيخ ولكن هاجم حياته الخاصّة لأسباب شخصية كما سنراها فيما بعد .

هذا الرجل الغريب معروف تاريخيا تحت اسم " أبومحلّي " (الرجل صاحب الغمد المحلّى بالفضّة). اسمه الحقيقي هو أحمد بن عبد الإله بن قاضي. نشأ في سجلماسة حوالي 967هـ 1560م و ينتمي إلى عائلة مرابطية (أومتديّنة)،قائدها أبوه الذي كان يدرّس القرآن.

بعد إنهاء دراساته القرآنية بعثه أبوه إلى فاس لكي يستكمل تحصيلاته. وفي 979هـ1572 م وصل هناك وتابع بمسجد العطّارين . طيلة ست سنوات . الدّروس التي كانت تلقى من طرف الشيخ أبو المحاسن الفاسي، فقيه شاذلي مناصر للجهاد ضد الحملة الإسبانية البرتغالية التي لم تتوقف من التدفّق على الشواطئ المغربية.

إن وفاة السلطان المنصور السعدي (1011هـ 1603 م) أوقعت المغرب في فوضى كانت تشتدّ يوما بعد يوم حتى التنصيب النهائي للعلويين ودخول مولاي الرشيد منتصرا إلى فاس (1070هـ 1668م). رغم غياب السلطة المركزية المعترف بها إجماعا فإن الغارات المسيحية القوية والمتتالية كانت تصطدم بردود الأفعال الشعبية التي كان يقوّيها الفقهاء وخاصّة شيوخ الطرق. لذلك أعلن الشيخ أبو المحاسن الفاسي ضد الغزاة معركة دامية توّجت بالنصر المؤزّر في وادي المخازن سنة 986 هـ 1578م المعركة التي شارك فيها الشيخ الفاسي بنفسه وليس تلميذه الذي تولىّ يوم الزحف ولم يجد إلاّ الوقت الذي يهرب فيه إلى داخل البلاد. . ومن المعروف في الإسلام أن التولّي يوم الزحف هو من الكبائر . ولما علم أن جريمته هذه لن يغفرها له أهل فاس، غادر العاصمة متوجّها إلى تافلالت.

طيلة 14سنة كان يهيم على وجهه من قرية إلى قرية يبحث بدون جدوى عن مركز جديد للدراسة. فلم يقبله أي شيخ ضمن تلاميذه نظرا لهروبه عن الجهاد حيث اشتهر بفعلته هذه بسرعة.

في سنة 1000هـ 1592م فقط قُبِل كطالب علم نظرا لتعنّته من طرف شيخ مجهول يسمى محمد بن مبارك التاستاوتي. هذا الّذي لم يكن يعرف إلاّ القراءة والكتابة جعل نفسه صاحب المعجزات. كان يصاب بالصرع فكان الناس يتخذونه كعّراف مزوّد بقدرة خارقة حيث كانت له علاقة "بالغيب". هذا الشيخ البدوي هو الذي أثر على«أبي محلّي» تأثيرا عميقا: وأقنعه أنه سيلقى في طريقه عقبات خطيرة وسيصبح يوما ما سلطانا.

في بلد مضطرب بفوضى أصبحت مستوطنة، بضعف السلطة المركزية، و منافسات المعارضين التي كانت تبرز في كل مكان، والتمرّدات الضريبية، كل شيء كان ممكنا عند "الحالمين". أصبح أبومحلّي فريسة أطماعه فأقتنع تماما أنه "مولى الساعة "، "المهدي" المنتظر في السنة الألف الهجرية. لكنه لما علم أن الدين هو القوة الوحيدة في بلده، حاول أن يستعمله مُطْلَقاً لصالحه. و لما لم يكن لا من ذريّة الرسول صلي الله عليه وسلم (أي شريف) ولا وريثا شرعيا ولا شيخ طريقة، فقد حاول . ليصل إلى مآربه .أن يعيد الإعتبار للمبدأ الشرعي لاستلام السلطة، فطمع في "الخوارج" لكي يكتسب الشرعية السلطوية لنفسه منهم، حيث يعيَّن القائد حسب أهليته من بين مجموع الأتباع ؛ولِكَوْنِ مهمّته قابلة للنقض، يمكن إذا ما انحرف أن يعزل. إن المعارضة والثورة (الفتنة) على كل سلطة تبتعد عن الشريعة الإسلامية أو تلجأ إلى الاستبداد تعتبر من طرف الأتباع واجبا ملحّا.

خوفا من مقالاته ومحاولاته للهجوم على السلطان السعدي، فإن الصوفي البدوي الحذر "التستاوتي" اضطره للرحيل بعيدا عن منزله.

منذ ذلك الوقت في تافيلالت ووادي الساورة بدأت بالنسبة إليه مجموعة من التنقّلات من قرية إلى أخرى أملا في وجود "طريقة" تسانده في نظرياته وفي أغراضه الظّلامية. بعد إقامة سريعة في بني عبّاس حيث تزوّج ذهب إلى مكة ليحجّ. وانتهز الفرصة ليدرس أثناء الطريق " العلوم الخفية " والعرافة (الجفر) وعند رجوعه عاد إلى سياحته لنفس الهدف: زار مدينته الأصلية مسقط رأسه سجلماسة حيث رفض شيخها المشهور فيها أن يضمنه وهو أبو القاسم بن عبد الجبار، لكنه وجهه إلى "طريقة" زاهرة أسسها بناحية فيقيق أحد الشاذلية ذو صيت واسع هو "الشيخ عبد القادر بن محمد" الذي يمكن أن يكون له ضامنا روحيا. ثم أملى عليه نظمه الذي كان قد انتشر "**الياقوتة**".

سرعان ما انتقل إلى فيقيق حيث أخبروه أن الشيخ يترحل قرب قرية صغيرة اسمها "الشلالة" حيث دفن أبوه الوقور سيدي محمد الذي انتشر تأثيره بلا انقطاع في الجزائر وجنوب المغرب وواحات قورارة وتوات والذي كانت من بين القبائل المنضمّة إلى طريقته: الأغواط، حميان، الرزاينة،

الطرافي، وأخرى ليست أقل منها بالحدود الجزائرية المغربية (الأنقاد، بني قيل، المهاية، أولاد جرير إلخ ...). انتقل مسرعا إلى الزاوية المتنقّلة حيث استقبل "كضيف ربّي" من جوانب عدّة، وقد لمس فيه سيدي الشيخ في أول الأمر بعض التعاطف.

أظهر ابومحلّي حماسه للرجل ولطريقته نفاقا، لكي يحصل على سنده الديني. أعلن للسامعين أنه يرى في سيدي الشيخ: "القطب الرباني" و"مولى الساعة" ومن فضل الله عليه أن هيّأ له اللقاء معه والإنضمام إلى مدرسته. لكن سيدي الشيخ لم يخدع بهذا الحماس المجاوز للحدود. في أول تعاطف له تبعه حذر معقول. طلب منه أبو محلّي بتشدّق أن يدافع عنه ضدّ العاهل المتسلّط الّذي لا يعتبر أهلا لأن يكون على رأس أمّة الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم يكن يجهل العلاقة الطيبة التي تجمع منذ زمن بعيد بين سيدي الشيخ والسلطان المنصور ثم خليفته زيدان. كان الرفض حاسما، لكنّ أبا محلّي لم يفقد الأمل فحاول -لكي يطيّب خاطر سيدي الشيخ - أن يحرك ابن هذا الأخير الزروقي ولكن بدون جدوى، لأنه علم هو أيضا أغراض هذا الدساس الماكر الذي يستعمله لكي يجرّ الطريقة إلى الثورة ضدّ السلطة القائمة.

لقد كان فشله ذريعا ممّا دفعه إلى شنّ حملة قدح وتشنيع ضد سيدي الشيخ فاتهمه أنه أراد أن يضع له السمّ، مدّعيا أنّه صهره (زوج ابنته)، فشهّر به أنه وليّ مزوّر وأنه مبتدع خطير على العقيدة والإيمان، وأنه شهواني نصّاب وأنه ممثّل يخدع الناس الخيّرين السذّج. إن وشاياته وافتراءاته والعديد من مقالاته التي نشرها أثارت سخطا واستنكارا عاما. فتلاميذ وأحباب سيدي الشيخ، في المنطقة وفي غيرها، أرادوا أن يعاقبوا هذا الشاتم الذي فقد صوابه، حتى يأخذ جزاء انتكاساته. إن أبا محلي الذي لقّبه سيدي الشيخ " العتروس لجرب " أحس بالخطر واضطر للهروب. التجأ إلى فيقيق ثم سجلماسة، بني عباس، توات، فحيثما ذهب يوبّخ ويحس أنّ حياته مهدّدة. وبهذا أجبر على مغادرة البلد بدعوى أنه يريد أن يحجّ ثانية (لكن في حقيقة الأمر كان يخشى عواقب نبذ المجتمع له الوخيمة حتى ينساه الناس). طيلة عدّة سنوات لم يسمع به أحد. فبعد إقامته في الأماكن المقدسة ثم بالجنوب التونسي الجزائري رجع إلى بني عباس حيث تخفّى لكي يؤلّف مؤلّفات جدلية.

وقع حادثٌ بَلْبَلَ كل المغرب العربي الإسلامي وجد فيه ابو محلي فرصته لكي يظهر على الساحة التاريخية: توقيف السلطان الشرعي زيدان من طرف أخيه المنافس بابا المأمون من قبل " لاراش " Larache بحماية إسبانية.

كـان رد فعـل شـيوخ الطـرق والجمـاهير المختلفـة فوريـا للقيـام بحماسـة بالجهـاد. ابـومحلي انتهـز الفرصة ليحث الناس ضدّ السلطة السعدية " العميلة " للكفار. نظّم قصيدة لهذا الغرض (تهييج الأسود) وارسل النداءات في كل مكان لإثارة الفتنة.

حرّك الجماهير القروية منصبا نفسه طبعا على رأسها على أنه "المهدي" وتوجّه نحو العاصمة. هزم المجموعات التي أُرسِلَت ضدّه، فوقع ما لم يكن في الحسبان: لقد تمكّن من الدخول إلى مراكش منتصرا سنة 1021هـ1612م حيث أعلن نفسه العاهل المطلق وحيث تلقّى ولاء الشعب له، وأحيط بالنساء الجميلات وأَذِنَ للوفود الأجنبية مقابلته. لكن لكل شيء نهاية خاصّة الأشياء المزوّرة.

لما أُبعِد السلطان زيدان عن العاصمة جمع قواه وقام بهجوم مضاد تحت قيادة البربري يحى بن سعيد شيخ طريقة الزدّاغة لكي يقتص من المتمرّد. فسار يحي لملاقاة "المهدي" الساحر المتزهّد الذي أصبح محبا للدنيا شهوانيا وهاويا للمنابر، لاسحر ولا بركة نفعا هذا المتنبّي حينما قامت معركة دامية في نفس السنة في نواحي مراكش وبالتحديد في سهل سوس منذ بداية المعركة نكس وانهزم وجيشه متولّيا إلى الوراء في فرار مهيب.

وشـيء غريب: قبل اندفاعه الـذي وضع حدّا لملحمته الخيالية: تنبأ لـه أحد مناضـليه قـائلا: "عشت طائشا، تموت تيسا".

إن الحملة العنيفة التي قادها وأثارها أبو محلي ضد سيدي الشيخ، وتلك التي أثارها قبله الفقهاء الحسودون المجادلون، كل ذلك لم يؤثر في العلماء النزهاء البعيدين عن روح المزاحمة، كما أنّه لم يؤثر في الجماهير الشعبية.

بما أن سيدي الشيخ كان متيقّنا من صحّة أسس طريقته والنظام الصوفي الذي أنشأه لم يتكلّف عناء إفحام خصومه، وفي الياقوتة نفسها إشارة إلى ذلك الجدل، كما أنه لم يَنْثَنِ بل واصل عمله.

ولكي يضمن تمتين أسس طريقته وإشعاعها، فقد عمل جاهدا لإعطائها مساحة أوسع بإنشاء الزوايا (كمراكز إشعاع) ويكلّف على رأس كل واحدة مقدّما ثقة يمثّله ويمثل طريقته بصدق وجدّ. من بين ممثّليه الذين وُجِدَتْ في المناقت قائمة طويلة لأسمائهم، نذكر المقدم القندوس بن عبد الله بتلمسان، والحسين الساكوني بفيقيق الذي يرجع إليه الفضل –كما سبق أن ذكرنا – في ترجمة حياة وسيرة سيدي الشيخ وكذا في شرح الياقوتة وذلك في سنة 1056هـ1646 م أي أنه ألّف هـاتين الـوثيقتين بعد ثلاثين سنة فقـط مـن وفـاة سيدي الشـيخ، والتي توجد عندنا نسخة منهـا ذكرناها أعلاه، كما توجد نسخة – قيل أنها الأصلية – في زاوية سيدي عبد الرحمن السهلي في بوذنيب (بجنوب المغرب).

كما ذُكِرَ المقدم إبراهيم بن أبي بكر بفاس ويوسف بتوات و حاج بمرّاكش وقدور ابن ابي بكر بالجزائر العاصمة، الخ ...

في حياته كانت زاويتا فيقيق، والأبيض زاهرتين، زاوية فيقيق الكائنة بحي العباد كانت تستقبل الفقراء والمسافرين. أما زاوية الأبيض فكانت أكثر أهمية بنشاطاتها الإنسانية وتعليمها الديني للطلبة الداخليين الكثر الذين كانوا يتوافدون إليها من كل مكان. ذلك التعليم الذي يضاف إلى المساعدات المادية التي كانت تقدمها للمحرومين، كل هذا كان يضمن لها شهرة مكّنتها من استقبال الهبات والعطاءات البِرّية (الإحسان) من القبائل المنضمّة ومن عابري السبيل. هذه العطاءات المختلفة وغير المقيّدة تُعطَى بكل رضا عينا أو نقدا، كانت وما تزال واجبة الدفع للزاوية باستثناء الأقارب والأبناء والأحفاد. لم تلبث أن أصبحت إلتزاما روحيا موسميا أو ظرفيا حتى أطلقت عليها تسميات مخصّصة منها:

الغفارة: وهي مساهمة تدفع سنويا من قبل الأتباع تؤخذ من أملاكهم الخاصّة (الماشية أو الزراعة).

المسيرة: تتألّف من الخيل والإبل والغنم تهدى من طرف أبناء وأحفاد سيدي الشيخ والمنضمّين إلى الطريقة، يسوقونها بأنفسهم إلى القُبّة المشيدة على ضريحه.

الزيارة: وهي هبة يقدمها الزائرون وخاصة خلال المناسبة السنوية المسّماة بالركب.

المهيبة: وهي عطاء استثنائي خاص (المناقب ص24-73-94-99-46 إلخ) .

خدمات الزاوية المتمثلة في :استقبال الزوّار ، وإطعام المحرومين و تسلّم الهبات، والقيام بشؤون الطلبة و المدرّسين، كان يقوم بها العبيد (سود البشرة) الذين أعتقهم بنفسه حيث كان من حين لآخر يذكّرهم بذلك لينقادوا للأمر فلا يعصون ولا ينقصون الأمانة (ص 92.91). المناقب تذكر بعض أسماء الخدّام هؤلاء مثل ابن الخضّارة والقندوس، سالم، إبراهيم ،إلخ...(ص 97.91.86.85.41).

كانت لسيدي الشيخ سلطة كبيرة على الخدم والمنضمّين والمقدّمين دون أن تصل هذه السلطة إلى درجة ما يسمّى "بعبادة الأشخاص أو القداسة ". بالعكس كانت تسود بينه وبين أعضاء طريقته مودّة كبيرة. كانت علاقة الأتباع رجالا ونساء مع شيخهم من شدّة الأنس والودّ ما يمكن أن يظهر مبالغا فيه عند كل من يجهل النفسيات وقتئذ (م.ب 105.104.96). كثيرا ما كان أتباعه يصحبونه أثناء تنقلاته (ص 37) عبر الغرب الجزائري والمغرب والصحراء (ص98.94.88.80.74.62.61.13) .

حول وفاة سيدي الشيخ لم توفّر المناقب والروايات الشفهية إلاّ معلومات ضعيفة الصحّة نظرا للأهمية التي يوليها الرواة للأحداث الخارقة للعادة على حساب الأحداث التاريخية البحتة. وبهذا

فإن هذين المصدرين يكشفان ويخبران أنه من جرّاء الجراحات (الخمسة) التي أصيب بها سيدي الشيخ أثناء هجوم على الإسبان في وهران، استشهد في سبيل الله والعقيدة حيث وافته المنية قرب قرية صغيرة تسمّى ستيتين على بعد حوالي 30 كلم من البيّض حاليا (المناقب ص 37-38).

نفس المصدر يضيف أنه أثناء رجوعه من تلمسان ناداه ربّه إليه (ص 116). لكن الطريق من تلمسان إلى الأبيض لا يمرّ بستيتن. في حين أنه قد توفي شرق هذا القصر كما تشهد على ذلك القبة التذكارية التي بنيت هناك. المناقب والرواية الشفهية تشيران إلى خط السير الذي اتّبعه جثمانه الذي حمله على ناقة بعض مرافقيه منهم مقدّم: المغسل ثم الكراكدة وأخيرا الفرعة وهو اسم الساحة الواسعة التي تنتصب حولها القصور التي يتألف منها الأبيض (ص 57). يكون قد توفي يوم الجمعة 2 من شهر جمادى الأولى 1025 هجرية (في حين أن 2 جمادى1 كان يوم أربعاء و ليس يوم جمعة) الموافق ليوم 18 ماي 1616 ميلادية. في سن يناهز 85 سنة حسب نفس الوثيقة. إذا اعتبرنا هذه المعلومات صحيحة فإنه قد ولد سنة 940 هـ أي 1532 م، وقد دفن يوم الأحد (نفسه).

النظام الذي تركه بعد وفاته هو أحد الأمثلة المتينة والمعتبرة ليس لدى الطريقة الشاذلية فحسب ولكن أيضا عند جميع الصوفية بإفريقيا الشمالية. لا يوجد أي واحد من النظم الطرقية التي أنشأها الشيوخ الذين يعتبرون كأوتاد لسلسلته المرجعية المعتمدة. لا أحد منهم ترك أثرا أعمق إن من الناحية الدينية أو السياسية كما تركه هو في تاريخ الجزائر الديني والسياسي.

حين كانت كل "الطرقية" عاجزة عن الصمود أمام الحملات القائمة ضدّ الطرقية من طرف الحركة الإصلاحية الحديثة والحركة الوطنية المعادية للإستعمار، فإن طريقة سيدي الشيخ بقيت محاطة بالإعتراف والإحترام من طرف المسؤولين ومن طرف الجماهير الشعبية أيضا. (الوعدة) التي تُنَظَّم سنويا بموافقة وتشجيعات الحكومة الجزائرية والإحتفال بواحدة من الإنتصارات التي قادها أحد أحفاد سيدي الشيخ وهو الشيخ الجليل بوعمامة ضد الإستعمار، هما مثالان يُقتدَى بهما.

وشعراء الملحون خلّدوا من جانبهم اسم سيدي الشيخ ومجّدوه ومجدوا أحفاده. الشاعر المشهور الوطني محمد بلخير قال في ديوانه الذي خصصه لسيدي الشيخ (انظر صفحة 31) :

. احنا مجاهدين ما نا قول ضعيف تبّعنا ما قال ربّ في القرآن
. واحنا فزنا على العرب جيّد وشريف بتوانس نضربوا على شوفة لعيان
. واحنا بنا تهترف الناس تهتريف شوايعنا من الجزائر للسودان
. واحنا ميعادنا على الميعاد ظريف ويفرح بنا الهاشمي شارح الديان
. واحنا نفرحوا منين يكون الضيف وفوّتنا دنيا الغرور باه امّا كان

لقد ترك سيدي الشيخ كثيرا من البنات والأبناء (18) . اثنان منهم ذُكِرا في المناقب: أكبرهم الحاج ابن الشيخ (ص 81) و الثالث الحاج أبوحفص (ص87.61). هذا الأخير حظي بتقريظ في كتاب " مع المواعيد " للعياشي ولدينا مخطوط يعود تاريخه إلى 1233 هـ1817 م من هذا الكتاب القيم الذي يعرّف الحالة الدينية للجنوب الجزائري المغربي في القرن 11 الهجري الموافق 17 الميلادي.

كاتبه الذي سافر سنة 1052هـ1649 م تعرف على سيدي الحاج أبي حفص في المنيعة وذهب معه إلى الحج، فأخبر أن تاريخ وفاته هو سنة 1071هـ 1661م.

يمكننا إلى اليوم أن نزور أطلال منزله التي بقيت سليمة من الإنهيار، وذلك في القصر القديم الذي يطل من أعلى " قارته " مرتفعه على الواحة الجميلة.

عندما كان حيا عرفت زاويته شهرة كبيرة بين قبائل أولاد يحي والمواضي والشعانبة. يقال من ناحية أخرى أن سيدي الحاج أبا حفص هو الذي جاء بالشعانبة من مراكش إلى ناحية المنيعة ومتليلي وورقلة، بعد أن طلب من السلطان أن يرسلهم معه لكي يكونوا له كقوّة يعتمد عليها في مواجهة غزو التوارق.

إن تطور و نمو زاوية سيدي الحاج أبي حفص قد جلب إنتباه سيدي الشيخ الذي حضر إلى المنيعة ليتحقق من صحة الخبر. وعندما التقيا في المنيعة في المكان الذي مازال إلى اليوم يعرف باسم " ملقى الصّالحين " قال سيدي الشيخ لسيدي الحاج ابي حفص: " هل يجب أن نعتبرك معاندا أو معاونا ؟ " فأجابه سيدي الحاج بوحفص: " العبد و ما في يده إلاّ لسيّده " .

فأخذه معه إلى الأبيض وكلّفه بتسيير زاويته تاركا له متوسط الحرية في التصرف في ثلث مداخيل الزاوية كما يشاء للأعمال الخيرية (œuvres pies).

يمكن أن نستخرج من المناقب بعض المعلومات من نوع ديني واقتصادي واجتماعي مقدَّمة عشوائيا، تصريحا أو تلميحا متعلقة بالحياة اليومية للذين عاصروا سيدي الشيخ في نهاية القرن العاشر الهجري أي السادس عشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر الهجري أي 17 الميلادي.

في عدّة أماكن ترجع المناقب إلى الكلام عن فساد الحكام. خاصة القضاة في ذلك العصر وعن فساد الزمان (م ب:ص 68.36.54.45) وعن الفوضى وغياب الأمن الذي كان يكبّل البلاد (ص 76.43). التسوّل كان مستوطنا و الجوع منتشرا (ص 118.101.77)، وغزو الجراد الذي يحطم كل المحاصيل التي يمرّ عليها (ص 103.100). طبعا لم يكن من المشروبات متناوَلا إلاّ الماء والحليب ومشتقاته. وفي المقابل كان التبغ المستورد من المالي منتشرا (ص 124.97).

كما يمكن أن نسجل عند القبائل البدوية (الأعراب) التي رغم أنها أسلمت منذ عدة قرون إلاّ أن الكثير من عاداتها وتقاليدها مأخوذة من الوثنية العربية. لذلك نجد ألعاب المقامرة وخاصة

استشارة السهام والقداح التي حرّمها القرآن :﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة219] والتي أفرد لها ابن قتيبة كما هو معلوم في كتابه تحت عنوان:"كتاب الميسر والقداح"(ص104) أفرد لها شرحا رائعا ما زال مُتَدَاوَلا.

أما النشاطات في الصناعة التقليدية فكان أكثرها النحاس والطين والنسيج (الزرابي والحايك والبرنس ص103) هذه الأخيرة كانت مزدهرة على ما يبدو حسب حظ تلاقيها مع ثمن الصوف أو ندرته (ص94). الأسعار المطبقة كانت تتغيّر حسب سنوات الأمطار الكثيرة أو الجفاف وحسب الأمن أو الخوف السائدين. لا نعرف الفرق الذي كان موجودا بين الذهب والفضة (الدينار بالنسبة للدرهم) كما لا نعرف قيمة الدينار بالنقود الحالية. كل ما يمكن تسجيله هو أن قطعة الكتّان ذات 8 أمتار كان ثمنها يساوي في فيقيق 3 دنانير، والمنجل ثمنه ربع دينار والعبد المملوك ثمنه 18 دينار. الإبل كانت أرخص من الخيل التي كان ثمنها مرتفعا جدّا.

كانوا يقضون حاجاتهم الغذائية من حبوب إما من السوق أو من القوافل التي كانت ترحل . إلى أيامنا هذه . إلى التل (الشمال) لكي تتزوّد من الزرع والقمح والفول (ص111.106.101). في البساتين كان يزرع نوع من النجيليات والبشنة (الصورغوالأبيض) التي كان يتغذى من حبوبها الفقراء والوضعاء (ص77). قوافل أخرى كانت تتّجه نحو قورارة وتوات لكي تجلب التمور وكانوا أكثر ما يبحثون عن نوع تين هود (أي تمر اليهود). وهي نوع من التمر مستديرة وكثيرة الحلاوة وسهلة القضم. إسمها يعود إلى أصلها وهي واحة قديمة اسمها تمنطيط حيث كان اليهود في العصور الوسطى يتخذونها جيبا صحراويا لهم تحت حكم ذاتي مسيّر من طرف اليهود، وحيث كان المسلمون . حسب المخطوط الذي بحوزتنا . لا يدخلونه إلاّ كأجانب. كانوا يتخذونها كمدينة تربطهم بالمالي (السودان سابقا) لتجارة الذهب والملح والعبيد السود. طريق التجارة هذا كان يمرّ بغاوا (Gao)، طمبكتو ، تمنطيط ، تفيلالت ، مناء حنين وجزر الباليارس(Ile Baléares) وشمال أوربا. في ذلك الوقت كانت مدينة فردان(Verdun) معروفة بتجارة الإماء الشقروات، ومدينة تمنطيط معروفة بمستودع العبيد السود. إن شهرة هذه الأخيرة كمدينة يهودية غنية رغدة كانت عند الإسرائيليين آنذاك كبيرة خاصة يهود البرتغال وإسبانيا. حتى أنهم غيّروا عبارة الدعاء والرجاء التقليدية التي يقولونها عند رأس السنة العبرية (Pâque) من قولهم "السنة المقبلة في القدس" إلى قولهم "السنة المقبلة في تمنطيط". ولأسباب يطول عرضها فقد وجّه ضدهم أحد الفقهاء وكان صاحب شهرة كبيرة آنذاك (القرن العاشر الهجري . السادس عشر الميلادي وهو الشيخ ابن عبد الكريم (المغيلي) وجّه ضدّ اليهود هجوما مكّنه منهم وأجلاهم كلهم تاركين وراءهم كتذكار: الحلي

والنسيج وصناعة الأواني الخشبية و هذا النوع من التمور المنتخبة.كما نسجل أيضا بعض الأكلات الشرفية: الكسكس (الطعام)خاصة (ص93) و برزغان وهو نوع من السكريات مكوّن من قطع صغيرة من الخبز والسمن (دهان)، والتمر بعد نزع النواة منه وخلط الكل (ص107). الأواني الحديدية والزجاجية كانت غير معروفة بخلاف الخشبية والفخارية ومن الحلفاء (ص124.107.93).عند قراءة المناقب نلاحظ أن وجود الحيوانات بين الجزائر والمغرب لم تختلف كثيرا عنها اليوم فهي حيوانات مفترسة (الأسود و النمور و الضّباع ..) كانت تهاجم الناس ممّا جعل الطرق غير آمنة (ص 92.75.1). كما ذكرت في المناقب حيوانات أخرى زاحفة (ص 95) والأرانب والحمام (ص101) والأحقب (ص76). كما وجد هواة الصيد بكلاب السلوقي وطيور الصقر (ص95.80.75.63.62). كما ذكرت أيضا صناعة البارود واستعمال بنادق الصوّان (ص100)

كما ذكره على شكل نوادر وطرائف وجود الإسبانيين في وهران وكيف كانت بعض القبائل الخائنة تزودهم بالطعام وبالمعلومات منها الدواير وحميان. لقد حوصرت وهران مرات عديدة: استرجعت سنة 961هـ 1553م من طرف حسن باشا ثم غزاها الإسبان مرة أخرى سنة 1144هـ 1732م.في هذه المعارك اللامتناهية فقد ساهم سيدي الشيخ لتحرير وهران مساهمة لايستهان بها. لقد هجم على وهران عدة مرات على راحلته الشهيرة التي كان يسميها " الشهبة " (ص89.88.83.86.43.37). تذكرالمناقب أنه كان يوجد داخل المدينة إسبانيون مسلمون منضمّون لطريقته متخفّون كانوا يزوّدونه بالمعلومات أثناء هجوماته على المدينة المستعمرة (ص 114).

هذه بعض الوقائع التي استطعنا أن نستخرجها من المناقب لما لها من أهمية من الناحية السُلالية والتاريخية. يمكن أن نتكلم كثيرا عن ذرية سيدي الشيخ الذين كان من أبرزهم سيدي الحاج ابوحفص وسيدي الحاج ابن الشيخ المذكورين أعلاه، وبالإضافة إلى سيدي عبد الحاكم وسيدي ابن الدين وسيدي النعيمي وسيدي ابوبكر وسيدي حمزة وسيدي سليمان وسيدي محمد وسيدي قدور وسيد العلا وسيدي ابو إمانة (أبوعمامة). سنذكر فيما سيأتي مراحل معارضتهم للإحتلال الفرنسي(1861 إلى 1882 م).

هدفنا الأوّليّ كان من أجل إظهار الخطوط العريضة لحياة سيدي الشيخ وآثاره من الناحية الصوفية والسياسية حيث أننا أول من يعترف بالنقص الكبير من حيث توفّر الوثائق اللاّزمة. ويبقى على جيل الشباب في شمال إفريقيا أن يستمدّ من التاريخ الدور الذي قامت به هذه الطريقة في خدمة الإسلام والوطن. هناك بعض الباحثين الشباب فرنسيين وكنديين من شرعوا في القيام بهذه المهمّة. فعلى الشباب المغاربي أن يقدم مساهمته كما فعل عبد الجليل التميمي في مجلته الهامّة "المجلّة المغربية " التي تصدر في تونس.

المؤلفات التي تكلّمت عن أولاد سيدي الشيخ

-1- مناقب سيدي الشيخ : عدة مخطوطات .

-2- الياقوتة : عدّة مخطوطات . طبعة تونس (1927) . طبعة الأبيض سيدي الشيخ (1975) .

-3- بوبكر حمزة : صوفي صحراوي (تحت الطبع) .-4- ب ح: سيدي الشيخ الياقوتة منقّحة ومصحّحة: ترجمة مشروحة بالفرنسية (تحت الطبع).-5- ب ح: سيدي الشيخ : آباؤه و ذريته : الدور السياسي (تحت الطبع) -6- محمد بلخير : شاعر سيدي الشيخ وذريته (تحت الطبع) . -7- المكتبة الملكية سابقا بالرباط : مخطوطات عديدة تحت عدّة عناوين خاصة ، سيدي الشيخ ، أولاد سيدي الشيخ ، أبومحلّي ...إلخ -8- مكتبة الحكومة العامة بالجزائر سابقا وقد حوّلت إلى مكتبة إكس-أون –بروفانس (Aix.en-Provence) منذ الإستقلال و التي تعود ملكيتها إلي أرشيف وزارة الحرب التي صارت مكتبة الجيش في فانسان (Vincennes).-9- أهم ما في هذين المستودعين للأرشيف جمع بأمر من الحاكم العام كونبو Cambon من طرف H.M.P de Lamartiniere ولاكروا N.Lacroix تحت عنوان " وثائق صالحة لدراسة شمال غرب إفريقيا " أرشيف لشؤون الأهالي Archives des Affaires indigènes، الجزائر 1896 ، (المجلدان 1 و2) .-10- أرشيف دائرة عين الصفراء ، أركان حرب قسمة وهران للشؤون الإسلامية للحاكم العام للجزائر، لأركان حرب الفيلق التاسع عشر بوزارة الحرب ، ووزارة الشؤون الخارجية .-11- رين Rinn : مملكة الجزائر تحت آخر داي Le royaume d'Alger sous le dernier dey نشر مطبعة مارابو وخوان Id . Marabouts et khouan .

-12- دوبون وكوبولاني : الطرق الدينية – باريس 1879 .-13- دوفيرييه Duveyrier : ملخص عن أولاد سيدي الشيخ في مذكرة المجتمع الجغرافي لوهران سنة 1884 .-14- تروملي C.Trumelet : تاريخ المقاومة في جنوب إقليم الجزائر في 1864، الجزائر 1879 . الفرنسيون في الصحراء باريس 1887 ، الجزائر الأسطورية . -15- بنّارد Bannard ، اللواء صونيس Sonis حسب وثائقه و مراسلاته . باريس 1890 . -16- بوبكر حمزة : في الظل العَطِر للقبب البيضاء . مخطوط مكتوب سنة 1942.

. بوبكر حمزة أيضا أصول حرب الجنوب الوهراني ضدّ فرنسا : مجلّة التاريخ المغاربي، تونس – رقم 6 (جويلية1970 ص149.133) . 17- بسايح بوعلام: الراية الممنوعة (أشعار الحرب والحب لبلخير) باريس 1976 .18- بوبكر: شعر صحراوي ملحون (باللسان الشعبي) في مجلّة سيمون Revue Simoun رقم 24 السنة السادسة (سيد Sid).

الفصل الثاني

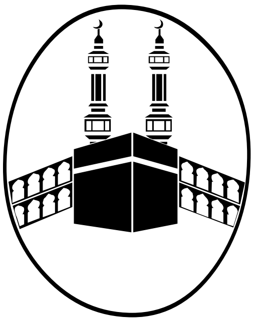

الياقوتة و الجلالة

سيدي الشيخ

عبد القادر بن محمد

أ . اليـاقـوتـة

ب . الـجـلا لــة

((أشعار صوفية))

مقدمة

عند تطرّقنا لترجمة الياقوتة إلى الفرنسية اعتمدنا على الرواية الصحيحة من ناحية مطابقتها للأمر كما من ناحية النحو والصرف والعقيدة.

لكن عند تفحّصنا للمخطوطات التي بحوزتنا اكتشفنا أنّها تحتوي على أخطاء لغوية وكثيرمن التشعبات والتباعدات التي تستدعي التنقيح والتصحيح المتْعَبَيْن.

وجدنا من بين ترجمات الياقوتة واحدة يوجد فيها أخطاء بصفة أقل من الناحية النحوية والشعرية (الوزن) إنها ترجمة المسيحي الراهب منشط مركز أخويّة الأب فوكو La fraternité du père Foucault الذي تأسس سنة 1933 في الأبيض سيدي الشيخ غير بعيد عن قبّة الولي الصحراوي (سيدي الشيخ). إن القسّ **نوال** الّذي سمّى نفسه **ميلاد عيسى** (المتوفي سنة1985) الذي لقي عناء كبيرا ليقتني العديد من المخطوطات للقصيدة في الجزائر وفي المغرب من أجل إعطاء ترجمة صحيحة. طيلة عدة أعوام وبنزاهة مطلقة وبروح علمية أكيدة تكلّف دراسة القصيدة وسيرة صاحبها.

إن جهده لتنقيح وترجمة الياقوتة، كما يستحقّ كل الإحترام والشكر والإهتمام، فإنّه كذلك يغرق في الخجل والنبذ آخر ذرية سيدي الشيخ في الجزائر والمغرب، لأنهم لم يولُوا أيّة أهمية في الحفاظ على ميراث سلفهم الصالح المجيد (سيدي الشيخ)، الميراث الثمين روحيا وتاريخيا لكي يبقى سليما من أي تحريف. لكن قد يصدق فيهم المثل الشعبي المحلي القائل: "النار تولد الرماد". لكن بما أن الله ينهانا عن اليأس فإننا نأمل من الجيل الشاب لأولاد سيدي الشيخ وخاصة المثقف منهم البعيد عن الشهوات المادية ولعب القمار والرفاهة أن يكون أكثر وعيا بمسؤولياته الميراثية فيصعد هذه العقبة الكؤود التي وقف دونها آباؤهم المباشرون.

وربّما تعمل بالآية القرآنية التي تقول: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد11).

التنقيح النصّي الذي اعتمده القسّ نوال لا يخلو من الأخطاء، لذلك رأينا من الواجب أن نعمل على تنقيح وإيضاح بمقارنة المخطوطات التي في حوزتنا حاليا، منها :

1. مخطوط تابع لمناقب سيدي الشيخ و هو نص شرحه أحمد بن محمد بن عبد الرحمن السكوني الفيقيقي مؤرخ في 1056هـ1647م أي 33 سنة بعد أن لبّى سيدي الشيخ نداء ربه. وهي أقدم رواية للياقوتة في علمنا. الناقل أَعْلَمَنا أن نصه هو نسخة للمخطوط الموجود في زاوية المعلم الروحي لسيدي الشيخ وهو الصوفي سيدي عبد الرحمن السهلي (بوذنيب). كما هو الآن فإنه يوجد في حالة يرثى لها لكن الكتابة واضحة والشرح يشهد على أن صاحبه ذو معلومات جدّية في الإلهيات (اللاهوت)، وفي الشرح والتأويل وخاصّة في الصوفية.
2. المخطوط المحتوي على نص القصيدة المشروح من طرف التواتي الدلدولي أحمد ابن السيد محمد بن مولاي عبد العالي. وهو نسخة مأخودة من مرجع عبد الرحمن الفيقيقي ومؤرّخة في سنة 1325هـ 1907 م. واضحة وذات معلومات موثوقة. شجرة سلالة نسب سيدي الشيخ وضعت كمقدمة لنص القصيدة.
3. مخطوط لعبد الرحمن بن الطالب يوسف. النص والشرح. وهو بدون شك نسخة منقولة من مخطوط قديم. تاريخ النسخة يعود إلى سنة 1324هـ1906م.النص واضح، والخط معتنى به لكنه فيه بعض التصحيحات والتشطيب الذي يشوّه كثيرا من محتواه.
4. نص مطبوع بتونس في 1344هـ1935م للمحبّ المرحوم المثقف نور مولاي عبد الله (المتوفي سنة 1371هـ 1952م) من أولاد سيدي الحاج بن عامر (البيّض). بعرض جيّد لكن بلحن مشحون بالأخطاء والتقلبات المختلفة.
5. مخطوط حديث للياقوتة وضعه المرحوم العالم الفقيه محمد بن عبد القادر القاسمي، الذي يعود أصله إلى قرية تاجرونة بولاية البيض، وهوإمام قديم بالأبيض، انتزع عن العلم من طرف رجل دنيء مجهول قتله غدرا سنة1377 هـ 1958م ، توجد نسخة لنفس المخطوط كتبها مقدّم سيدي الشيخ المرحوم حاج هادي عبد الله المتوفى في نيم (بفرنسا) سنة 1397هـ 1978م و هي نسخة أهداها لنا بنفسه سنة 1383هـ1963م .
6. نسخة طبق الأصل لنص الياقوتة والجلالة موضوعة من طرف مجهول بقورارة سنة 1389هـ 1970م كما يظهر، رديئة من جميع النواحي.

7. نسخة طبق الأصل لنص بالآلة الراقنة للياقوتة مقبول الوضوح، مكتوب من طرف مجهول مع بدائل وترجمة بالفرنسية. هو عمل ذكي و متقن أخرجه بدون شك فرنسيّ بمساعدة القديس نوال وبمشاركة بحّاثة مسلم بتلمسان أخبرونا باسمه ولكننّا مع الأسف نسيناه، بدون تاريخ (1379هـ 1960م ؟).
8. مخطوط الياقوتة، نص وشرح لعالم مغربي من فاس بطلب من المرحوم المخزومي ابوبكر بن الدين باشاغا قديم بالبيّض(جريفيل) سنة 1352هـ 1934م هو الآن يمتلكه امتلاكا غير مناسب الأستاذ قدوري النعيمي قدّور(وهران). وهو عمل يبقى من بين "الكنوز المخبوءة" المتعذّر بلوغها من طرف الباحثين بدون أي سبب.
9. نص الياقوتة الذي وضعه القديس نوال بمساعدة مسلم مجهول له باع في اللغة العربية، مع ترجمتها إلى الفرنسية، متبوع بنبذة لسيرة حياة سيدي الشيخ مع ذكر مخطوطات الياقوتة المبعثرة في الجزائر و المغرب.

كما نُعلِم أنه بما أنّ القصيدة مقدّسة فإن حصّة تلاوتها – الحضرة – لابد أن تخضع إلى أمور مسبقة كالوضوء واستقبال القبلة وتنظيف الفم والمكان والإمتناع عن الإستجابة لكل ما من شأنه أن يقطع التلاوة.

كما أن على من يتلو الحضرة أن يتجنب كل ما من شأنه أن يشغل باله عن الآخرة وخشية الله والتضرع الروحي له. يجب التطيّب (وضع الطيب:العطر) والتربّع ويرسم أثناء إنشائه برأسه وصدره تحرّكا دائريا من اليسار إلى اليمين، مع نغم صيغة الإنشاد. في هذا الصدد نذكّر أن القصيدة عن البحر الطويل الذي تفعيلاته هي: فعولن مفاعيلن (مكررة مرتين في كل شطر) فإذا رمزنا للحركات بخط وللسكون بدائرة حصّلنا على :

(.. o.o | o.o.o.. | o.o.. | o.o.o..) لكل شطر

قبل الإنشاد الجماعي يجب أن نذكر بصوت مرتفع :

1. البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) و الصلاة على الرسول وآله وصحبه.
2. سورة النصر.
3. سورة الإخلاص.
4. كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) الموزونة بنفس البحر (الطويل). وهي تُستعمَل كمطلع للياقوتة تكرر بعد كل بيت أو بيتين. ولتنويع المطلع يمكن استبدال كلمة التوحيد هذه بعبارة أخرى هي: صلاتك ربي والسلام على النبي :::: صلاة بطون الأرض والجو تملأ.

إن مقاديم (إخوان) الطريقة الشيخية يحملون السُّبْحَة كعلامة مميّزة، بها مائة حبّة وحبّة مزينة بقطعة من المرجان الأحمر. نعلم أنّ السبحة كانت مستنكرة على أنها بدعة مخالفة لتعاليم الإسلام. لكن استعمالها أصبح – بفضل الصوفية مقبولا على أنه بدعة مستحسنة.

5. يمكن انشاد الياقوتة فرديا أو جماعيا في الوقت والمكان المناسبين، الأفضل يوم الجمعة. تلاوتها تكون عادة متبوعة بعبارات الحمد والثناء والصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم التي ننهي بها الصلوات المفروضة. ثم نتوجه إلى الله بهذا الدعاء: "اللهم ارزقني علما نافعا وقلبا خاشعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء برحمتك يا أرحم الراحمين يارب العالمين ".

و أخيرا نزيد أن سرّ النظام الصوفي الذي أنشأه سيدي الشيخ هو العدد **ثمانية** الذي لا يمكن إفشاؤه وتسليمه للمريد إلا من طرف شيخ الطريقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا تصحيح الياقوتة

قام به

عبد ربه الفقير لرحمته خادم دينه الحنيف بقدر امكانه ومستعينا به جل جلاله وعظم شأنه

أبوبكر حمزة بن قدور بن حمزة .

عضو مؤتمر العلماء المسلمين بالقاهرة ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

وعميد المعهد الإسلامي وجامع باريس .

نجل القطب الرباني إمام العارفين عبد القادر بن محمد السماحي الصديقي المشهور

بسيدي الشيخ

رضي الله عنه .

سبحانك لاعلم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم

وفوق كل ذي علم عليم

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا

ربنا و لا تحمّلنا ما لاطاقة لنا به .

واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

. الحمدلة .[15]

-1- بَدَأْتُ بِحَمْدِ اللهِ قَصْدًا لِنُجْحِ مَا   أَرُومُ مِنِ اسْتِفْتَاحِ نَظْمَ الْقَصِيدَةِ [16]

---

* ــ عنوان القصيدة مذكور في البيت 171 بلفظ " الياقوتة " لكنّ الروايات الشفهية تعطيها كعنوان " الياقوتة" مفرد " ياقوت " وهو إسم أصله الإغريقي يعني أوّلا شخصية خيالية مستخها " أبولون " Apollon وردة (ياقوت) لونها –كما هو معلوم – أزرق يميل إلى البنفسجي. كما يعني أيضا نوعا من الأحجار (الصوان Silicate naturel de zirconium)، أو أيضا – وهذا هو المقصود هنا– هو من الأحجار الكريمة التي هي بلون أصفر يميل إلى الحمرة.

في الأدب العربي يستعمل الشعراء بكثرة مثل هذه الألفاظ كعناوين لقصائدهم (مثل الدرّة والجواهر،الفيروز أو الإبروز) فلا داعي للتوسّع في ذلك. نذكّر أيضا أن نفس الإسم يستعمل كإسم للنساء.

[15] ــ هذا العنوان الفرعي لهذه الفقرة الأولى والعناوين التابعة أيضا ليست مذكورة في نص الياقوتة. لكن نحن ارتأينا إلى استخلاصها وادخالها لتقسيم القصيدة إلى عناصر وفقرات كما هو مألوف في المشرق. و ذلك لمساعدة القارئ.

[16] - النص " بحمد الله " هذه العبارة معهودة حيث يجب أن نذكر اسم الله في بداية أي شيء. هذه القضية في أول جانب لها لاتستدعي أي شرح. أما عند أهل الظاهر وخاصة أهل الباطن (الصوفية) فإن اسم الله يضع هؤلاء العلماء في الحقيقة أمام متاهات معقدة. يظهر لنا من الأصلح أن نضبط معطيات هذا المشكل بكل ما يستحقه من توسع وإظهار الحل الذي قدمه الإسلام لذلك. نضيف من الآن أن نفس المشكل طرح عند اليهود والنصارى، وأن كل واحدة من هاتين الديانتين الموحّدتين - اللتين لهما مثل الإسلام تصوّر الإجلال لله - عملتا على حل هذا المشكل. من المؤكّد أن عند علماء اللاهوت فإن هذا المشكل لا يطرح تماما لدى العوام لكن عند الصوفية فإن الإسلام الباطني يرتكز على المعرفة التي تؤدّي إلى إثارته.

اللفظ الذي نعيّن به الرب –جل جلاله– هو ادغام "ال" التعريف مع "إله" فأعطى لكثرة استعماله لفظ "الله". وهناك حديث مشهور يعلّمنا أن: " كلّ أمر لا يبتدى فيه باسم الله أبتر، ناقص لا بركة فيه ".

عن طريق اسم الله، هل يجب أن نفهم أنه اسم يدل على " إله" أو أنه اسمه الخاصّ الذي لايسّمى به أحد غيره أو أنه صفة تدل على حضرة الله ؟

هذا السؤال الشائك وضع بين أيدي علماء اللاهوت المسلمين (المبتدعة والمنكرة والمعاندين و" علماء اللغات القديمة " وأصحاب مذهب تشبيه الإله بالانسان والصوفية) طيلة عدة قرون ، مجوعة تقارير معقدة، كما هي عند اليهود والنصارى أيضا، كما أسلفنا.

سواء عند المسلمين أو اليهود أو النصارى لم يظهر أي عمل جادّ انجرّ عنه تطوّر حقيقي في هذا المجال. وعلم اللاهوت يبقى جامدا حتى نجد أنفسنا خرجنا عن الأصل وبدون معطيات.

هناك منشورات جديدة تخرج من هذا الحكم وهي: قاموس الديانات للشهير بول بوبارد Paul Poupard، كاتب الدولة في الديانات غير النصرانية بالفاتيكان (روما ــ باريس 1979-1983) . إن نزاهة الكاتب الفكرية ومعرفته في الآفاق وفي الأعماق تسجل مرحلة مهمة في البحوث اللاهوتية. فيما يخص مشكلة "الله" نرجع إلى الصفحات من 413 إلى431 .

ولكي نرجع إلى مشكل " الله" واسمه الحقيقي فإن علماء اللاهوت للديانات الثلاثة المذكورة يجب عليهم – مع احترام الحق – أن يعالجوا الجواب من الربّ نفسه عندما يجيب موسى : " أنا الذي أنا " (سفر الخروج 3 / 14) وهي عبارة تناسب في القرآن قوله : " المعنى المترجم : ففي الحقيقة إنني أنا ، لاوجود لإله غيري " . قد تكون بلا شك الآية التي يخاطب الله فيها موسي : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ [طه14]. والتي بضمير الغائب تصبح " ياهو ". نلاحظ مجانستها مختصرة بالعربية "ياهو" و بالعبرية " يهوفاه " (jehovah) هذا التشخيص الذي ينفي التعدد والإلحاد والحلول يثبت عند كل واحدة من الديانات الثلاثة توحّدا وقيمة رفيعة مطلقين. وذلك إثبات موثّق باشكالات متميّزة لدى اليهودية و النصرانية والذي في نظر الإسلام (الذي ينفي العنصرية واللامنطقية) غير مقبول لدى العقل والحق.

أ- إذا كان الله واحدا، فإنّ وحدانيته لم تستخرج من انتخاب تاريخي لصالح اليهود ولا داخلة في أية علاقة تحالف. والفرق بين واحد ووحيد ما هو إلاّ محض نظرة روحية.
ب- تشبيه و تمثيل الوحدانية بالتثليث يعتبر تأمّلا خاليا من المعنى.
ت- في الإسلام كل إشراك بالله مرفوض.

في الديانات الثلاثة الموحّدة إن إسم الله يعني السمو والمهابة والقداسة والطهارة والعظمة والرحمة والمجد الإلهي. لكنّ هذه الصفات من الناحية الميتافيزيقية (ماوراء الطبيعة الغيبية) هي صفات لطبيعة غير هذه الطبيعة.

إن الأناجيل تشهد على إختلاف في الأصل بين اسم الرب والرب نفسه : " يأبانا الذي أنت في السموات، ليكن اسمك مقدّسا " (انجيل متّى 9/6) ومتوجّها إلى الرب، يتوسل المسيح قائلا: " أيها الأب، مجّد اسمك " ويجيب الرب: " لقد مجّدته وسأمجّده من جديد " (انجيل يوحنا 12/ 8 2).

يمكننا أن نقول بكل ثقة وأمان فكريين أنّه لايمكن أن يقع أي التباس حول الحقيقة في الديانة المسيحية. نفس الإنجيلي يقول : " لقد عرفتهم باسمك وسأعرفهم به " (يوحنا 6/17 إلى 16).

في اليهودية فإن مشكلة الإسم باعتبار لفظ التسمية والشيء المسمى أصبحت معقدة لكون الإسم لايعتبر مجرد بطاقة لكنه يتضمن في داخله معنى جوهري أصلي. فيعقوب الذي حرم أخاه العيسو حقّ البكورية يعني " الذي حل محلّه " (Genèse سفر التكوين 36/27). سفر التكوين هذا(Genèse) نفسه يجعل من الإنسان (آدم بالمصادفة) أنه صانع الأسماء (6-4/27).

على هذا التمييز بين الإسم والمسمى توجد عدّة مرجعيات توْرَاتية. لكن ما هو اسم الربّ؟ تأتي التوراة للإجابة عن هذا السؤال بجواب متغير ومتقلب لا ثبات له: ياهوي Yahvé– ياهوفا – إلوهيم – آدوناي... لكن ما هو الاسم الصحيح؟ من ذلك نخرج بشكوك مؤسفة. في روايات الثوراة النصية أوالمترجمة وحتى في كتيبات تعليم الصلاة لا نرى تمييزا ولاتثبيتا في اسم الإله. ممّا يؤدّي بنا لنفس السؤال: ماهو الإسم الحقيقي؟ اسم الرب الخاص به؟ اسم العلم؟

إنّ عدم التيقن والخلط المؤدّي إلى عدم التثبّت وإلى الإختلافات في اللغات الهندية الأوربية للحروف w-v-j-y-i كل ذلك يجعل الجواب عن السؤال أكثر صعوبة. إذا نقلنا إلى العربية كلمة جاهوفا Jéhova تعطينا " ياهو! " (أنت الذي هو!) وهو ما يتفق مع ما في سفرالخروج حيث يقول " أنا الذي هو أنا ... إنّ الذي يسمّى (أنا الذي) هو الذي بعثني إليكم " وهذا حادث اتّفاقي لجملة مستقلة وليس لإسم علم ويبقى المجهول تاماّ. وهو مجهول ينطبق مع الإدراك الإسلامي لغيب الله واسمه (الأعظم) وذاته.

مع " ضمانه العادي " فإن سوئيل (القديس بول) يقدم جوابا لا يخالجه أي إبهام: إن الخلق يدل بقوّة على وجود الخالق (الرب) لكنّه لا يكشف عن اسمه (فصل الرومان I – 20) ثم يضيف " إن الخالق أظهر اسمه مشافهة وكتابيا في الوصايا العشر " (وهو هنا بدون شك يعني ما في سفر الخروج XX – 1 – 17) .
هل يمكن أن نرجو الوصول على ضوء هذا التأكيد إلى الجواب عن السؤال المطروح؟ لا مع الأسف !

في الزمن الذي كانت فيه العبرية مستعملة، فإن التلفظ الصحيح لهذه الكلمة المربعة اللفظ كما يمكن فهمها : ياهفي Yahvé أو جيهوفاه Jéhovah. لكن بعد أن أصبحت لغة ميّتة خاصة في الكتابة، هل بقي التلفظ باسم الرب العلم طبق الأصل؟ السؤال يبقى معتمدا على أسس روحية. الحاخامية كانت تتجنب قدر المستطاع النطق بالإسم الحقيقي للرب فلجأت إلى تسمية أخرى تعمّمت شيئا فشيئا وهي: الخالد. وهذه التسمية لا تعتبر اسما وإنّما هي صفة.

ومن ذلك نصل إلى السؤال الخطير هل الإسم الحقيقي للرب أهمل من طرف أهل الكتاب؟ يجيب الحاخامات: "بالطبع لا ! لكن ذلك وقع احتراما للرب وخشية من أن ينطق اسمه خطأ، لذلك نتجنب النطق باسم الرب الحقيقي بصوت مرتفع حتى نعبر عنه بالفكر والقلب. زيادة على ذلك لا يعقل أن يتلفظ بالاسم الحقيقي للرب بواسطة فم بشري، وهو عضو ينطق ببجاحة ألفاظ الكفر والسب والأخطاء والكذب ".

بهذا المعنى يقول علماء اللاهوت اليهود أن في سفر الخروج ، الرب يحرم (في الوصية الثالثة من الوصايا العشر) أن يتّخذ اسم (جيهوفا) بتفاهة (سفر الخروج XX–7) ولذلك –حسبهم – فإن اسم الرب يبقى للدنيوي الفظّ والعادي ممن يلحقهم الموت مجهولا أو على الأقل يبقى صعب الإدراك والوصف وهو يعظّم باستعمال جيهوفا، أو جاهفي (باختصار جاه Jah).

هذه الإعتبارات تفسر لنا لماذا الإسم الحقيقي للرب لم يشغل بال الموحدّين اليهود فوق الحد وذلك في الفترة التي سبقت ظهور المسيحية بقرن وتلتها بقرنين. اقتصروا على ياهفي Jahvé أو أدوناي. ولا أي انشغال لدى المسيحيين بذلك أيضا. الإغريق اتخذوا لفظا مألوف " ثيوس Théos " و اللاتنيون اختاروا لفظ دومينوس " Dominus" (أي السّيّد أو المهيمن).

في الطقوس إن مطلع الإبتهاج " هاللي لوياه Hallé Loyah " الذي أصبح عند المسيحيين "آليلويا Alléluia " (أي أدعوا ياهفي) وهذا لا يفيدنا في شيء للإجابة عن السؤال المطروح.

أمام مشكل كهذا ما كان موقف المفكرين المسلمين خارج نقولهم الخاصة ؟ و هم الذين تعمقوا ليس في اللاهوت اليهودي والمسيحي فحسب ولكن أيضا في الفلسفة الإغرقية وخاصة عند أرسطو.

لم تَفُتْهم أهمية المشكل زيادة على أن اسم الله وارد في القرآن و الحديث والتفسير. كما أنّ البسملة الواردة في أوائل جميع سور القرآن (ماعدا السورة التاسعة:التوبة) محورها اسم الله.

وبمجرد الرجوع إلى نص القرآن يتبيّن أنه مذكور عشرات المرّات كما في الحديث أيضا – كما ذكرنا أعلاه – بأنّ أي عمل حقيقي لايكون طاهرا مقدّسا إلاّ بذكر اسم الله. كما يقول القرآن:﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن78]. وأول آية قرآنية نزلت على الرسول (صلى الله عليه وسلم) باسم الله الخالق. ففي الآية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق1] توجد كلمتان مضاف ومضاف إليه و تعبران (مشير ومشار إليه) عن اسم الحقيقة. ما هو اسم العلم لهذه الحقيقة ؟ حيث من المنطق أن اسم الحقيقة ليس هو هذه الحقيقة نفسها ؟ ما هو إذن اسم هذه الحقيقة، إسم الذات العليا؟

إن القرآن و التفسير يأتيان بالجواب عن هذا السؤال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور 35) . لكن من يقول نور يقول الإشعاع الذي بدونه لا معنى للمخلوق الظاهر وغير الظاهر في الميزان البشري.

نور يبقى جوهره وماهيته فالتا عن العقل وحواس الإنسان. لو كان في متناولهم لكان بعث الرسل غير نافع. فالله قد أظهر نفسه للإنسان من خلال الناس الذين اختارهم. فالإيمان به لا يتأتّى من العقل ولكن عن طريق الوحي المتكرّر. وجوده عبّر عنه عن طريق اسماء عديدة لا نعرف منها إلاّ ما أخبرنا بها هو نفسه. وهي الأسماء الحسنى ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف180]. ويزيد القرآن ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء 110].

و الله قد أظهر أسمه للمؤمنين بوضوح قائلا:﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ طه الآية 14 و الآية 114 من نفس السورة تضيف أن سر هذا الضمير "أنا" هو " الحقّ "﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : 114].

يظهر لنا جليّا أننا بعيدون عما أثبته الإنجيل الذي يذكر أن الله جسّد صورته على الأرض من خلال الإنسان بما أنه خلق هذا الحيوان بصورته و شبهه (سفر التكوين1 - 27.26) .

كتّابنا بالرجوع إلى الأسماء والصفات في القرآن والحديث عدّوا 99 إسما (كتابنا: البحث العصري للألوهية الإسلامية – نشر ميزوناف باريس 1985ص 56 .62) التي نأخذ منها : الرفعة – الثبات – القدرة – العلم – الحكمة – النور – الكرم – غير ممكن القياس –الآخِر بلا نهاية – الخلود – الظهور – الباطن ، إلخ..

عند الدراسة إن هذه التسميات ظهرت لعلماء اللاهوت أنها ألفاظ يمكن أن نعتبرها أسماء أو صفات، بغضّ النظر عن الناحية النحوية. حيث أثيرت مجادلات عنيفة عندهم وعند الفلاسفة المسلمين في تعريف الذات والصفات.

لا مجال هنا للكلام عن تقلبات المناظرات والمجادلات المذهبية وهي أكثر تأصيلا من أطروحة كانط للطبقات الأرسطوطاليسية التي تؤدّي إلى نظامين اثنين فقط هما: الذات والصفة، باعتبار الأمور الاخرى (المكان و الزمان والكم ، إلخ ...) كاعتبار موجود في العقل العارف واسم الأشياء .في حين أنّ العلاقة لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا بقيت (وجدت) في شيء، والصفة لا يمكنها أن تبقى(توجد) في أخرى الا على شكل ذات. ثم إنّ العلاقة لا يمكنها أن تستمرّ وتبقى في أي من الشيئين اللذين تربط بينهما مثلا في السبب أو في التأثير.

عندما استثمرت كل من الفلسفة و اللاهوت الاسلاميتين معطيات هذا المشكل انتهيا إلى رفض إدراك المادة حسب أرسطو واختيار الذرة الفضائية و الزمنية المؤدّية إلى اعطاء صفات للأشياء السالبة وإدراك بقايا لا يمكن إيجادها إلاّ بالصفات أي بالحوادث (المصادفات).

على هذا الطريق اندفع الإمام الأشعري ومدرسته مستندين حرفيا إلى السنة لهدم أسس المعتزلة وغيرهم. بنوا باختيار مع الاكتساب الذي يحتويه (الارادة الشخصية لاكتساب الأعمال) واسم الله، نظام وضعه أبوبكر بن علي الباقلاني (توفي 403هـ / 1013م) تلميذ أبي الحسن الأشعري في أبرز كتاب له:"إعجاز القرآن" ، كتاب رئيسي في طبيعة الله والعالم والعلاقة المتبادلة بينهما. من هذا الكتاب وكتب أخرى بعده لكتّاب آخرين تناولوا نفس الموضوع نستخلص ما يلي: من جهة فإن الله لا يُدرَك بحواس البشر، و من جهة أخرى فإن اسم الله مطلقا هو الله اسما ومسمىّ. ثم إن بالأدوات النحوية واللغوية المعروفة (التشبيه والإستعارة ...) فإن اسم الإله يصبح اسما علما بلفظ "الله".

الصوفية لما أخذوا الأمر من زاوية أخرى ربطوا مشكل اسم الله بمشكل المعرفة مع تجميد كل صفات الله تعالى، فجعلوا معرفة الاسم فضلا من الله يختص به الخاصة من عباده.

بالرجوع إلى رأي الإمام الغزالي كما هو معروض في " الرسالة القدسية " وكما هو في كثير من فصول "الإحياء " حيث يرجع الأمر إلى " أسرار القلب"، يقول :" من يعرف قلبه يرى ويعرف ربّه " مع جعل معرفة الله تدخل عموما في إطار التقشف والتقوى والورع وبعد الفناء و البعث وإشراب و مزج إرادة السالك بإرادة الخالق . الشاذلية تؤمن أن سرّ اسم الله هو من فضل الله الخاص .

لذلك نجد الإمام أبوالحسن الشاذلي في ابتهالاته يذكر سر الفواتح القرآنية و الرقم 78،وقداسة اسم الله الأعظم الذي به نصبح معصومين من كل ما من شأنه أن يضر في الأرض أو في السماء . (ارجع إلى" حزب النور " (لابن عطاء الله في كتابه : لطائف المنن) – نشر القاهرة 1357هـ الفصل الثاني ص 51) و الله أعلم وبه التوفيق .

2 . وأهدي صلاة ثمّ أزكى تحيّة [17] على المجتبى الهادي شفيع [18] البريّة

-3- صلاة و تسليما كثيرا مجدّدا[19] إحاطة علم الله في كلّ لحظة[20]

فضل الله

-4- وبعد ففضل[21] الله يؤتيه من يشاء بمحض تفضّل ومنّ ورحمـة

-5- وَمَهْمَا اجْتَبَى عَبْدًا سَعِيدًا لِقُرْبِهِ[22] تَخَيَّرَهُ وَذَاكَ لَيْسَ لِعِلَّـةِ

-6- وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ [23] جَلَّ بِعَدْلِهِ وَيَحْرِمُ فَيْضَ الْفَضْلِ مِنْ غَيْرِ قِلَّةِ [24]

---

[17] التحية مصدر حيّى منها العبارة " حيّاك الله " : وفي وسعنا أن نعبر بها عن التحية والسلام والتشريف والتهنئة و الإحترام ...

[18] شفيع : وسيط شفاعة الرسول عند الله يوم القيامة و الحكم الأخير في صالح المذنبين هي إحدى امتيازات رسول الإسلام .

قضية شفاعه الملائكة والرسل الأخرين ماعدا إبراهيم ،و الأولياء قد نوقشت، وخلاصة القول فيها سلبية إلى حد ّما.ولابأس أن نذكّر أن الرسالات السابقة للقرآن (التوراة والإنجيل) تتكلم كثيرا عن ذلك (أنظر يوب 1.5و 23 وما بعده و Patrologia Graeca المجلّد 33 ص 1115و المجلد 46 ص 850 و المجلد61 ص581 إلخ ...أما في الإسلام فنذكّر بقول الرسول الذي نقله تقريبا جميع السلف :" شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي " (الحديث: رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح).

كما أن هناك فصولا كثيرة ورائعة خصصها علماء الإسلام حول هذه القضية مثل ابن حزم في كتابه " الفصل في الملل نشر القاهرة المجلد4 ص63) والغزالي في كتابه "الدرر الفاخرة " (نشر و ترجمة غوتيه في .جنيف– بال بسويسرا 1878م).

[19] الصلاة على الرسول مسجلة في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب56] ويبقى صحيحا ــ من الناحية اللاهوتية ــ أنها ابتهال فيه الكثير من الإلحاح والتضرّع مقارنة بالتديّن الإسلامي في المغرب العربي في القرنين 9 و10 هــ أي 15 و16 م الذي تأثر بتصور " الأنوار المحمدية " .

[20] الله عالم الغيب والشهادة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر46]. كما أنّ علمه غير محدود لا في الزمان ولا في المكان. والتحدث عما يمكن أن يحيط علم الله به في كل لحظة يعتبر مبالغة حيث أن الرسول نفسه قال عن نفسه ورسالته :﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف110].

[21] فضل: التكرم و الطيبة والعطف والرعاية... وهو لفظ مستعمل بكثرة في القرآن على شكل فعل 9 مرّات مثل قوله تعالى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة122] ،وعلى شكل إسم 58 مرّة مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور21]. من ناحية الإشتقاق يعني تميّز واختيار وسمّو من جرّاء استحقاق. له أيضا معنى الزيادة عن الحاجة . وبفضل الله على الناس أن عرّفهم بنفسه بواسطة أنبيائه لأنهم لا يستطيعون ذلك بوسائلهم الخاصة. فهي إكرام وأمان. وعند الصوفية هي غفران تام وفضل مقبول لمن اختاره الله ورضي عنه. وهي شرط للدخول إلى صف الخاصّة بمقابل العامّة. وهذا الفضل هو نفسه عطاء من الله وليس حقّ للعبد. مرادفه اللطف يعني الحفظ من كل مكروه.

[22] القرب: بأشكال مختلفة استُعمِل هذا اللفظ في النصوص المقدّسة بمعنى الإقتراب، و المحاذاة، والجوار أو لمجيء حدث ما، قريب، أقرب، مقرّب، الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد قال تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق16]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة186] وغيرها مثل والسورة 5المائدة، الآية55 .

ولكن سواء في الزمان أو المكان فإن المسافة التي تبعد أي مخلوق عن الله يمكن أن تطول أو تقصر من قبله وحده. هذا الإختزال يكون إما لصالح الملائكة ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء 172] كما يكون لصالح المختارين من الناس ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين20–21]. هذا أيضا إمتياز لمعرفة المجهول. الصوفية يركزون على أثر هذا القرب بالرجوع إلى الآية 19 من سورة 96 العلق: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ بالإجتهاد و الثقة والطاعة المطلقة نقترب من الله. –(انظر الكلاباذي في كتاب التعرّف ص 127) نزيل بذلك كله العوائق التي تعترض وتبطئ (تثقلنا عن طريق) الوصول إليه.

-7- وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ [25] جَدُّوا فِي سَيْرِهِمْ [26] إِلَى الْمَقْعَدِ الأَسْنَى [27] بِصِدْقِ الْعَزِيمَةِ

-8- جَرَتْ [28] لِلنَّاسِ نَفْسِي ثُمَّ تَعَلَّقَتْ بِأَذْيَالِ أَرْبَابِ النُّفُوسِ الأَبِيَّةِ [29]

-9- وَحَامَتْ عَلَى حِمَاهُمْ ثُمَّ خَيَّمَتْ بِقُرْبِهِمْ فَزَاحَمَتْهُمْ لِشِرْكَةِ [30]

-10- فَلَمَّا تفَاوَضْنَا الْمَشُورَةَ بَيْنَنَا بَرَمْنَا عُقُودًا بِالْعُهُودِ الْوَاثِقَةِ [31]

---

[23] ــ الله حرّ في تصرفاته وأفعاله التي لا تملى عليه بأي سبب من الأسباب وغير متعلقة بأي سبب ظاهر أو بسبب يمكن أن يصل إليه السمع البشري. إنّ إرادته المطلقة توحي بسرّ مرتبط بحكمته وذاته وليس بأي شيء مغاير. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يس82) العبارة هي صيغة تعجب وتمني في آن واحد. النص : " انه جليل بعدله !" .

[24] ــ النص : دون أن يكون ذلك راجع إلى خصاصة. إذا حرم الله أحدا من عباده فضله ليس ذلك لأنّ فضله قليل ومحدود بل بالعكس إن فضله عظيم لكنّ تلك هي إرادته.

[25] ــ القوم : الناس، الشعب هو مصطلح يعنى الصوفية. ويظهر ذلك حسب نظرهم ــ بالوضوح والصفاء في هممهم . كما أنهم سمّوا "القوم " لطهارة قلوبهم، كما أنهم يرجون أن يكونوا في الصف الأول عند الله . همهم الوحيد هو إرضاء الله (انظر الكلاباذي (28-35) الذي يضيف أن ملابسهم من صوف – (مرادف القوم: الناس).

[26] - السّير: المسيرة المستمرّة طول الطريق راجلا أو راكبا وهو مسار مستمر دون تعب.

[27] - المقعد الأعلى كما في السورة 54القمر﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)﴾ ، بعض الصوفية فسروا الآية بمعنى يكونون " في جنات ونور " . تفسير الطبري ص 113 و الرازي ص89).

[28] ــ جرت: وفي رواية أخرى أجارت للناس أي إجارة الصوفية ، وجرت للتأسي(جرى مجراه أو جارى يجاري أي يقلد).

إن معنى هذا الفعل المصرف في الضمير الرابع مقارب لأحد معاني المصدر " جار " أي بحث عن جوار وملجأ أو مولى . وفي النص : روحه جرت أي أسرعت نحو تقليد ثم التعلق بأذيال أصحاب النفوس الأبية.

[29] - النص : النفوس الأبيّة : النفوس التي تأبى أن تقع في الحرام تعفقا حتى لاتخرق لمجرد شهوة أو مصلحة فانية شرائع الله الخالدة وهي عبارة مقابلة للنفس الأمّارة بالسوء. كلمة نفس كثيرا ما تكون مرادفة لكلمة روح وليس لها هنا معنى الروح النباتي. إنه يعني حقيقة يعلم الله سرّها ، وفي القرآن ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[الإسراء85]. ابن عطاء الله يقول في هذا الصدد أن الله خلق الأرواح أولا ثم خلق الأجسام بعد ذلك مستندا إلى الآية﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾[الأعراف11].

تبقى الروح وهي جوهر الحياة سرّا مجهولا في نظر الصوفية (الكلاباذي ص 84).

ماهي الحياة؟ إن العلوم الحديثة الإجابية لا تأتي بأي جواب جدّي عن هذا السؤال. في الإسلام سرها عند الله ينزعها عند الموت :﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾؟[يونس31] الروح معقدة في نفسها ومتناقضة، سريعة الإنكسار (ضعيفة)، مضطربة (غير ثابتة)، سريعة التأثر. و الصوفية والعلماء يقسمونها إلى سبعة أقسام (سبعة صفات) مستندين في ذلك إلى القرآن الكريم:

-1- الأمّارة بالسوء:﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[يوسف53]

-2- اللوّامة: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة2].

-3- الملهمة:﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[الشمس8].

-4- المطمئنة﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر27].

-5- الحامدة.

-6- التابعة لأوامر الله.

-7- الكاملة.

هذه القائمة تعمل بموجبها بعض الطرق الصوفية، خاصة القادرية والخلواتية. أما الشاذلية ومنها الشيخية فهي ترجع إلى خمس مراحل. يتكلمون عن النفس الراضية. والرضا لا يعتبر عندهم طبيعة إنما هو صفة التدرج (الصعود) الروحي عند تجاوز الروح مرحلة الصفاء والسكون. كلما تحياه أو تتلقاه أو تعلمه هو من جرّاء تجلّيات إلهية تلي التقرّب الذي لا يكون ممكنا إلاّ عند النفس الكاملة .

[30]- النص : بنت خيمتها قريبا منهم ثم دخلت لتزاحمهم ولكي تشاركهم.

[31]- النص : عقدنا عقودا بمواثيق متينة. وعهد المريد لابد أن يكون نهائيا وسابقا للمشاركة. مستندا إلى الآية:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[البقرة207] والآية:﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[التوبة111] إنه اختيار عظيم في طريق الطريقة الصوفية. إنه تشاور مسبق وعهد

-11- تَبَايَعْنَا بَيْعَ الْبَتِّ لَيْسَ كَبَيْعِ مَنْ   يَرَى البَخْسَ ثُمَّ يَنْثَنِي بِالإِقَالَةِ [32]

-12- فَصِرْنَا وَصَارُوا[33] حِلْفَ[34] صِدْقٍ[35] وَوُدُّنَا   وِدَادَ النُّهَى[36] ذَوِي الصُّدُورِ السَّلِيمَةِ[37]

-13- وَبَعْدَ تَعَاطِينَا الْمَوَائِدَ نَبْتَغِي   فُنُونَ الْعُلُومِ[38] ، يَالَهَا مِنْ عَطِيَّةِ ! .

رزين وموجّه، نتيجة لمداولة جادّة وتبادل الرؤى. وكلمة "مشورة" تعني أيضا النصيحة. بعض المخطوطات تتكلم عن المشاوير التي لا علاقة لمعناها بالنص: أرض مزروعة واسعة. بعبارة أخرى: لقد أصبح تلميذا لشيوخه الملقنين له واتبع الطريق الذي رسموه له.

[32] - النص : البيع المتبادل الذي قمنا به ليس مثل بيع الإنسان الذي إذا رأى نقصا أو عيبا في السلعة نقض بيعه. والكلمات:عقود ،عهود، بيع، بيع البتّ (أي دون تراجع)، الإقالة؛ هذه المصطلحات قانونية. ففكرة "بيع الروح لله" قرار لا يمكن التراجع فيه أبدا.

في الشريعة الإسلامية توجد ثلاثة أنواع من البيوع: بيع البتّ: الذي لا يمكن أن يلغى، و بيع الخيار حيث لكلا الطرفين الخيار في بتّه أو إلغائه، وبيع الإقالة: وهو عملية يمكن التراجع فيها في حالة ما إذا وُجِد في السلعة عيب غير ظاهر أو ثغرة غير مملوءة. فهو لا يحدث (لايبتدع) شيئا وإنّما طريقته مبنية على (التوريث) الإستخلاف.

[33] -صرنا وصاروا: أصبحنا في مكان، سرنا وساروا:حسب رواية المرحوم صاحب الصوفية مولاي عبد الله نور المتوفي بالبيّض سنة1952.

[34] - رواية أخرى خلف وهي غلط.

[35] - صدق: بدون صدق لا يبقى إلا المغالطة والتقلب،ريبا أو عمدا. وعهد كهذا يتطلب انضمام القلب والعقل وهو شرط الدخول في الصوفية. يؤدّي إلى دوام الجدّ والوفاء. الصوفية يميّزون صدق القلب وصدق الجوارح وصدق الوعد (القشيري في الرسالة، دمشق1290هـ /1873م المجلد 3 ص137). كبار الصوفية جعلوا من الصدق شرطا إلزاميا. وهو ما يفهم من نصوص أبي القاسم الجنيد المذكور أعلاه وأبي الحسين النوري (متوفى295هـ /908 م) وأبي سعيد الخزّاز (متوفى 279هـ /893 م) وأبي موح رُوَيْم (متوفى303هـ/915م) وإبراهيم الخوّاص (متوفى 291 هـ /904 م) وأبي بكر الشبلي (متوفى 322هـ/933 م).

[36] ـ الودّ و وِدَاد عطف وترابط، لا يجب خلطه بالإرادة (من ودّ أو أراد) إنمّا هو أقرب من المحبّة التي تعنى أيضا الحبّ. لابد من فهم هذا اللفظ كرباط يربطهم بالله ورباط يربطهم ببعضهم في نفس الوقت والملائم لهذه المحبة هو – كما قال أرسطو – نحب إلى حدّ التلاقي. ومنها فكرة الصّحبة.

و الصوفية يوضحون أنها الصحبة في الله التي تتضمّن العيش برفقة الإخوان الذين تستدعي مخالطتهم رضا الله والإستحقاق عنده (القشيري في الرسالة المجلد 4 ص31).

لقد أفرد للمحبّة الكثير من الكتاب القدماء (كأفلاطون وأرسطو وشيشرون و أبو حيان التوحيدي، إلخ ...) بحوثا منتظمة وذلك قبل علماء النفس المحدثين. الإغريق هم الذين حللّوها جيّدا. حيث يرى أفلاطون أنها موافقة انتقائية، وإعادة ملاقاة لأرواح تعارفت وتحابّت في فضاء الأفكار الطاهرة .

بالنسبة للصوفية وخاصّة شيوخ سيدي الشيخ ومنهم الجنيد الذي سبق ذكره (متوفى 279هـ 892 م):" المحبة هي ميل القلوب ولها جذورها عند الله ". هي موهبة وليست حقّا، إذن فهي خالية من الغرض. وهي لا تُخلط بالضرورة مع الحب الذي هو لا يتعلق دائما بالطرف الآخر.

المحبة عندما تستعمل بمعني الحب يكون لها سكر كالخمر والشراب، وتأثيرهذا السكر يؤدي إلى التفكير في السُّقاة و الأباريق والأقداح والكؤوس إلخ ...

لأنه إذا كان للأدب الدنيوي غرض الخمريات، فإن للأدب الصوفي أيضا أدبا رمزيا في الخمريات.

[37] ـ الصدور السليمة: أي القلوب. طهارة القلب هي المدخل السابق إلى الزهد والتنسّك . الصوفي يحب الله لذاته وليس للفوز بالجنّة. لأن ذلك يعني مقايضة وعند التحليل هي تجارة بخسة. و في صميم هذا المعنى قالت الصوفية الشهيرة رابعة العدوية : " الجار ثم الدار " و تقصد بالجار الله تعالى، و الدار هي الجنة.

يكون القلب طاهرا إذا تحرر من كل قيد يربطه بالأمور الأرضية و من كل انشغال إلاّ بالله .

و في هذا المعنى كان الرسول صلى الله عليه و سلم يخبر أصحابه عن نقاوة قلب أبي بكر الصديق حيث قال:"أبو بكر لا يفوقكم بالصلاة و لا بالصوم ولكن بغنى قلبه"

[38] ـ فنون العلم الرباني: فالعلم من الناحية الصوفية، حيث يجب أن نفرق عادة بين العلم المكتسب بخطوات مرحلية، و العلم الموهوب كعلم الأنبياء و الأولياء الذي يفضي به الله تعالى لعباده عن طريق الملائكة أو بالإيحاء .

والنوع الأول وهوعلم الظاهر يكتسب بالتعلم الخارجي، أما النوع الثاني فهو أعمق وأكثر حقيقة لأنه يلامس عمق الأشياء وهو وراء ما يُعرَض للأذهان و العقول و الأحاسيس: إنّه علم الباطن .

فالعلم الظاهري له طرقه ومتطلباته. أما العلم الروحي فإنّه يحصل بالإستقراء و الإستنباط و الإستنتاج أوالقياس. فالعلم المقبول من قبل الله شيء عفويّ فوري أو تدريجي عن طريق التلقين. و في هذا المعنى قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم " . بالنسبة لكبار الصوفية،العلم الباطن يتبع العلم الظاهرالذي هو سابق له... إنها العلوم العقلية والعلوم الدينية في تنوّعها .

-14- فَلَمَّا أُدِيرَتِ الأَبَارِيقُ [39] بَيْنَنَا مِنَ الشَّوْقِ [40] تَتْلُوهَا كُؤُوسُ (25) الْمَحَبَّةِ .

-15- وَنَحْنُ نَشَاءُ نَلْتَقِي شُرْبَ خَمْرِهَا [41] بِكِلْتَا الْيَدَيْنِ فِي الأَوَانِي الْمُعِدَّةِ

-16- وَحِينَ انْتَهَى بِنَا الشَّرَابُ عَلَى الَّذِي قَضَاهُ لَنَا الرَّحْمَنُ وِفْقَ الْمَشِيئَةِ

النداء الإلهي

-17- سَكِرْنَا [42] وَهِمْنَا [43] بِالشَّرَابِ فَبَيْنَمَا أَنَا بَيْنَ حَالِ غَيْبَةٍ وَإِفَاقَةِ

فعلم (ésotérique) الباطن يتألف أيضا من فروع أخرى كعلم الإشارات والأمثال والرموز، وعلم القلب وعلم عِلاّت النفس وعلم الأحوال إلخ ...

وعلم كهذا يوقظ من عند الله الذي يقبله فوريا وبصفة مجملة أو يهب لعبده وسيلة الدخول فيه بمراحل وأحوال. حسب الصوفية و كما عبّرعنه أبوبكرالشبلي:"هو العلم لا ينضب، علوي سماوي إلهي"(عبود الكلباذي ص 106.104). لقد تلقى عن شيوخه الصوفية المبادىء التامّة.

[39]- الأباريق و الكؤوس يرمز بها إلى صدور المشائخ وقلوب الرجال لأن المعرفة الصوفية تنتقل شيئا فشيئا عن طريق الشفاه في لقاءات الزهد وليست مستمدة من الكتب. إنها تفترض حبا خاصّا لله، زاهدا في الدنيا، مسيرة وئيدة وشاقة في طريق لابسي الخرقة.

[40] ــ الشوق، المحبّة: لفظ يقتضي معرفة المعنى الذي يعطيه له الصوفية. أحدهم يعني محبة حيّة أوهياما. الآخر صداقة حبّ،كلفظ صوفي، وأيضا في القرآن: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(البقرة 116) و قوله:﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران31] ، المحبّة مرادفة للحبّ يمكن التطرق لإظهار الشبهة بينهما إلى "طوق الحمامة" لابن حزم .

الحبّ الإلهي لا يجب خلطه مع الحب الدنيوي، يعنى الهيام الخاص: نهائي يقتضي التضحية والتبعية والمجاوزة. حقيقة أن عند المعتزلة يعتبر الحب بين الانسان والله مجرّد نظرة فكرية بسيطة. وبالتالي لا تؤدّي إلى أي تبادل. كما أنّ من العدل ومن الملائم لطبيعة الأشياء أن نتكلم لاعن الحب لكن عن نعمة الإيمان والورع في الفعل والتفكر المعبَّر عنه بعبارات الدّعاء والإعتراف والطاعة. الحب تعلّق يقرب من الله. إذا كانت معرفة الله صعبة أو مستحيلة عن طريق العقل، فإن الحب يقود إليها بفضل الله وعونه .

بالنسبة للصوفي هذه نقطة أساسية. المعرفة نفسها دون حب ما هي إلا معرفة تقديرية محضة، وصفية فكرية. بفضل الحب تتحول إلى حياة. المعرفة المعاشة تشجع تحوّل "المعرفة" إلى "كينونة" بفضل الحب الإلهي وفضل الله وعونه. برفع الحب إلى مستوى الهدف، (مصادفة) بتقريب "العارف" الهائم، من الله اللامتناهي الخالد المطلق، فإنّ الصوفي "يتفانى" في الهُوَ. حبّه التام، النهائي، الإقصائي يكون في ذاته تضحية ذاتية. يؤدّي إلى الإنطواء ونسيان الذات والمجاوزة إلى التجارب التي يفترضها، حياة جديدة؛ حياة من وإلى الله .

[41] - في الياقوتة كما في كثير من الكتابات الشعرية أو النثرية الصّوفية، تتكلم كثيرا عن الخمر و السكر و النشوة، يجب هنا معرفة القصد من ذلك. يوجد في الأدب العربي قسم خاص بشعراء الخمر يسمى " الخمريات " أبرزها أشعار خمريات أبي نواس. هنا الأمر لا يتعلق أبدا بالمشروبات الكحولية ولا بأثرها في مستهلكيها. المفردات الصوفية مَجَازِيَة غنية بالاستعارات ، مقترنة بالرمز الجريء، بعبارات تلميحية لا علاقة لها بالمعنى الحقيقي الذي يعطيه الجاهل للكلمات عادة. بالنسبة للصوفية إن الخمر ليس هو المصدر الوحيد للسكر، كل ما يثير هذه الحالة يرمز له بالخمر: الجمال، النشوة الحبّية، النظرة الباهرة، ما يستدعي إلى التحويل، الإنفعال الحيّ، نورانية مذهلة ...إلخ .إذا كان السكر حالة فإن سَبَبَهُ مختلف ومفعوله يكون أيضا مختلفا .

يمكن الرجوع في هذا المضمار إلى "خمرية ابن الفارض"(المتوفى سنة 632هــ /1235 م) و إلى كتابنا " بحث حول الألوهية في الإسلام " (طبعة باريس 1985 باب: الصوفية).

[42] - سكَر، سكِر، سكران: لفظ مستعمل كثيرا في التعبير الصوفي. معناه العادي: كون الإنسان مدوّخا بمشروب مخمّر، فهو مخمور. عند الصوفية اللفظ يجب أن يفهم بمعناه المجازي: يعنون به حالة سكر سببها التشبع بالهيام في الله. تشبع يفقد التوازن ويسبب الدوار. بينما السكر العادي يفسد الوظائف العضوية ويسبب الحوادث ويجعل المَلَكَة الفكرية مختلّة، فإنّ عند الصوفية السكر هو حالة لا يميّز فيها بين اللذة والألم، والفقر والغنى، والصحة والمرض. في صدد اللاوعي هذا فإن الصحابي الشهير ابن مسعود كان يقول:"لا يهمّني الفقر ولا الغنى، الفقر يستدعي الصبر والغنى يستدعي شكر الله ".

[43] - هِمْنا: هذا السكر نفسه يحدث نسيان الذات ويسبب الإحساس بالغياب (الغيب، غيبوبة).كل شيء حول الصوفي يغيب ويتلاشى: الثروة والفرح واللذة والمشاريع. ضميره (شعوره) يفرغ من كل انشغال .

فقدان مَلَكة التمييز هذا لا يمنع الصوفي من السير في صمت بواسطة لاشعوره. إنه يهيم كالمجنون. يلاحظ أيضا أن الفعل "هام" يعني أيضا الاحساس بالظمأ الكبير ومن مشتقاته "الهيماء" أي الصحراء الفارغة بلا ماء. نفس الفعل يعنى " أحبّ " حبّا قويّا .

-18- دُعِيتُ [44]:هَلُمَّ! فاستمعت دعاءَه فلبّيته إذن بحسن الإجابة

-19- وأدناني منه[45] إذْ فَهِمْتُ مُرَادَه وغاب مرادي كلُّه في الإرادة .

-20- وَأَشْهَدَنِي عَوَالِمَ [46] الْخَلْقِ كُلَّهَا وَخَيَّرَنِي[47] فَاخْتَرْتُهُ دون مِرْيَة [48]

في هذه الحالة من عدم التمييز ومن التعظيم والهيام الناتجة عن حبّ الله فإنّ الصوفي ليس متروكا لنفسه. إنّ الله يحرصه ويهديه. كل سكر متبوع باسترجاع الجوارح واستيقاظ الضمير. بعد أن يصحو ويرجع لنفسه فإنه يجد نفسه مع الله .

نضيف أن الحروف الأصلية للفعل "غاب"(عدم الحضور، الإبتعاد، الإختفاء، الإفتقاد) مرتبط بأسماء ذات حركة ومعاني معقدة في القرآن "الغيب" يعني ما لا تدركه الأحاسيس أو العقل وبصفة أوسع سرّ الكون في علاقاته بخالقه(السورة 39 الآية 16 / س ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحجرات 18)، س 57. آ8. إلخ ...) .

[44] - دعاء مرادف نداء هنا. جميع حياة الصوفي الروحية مرتكزة على هذا النداء و الجواب الإيجابي(طلبية) الذي يقدّره، عما جاء في الآية 56 الذاريات51 :﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾. الكفار يقابلون هذا النداء بالرفض. لكنّ المؤمنين يجيبون:"ألّلهمّ لبّيك!" (سمعنا وأطعنا).

النداء في حدّ ذاته لا يسمع بالأذن. الأمر لا يتعلق بصوت مسموع لكن بإدراك باطني بفضل ملكة تُنْهِض الحساسية والذكاء: البصيرة التي يمتدّ نسقُ الخشية فيها إلى الملائكة والرسل والأولياء حتى تصل "الكثافة" للضالين والملحدين وإلى أن تخمد في أفهام الأفظاظ الغلاظ يقول ابن عطاء الله :"إن التعلق بالدنيا والأهواء الدنيئة ونسيان الأمور المهمّة هو الذي يجعل البصيرة غير صالحة" كما يضيف في حِكَمِه أنّ القلب عنصر مرأى الأبعاد خاضع لأربعة قوى جاذبة: النفس، الهوى، الوسواس والحض (التأثير)الملائكي. إن طالب الوظيفة لايتحرّر إلاّ عندما يصبح أصمّا وأعمى لكل محاولة إلاّ محاولة الإلهام الملائكي وحينها يصبح أهلا للإستماع إلى النداء الإلهي، لأن هذا النداء لا يستقبله إلا قلب طاهر ونفس كاملة، كمال الروح هو شرط رضا الله. إذن بقلب مهيأ للتلقي استطاع سيدي الشيخ أن يسمع نداء الله. وبنفس العبارة التي تستعمل أثناء الطواف بالكعبة من طرف الحاج.راجيا القبول الإلهي، فأجاب " لبيّك اللهم لبيك ".

[45] ـــ أدنى:هو مرادف قرّب، أي جعله في متناوله. هذه الألفاظ مألوفة في مفردات الصوفية وتستعمل للملائكة و الأنبياء و الأولياء. الأمر يتعلق طبعا برفعة مستحَقّة وليس بتقريب المسافة في المعنى الهندسي للكلمة، فالله تعالى ليس له مكان ولا زمان. قرب الله يقتضي الكمال الذي يجعل الصوفي أهلا لندائه تعالى. في مسألة التقريب هذه والمجاورة في الزمان أو الحيّز ذكّرْنَا فيما سبق أن القرآن يعلّمنا أن الله قريب من الإنسان:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة 186) وأية أخرى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق16]. يكون أقرب إلى رحمته ولطفه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف56] بالإستحقاق سواء تعلق الأمر بالملائكة ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء : 172]"الملائكة المقربون" و البشر﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة11]،﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين21]، ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء42] إلخ... هذا الإستحقاق تابع لصدق الإيمان، واتّباع تعاليمه والحب الإلهي الذي يزهّد في كل ما هو ليس الله.

[46] - و عوالم جمع عالم ،جمع آخر عالمون، وبالرجوع إلى القرآن: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان1و2]. يوجد حسب ابن المنبه 18عالم منها عالمنا. وحسب ابن عباس (في اللسان) نفهم من عالم، عالم الإنس والأرواح الخفية..

اللغويون والمفسرون يميلون لهذا التحديد لمعنى عالم، محبّذ لأنه أقرب لمعنى الكون حسب رأيهم. الأمر لا يتعلق بمجرّات الكون لكن بالأصناف والأنواع الأرضية (حيوانية، نباتية، معدنية...) وخاصة البشر. رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم بُعِث بشيرا ونذيرا ليس للعوالم الأخرى لكن لعالمنا الأرضي، ليس للنباتات والحيوانات التي لا تملك عقلا لكن للإنسان.

الفعل " أَشْهَدَ " يستدعي ملاحظة أخرى، يتعلق الأمر برؤية ليس بالعين ولكن المشاهدة المؤسسة على إدراك الباطن (البصيرة) لأن الصوفية يقولون " المشاهدة الباطنية أكثر تثقيفا من معطيات المعاني التي يمكن أن يكون شرحها خاطئا "لأن الرؤيا بالقلب أحسن عندهم من الرؤية بالعين".

[47] - خيّرني : الإختيار كان إذن عقب التخيير وليس هناك اختيار بدون حرية، وهنا نلمس قضية شائكة في الفلسفة كما في الألوهيات: هل نحن أحرار في قراراتنا؟ هل نحن مسيرون بإرادة الله؟ لابد للجواب عن هذا السؤال أن نعود إلى الخصومات التي خاض فيها عند المسلمين كل من المعتزلة والمتكلّمين وهذا يتجاوز الشرح المتواضع لهذا البيت، لقد بحثنا في ترجمتنا للقرآن الكريم (السورة 47 محمد) وفي كتابنا " بحث الألولهيات " هذه المسألة وأكّدنا أن الإنسان يتمتّع بحرية محدودة، بتحرّر لا يمكن خلطه بحرية الله المطلقة.

كل ما يمكن التذكير به هو أن هناك حرية محدودة متروكة للصوفي لكي يتميّز(يشخّص نفسه)، لأن في مسألة الإيمان أو الكفر أو الطاعة أو المعصية أو الحب أو البغض فإن الله لا يجبر الإنسان على ذلك كله. وفي هذا المعنى

-21- فَلَمَّا رَأَى [49] رِضَائِي لَيْسَ بِدُونِهِ   كَسَانِي [50] رِدَاءَ قُرْبِهِ وَالْخِلاَفَةِ [51]

-22- فَنَيْتُ فَلَمْ يُغْنِ الْفَنَا [52] عَنْ بَقَائِنَا [53]   وَلَيْسَ الْبَقَاءُ حَاجِبًا عَنْ فِنَايَةِ(وفي روايةعدمية)

-23- وَلاَ الْفَرْقُ [54] أَيْضًا حَاجِبًا لاِجْتِمَاعِنَا   وَلاَ الْجَمْعُ [55] لِي عَنْ ذَاكَ جَاءَ بِعَكْسَةِ

-24- فَغِبْتُ [56] عَنِ الأَكْوَانِ [57] طُرًّا بِأَسْرِهَا   وَشَاهَدْتُ رَبَّنَا بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ [58]

يقول القرآن: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾! [الحجرات7]. هذا اختيار حرّ إذن، الأمر لا يتعلق إذن بإلزام مفروض لمّا خُيِّرَ بين العالم أجمعه فإن سيدي الشيخ عيّن اختياره، اختار الله. القرآن يضيف: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود101].

نضيف أن فيما يخصّ الايمان فإن القرآن يؤكد ويقتضي الحرية الكاملة للإنسان. إذ لا يمكن للإنسان أن يكون مسؤولا وأهلا للجزاء أو محروما منه إلا إذا كان حرا في اختياره: "لا إكراه في الدين" (البقرة256).

[48] - المرية : الشك، النزاع وهنا يقصد التردّد .

[49] - رأى: فعل معانيه معقدة منها النظر، سجّل، حكم... يتعلق الأمر هنا إذن بتسلسل لا يفهم معناه إلاّ لدى البشر، أما سيدي الشيخ هنا فإنه يعرض مراحل الإرتقاء الروحي لأنّ الله في علمه وفي علم الغيب عنده كان يعرف مسبقا اختيار عبده .

[50] ـــ أسلوب صوفي سامي محض مستعمل بطريقة الرمز التي نجتهد أن نبسّطها لفائدة القارئ. و المعنى: زوّدني بامتياز القرب منه و الوكالة أو النيابة (الخلافة) .

[51] ـــ خلافة، النيابة، الوكالة ... لفظ مستعمل بكثرة ليس في مفردات الصوفية فحسب ولكن أيضا وخاصة في القرآن:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة30)،﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل62) ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾(ص26) ..إلخ . من الصعب شرحه : خلافة ؟ نيابة ؟ وكالة؟ ما القصد منها من ناحية الألوهيات كما في الميدان الصوفي المتميّز؟

إن ما يوجد في العقيدة الإسلامية، أن الله منح آدم الخلافة على الأرض ولداود ولمخلوقات أخرى (أرجع إلى شرح ترجمتنا للقرآن في : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة30) الأمر يتعلق بتصرّف لا علاقة له بالإرادة المهيمنة.

عند الصوفية هي مهمة تمجيد وإظهار عظمة الله وعلامات ومعجزة الخلق لديه للناس بما يلائم مقام الآدمي، وفي القرآن (البقرة30) والآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور55)، تتجلى في الصوفي أوصاف الكمال والكرم والحلم والعلم إلخ... عند كثير من الصوفية إن هذه الخلافة تتضمن المشاركة في عمل الباطن والعدل و الحبّ، وهي أسس أيّ إيمان مفهوم جيّدا، مشاركة نتيجتها التبعية الكاملة للصوفي لإرادة الله وذوبان إرادته البشرية في إرادة الله السامية.

[52] - الفناء : العدم، التلاشي، ونميل إلى التلاشي عن العدمية التي تفترض الرجوع إلى العدم ، كما جاء في القرآن (الرحمن26) :﴿كل من عليها فانٍ﴾ بينما عند الصوفي يتعلق الأمر بحالة (داخلية) باطنية بين الشعور واللاشعور بين البقاء والموت.

[53] ـــ مع بقائه حيا فإن المريد الصوفي ملاشىً. تجربته مع ما تحتويه من زهد وخلوة و تمجيد وتحمل من خلال مراحل ولحظات سيره إلى الله. الحب و النشوات تؤدي به شيئا فشيئا إلى تحوّل داخلي جذري، كل شيء فانٍ فيه: الإحساس، التصوّر و الإرادة تتلقى موتا رمزيا لتترك المجال لإحساس جديد و تصوّرات جديدة وهوى جديد وإرادة جديدة. إنها حياة جديدة، احياء يتفاعل فيه مع إعادة وحدته الداخلية المبعثرة، إعادة توازنه المحطم بتكبيل الحياة المعتادة. إنه حيّ مُلاشىً ثم يرجع إلى حياة جديدة تماما بسكرها ووجدها، هذا الإحياء يتحقق بفضل الإرادة الإلهية. في هذه الحالة تتجرد الروح من كل هوى عدا حب الله، لاشيء يشغلها ولا شيء يجعلها تنحرف .

[54] - الفرق بين ما ينجم عن الله وما ينجم عن البشر يصبح واضحا. الفناء لا يلغي البقاء عند الله (أنظر الكلباذي ص150.147). " الحق يتولىّ تصريفه باقيا بأوصاف الحق " .يمكن أن نفهم منه أيضا معنى التفريق والتمييز بين شيئين، بين "الناسوت" و "اللاهوت". أو أيضا إبعاد الروح عن الإنشغالات والأطماع (الكلباذي ص 143). الروح تتلخص مما هو إلاّ وَهْمٌ عند التحليل.

[55] - الجمع بالعكس يقتضي توحيد الإنشغالات وجعلها واحدة :الله. (الكلبازي ص 142)

[56] ـــ في البيت 17 النقطة 2 شرحنا اللفظ هذا الذي يأخذ عند الصوفية معنى تقني، أي حالة من اللاشعور واللاإدراك في اتجاه الكل (غبت).

[57] - الأكوان جمع كون: ما هو كائن و ما هو موجود.

[58] - شرحنا هذه الملكة الخاصّة في البيت 20 .

[59] - عرفت: معرفة الحقّ أي معرفة الله حيث لفظ الحق هو واحد من الأسماء الحسنى 99 المعروفة عند البشر(أنظر ترجمتنا للقرآن –باب: الله)

أهمّ كلمة هي الفعل "عرف"، "علم" التي تعتبر نقطة ارتكاز يدور حولها كل تصوّر للصوفي وللحياة الدينية. تصوّر كان وما زال يثير تناقضات بين أهل السنّة والصوفية (نفس المرجع المذكور أعلاه) .

العقيدة الإسلامية تعترف للعقل البشري بإمكانية معرفة الله على الأقل في ذاته، في وجوده بالتأمّل و بفهم الآيات الكونية. القرآن يأمر بمثل هذا التفكر﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة118) و ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران 190 الخ..). الفلاسفة مثل الفارابي وخاصّة ابن سينا يرون في الآثار التي يعرضها الخلق للتفكّر البشري دلائل على وجود الله. المعتزلة يجعلون من هذا التفكر في الآيات فرضا لمعرفة الله بواسطة العقل (فقط) . بالنسبة لخصومهم المتكلمون والفلاسفة العقائديين ذوي الاتجاه الأشعري، هذا الواجب تفيض به الآيات القرآنية ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام99)

وفي سورة النور نعيش مع هذا الفيض:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

واستطاعة الإنسان الارتقاء بواسطة العقل إلى معرفة الله هي موضوع بحث عند الإمام الغزالي في "كتاب الإقتصاد"(طبعة القاهرة ص 78).

بالنسبة للصوفية الذين لايطمئنّون إلى العقل أو على الأقل يعتبرونه ملكة ناقصة، فإن معرفة الله ترجع إلى الله نفسه "الدليل على الله هو الله وحده"كما جاء عند الكلباذي ص78). يعلّمنا القرآن أن الإنسان يحمل في قلبه منذ ولادته طابع ميثاق قبل الوجود يحتوي على وجود الله، وتعهدّه أن يعبده كما يليق به:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (الأعراف172). الإيمان نفسه احترام ووفاء لهذا الميثاق. انكار الله هو انكار الحقيقة الواضحة ونقض الميثاق ."الكتاب" تذكير لهذا الميثاق وللوحي المبلغ من طرف الأنبياء. هو في نفس الوقت إنذار وبُشرَى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (البقرة119).

المعرفة الأولى لله هي فينا نحن. إنها فطرية غريزية وتصدر من الإحساس. المعرفة الثانية لله علمية نظرية. إنها عقلية ولنعش مع سيدنا ابراهيم عليه السلام وهو يقلب نظره في السماء:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾ (الأنعام).

إنها تجمع داخل القلب والعقل عقيدة أكثر حياة، فاعلة في تحليل وتركيب (أو تجميع) العلم الموهوب مع العلم المكسوب. لكن هذا التجميع غير كاف لأنه لايقدم إلاّ معرفة نسبية لأنها ترتكز على وسائل الخشية البشرية إذن محدودة وعاجزة عن إختراق المطلق. لكي تكون كاملة وحقيقية لابد لها من الفضل المنير للإله فضل ليس هو حق للإنسان وإنما هو من جرّاء اختيار، علما بأن الله حرّ في أن يظهر أو أن يمتنع عن الإنسان. الاستحقاق نفسه ليس كافيا ولا تقريريا. الله يهدي أو يضل مَن يشاء:﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام88). مستنيرة بالفضل فإن المعرفة ترتفع إلى مرتبة ثالثة الصادرة عن الجبلّة، عن النظر و عن إدراك يتضمن الإشعاع الإلهي، نور وحكمة في قلب " الْمُصْطَفَيْنَ " تصبح علامة امتياز.امتياز العون الإلهي الذي له وحدانية منيرة ترتقي بفكر "المختار" إلى الله و تجعله أهلا للمعرفة المباشرة. هذه المعرفة ليست رؤية الله في المجهول لذاته لكنها إيذان منه :"هُوَ اللهُ أَحَدٌ!"(الإخلاص1). إذا كان العقل لا يستطيع أن يصل إلاّ إلى الممكن

حدوثه أو عدمه فبالفضل يتوصّل إلى تلقي نور الوحدانية . إنها ليست تجريدا ولا إلهاما مفاجئا، لكنها معرفة مستبطنة و حدسية مثيرة للنشوة الإلهية ليس في علاقات الله مع خلقه، ولكن في ذات الله نفسه مخاطبا الروح الظمآ إليه (انظر الكلباذي) لكي تُعَاشَ انها تشترط التجربة (الممارسة) ونتائجها. في العقيدة الإسلامية إنها ترتكز على الوجود و الوحدانية و ليس على الذات التي هي في علم الغيب . الرسول نفسه لم يتجاوز الحدود﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (النجم14و15)، من وجود الله لا يعلم إلاّ الصفات التي أظهرها لنا تعالى بنفسه: العلم، القدرة، الخلود، الحرية، الرحمة، القوّة، إلخ... بالنسبة للصوفية إنّ القرب من سرّ الذات ممكن بفضل الزّهد وكثرة العبادة والتقوى والاتجاه الذي رسمه الله بفضله للروح كل ذلك يشجع استشفاف الروح من قبل الله، ذوبان وحدوي بل توحيدي، ذلك ما تفرضه النظرية التقليدية بحقّ ولأنّها تمّس في توحيد الله تعالى، ولأنها خلط مبتدع (بدعة) للطبيعة وما فوق الطبيعة الله سبب وجود الخلق لا يمكن أن يدركه العقل ولا حتى ذاته الجليلة. لا يمكن معرفته إلاّ في إطار ما أظهره القرآن. وحدة الذات زيغ محقق، زيغ خطير في الحقيقة إسلاميا، مبالغ فيه من طرف الإدعاء الصوفي الغريب مثل محيي الدين ابن العربي (المتوفى سنة 638هـ 1240 م) الذي سنتشغل به خلال دراساتنا بمناسبة الدفاع عن الإسلام الحقيقي الذي شاءت الصدف أن يصبح على عاتقنا أن نضمن وجوده واستمراره في أوربا.

إن هذا الصوفي المزعوم "ابن العربي" جعل خصوم الإسلام الظاهرين أو المتخفيين يهتمون به كثيرا في أوربا ومع الأسف حتى في الشرق الأدنى، بسبب ميولاته الأفلاطونية وتأكيداته الغنونيسية gnostiques (أي أصحاب المذهب الفلسفي الذين يزعمون معرفة الله على النحو الكامل) ومحاولات توفيقه بين المتناقضات السوقية للأديان.

بدون أن نتحول عن موضوعنا الرئيسي، نرى من النافع في صالح كل مسلم مؤمن، أن نلخص بكل إيجاز أتعابه الكبيرة في تأليف كتاباته(تكلفاته) المُتَمَحْوِرَة حول "الألغاز" التي حسب أفلاطون تكون مصدر "أفكار خالصة" وإذن : الألوهية الكونية المطلقة .

علماء الدين المسيحيون اشتقوا الفعل من "الله"، هذا الفعل الذي يُتَعَرَّفُ عليه بالمسيح عيسى الشخصية الثانية للأقانيم الثلاثة .ابن العربي جعل منه "وحدة الإنسان" المنظورة من زاوية "الانسان الكامل". هذا اللغز " الكلمة " بالنسبة إليه هي حقيقة الحقائق، هي الخالق الأساسي الأوّلي و العقلي للكون. إنه لا يتجزّأ لكنه يتكاثر(وهو يقوم بعملية الخلق!). إنه مصدر الكلّ خاصة "للأفكار البَيِّـنَة". الوعي (أو الإدراك)الذي هو لله في نفسه و تحبيذه لمعرفة نفسه يظهر ان في " الانسان الكامل " المرآة التي تعكس كماليات الله .

من هذه النظرية غيرالمتناسقة (المتفككة) و التي يعتبر فيها كل رسول على أنه "الكلمة" من الدرجة الثانية، وأن محمدّا هو "الكلمة العليا" نستنتج فهما مناقضا للتعاليم القرآنية وهو عدم عظمة الله .

في هذه الحالة فإنّ الله لا يكون خارجا عن الخلق، لكنّ الخلق (مصدر) هو إيضاح له، فيختلط به. لا يبقى تميّز ولا تبايُن فيها لكن تبقى وحدة الوجود. وهذا يعتبر في الاسلام ضلالا، الضلال المبين الذي لم يتوان الكُتَّاب المستقيمون والموافقون للذين أن ينكروا عليه ويتهموه ومنهم ابن ميّة وابن جمعة وابن عبد الباقي (انظر المقرّي:نفح الطيب)، والسبكي وابن خلدون الذي يرى في "وحدة وجوده هذه" جُنونا مفرطا(انظر شعاع السائل).

المستغلون لإنحرافه في الإسلام يتكلفون في التنقيب في أسس العقيدة القرآنية بذكره "كمثال" ولا يتردّدون في إيجاد أتباع له من بين الشخصيات البارزة في الإسلام المعاصر. وبهذا نجد المستشرق ذا الأصل البولندي والجنسية الفرنسية شودوكيفيز Chodkiewiez يريد أن يلمّح في منشوراته أن الأمير الجزائري عبد القادر واحد من أتباع ومدافعي ابن العربي وفلسفته في "وحدة الوجود".

وللرجوع إلى نفس غرض هذه النقطة نضيف أن الله يحبّ من يحبّه. ويمكنه أن يستجيب لحب الصوفية ويعرّف نفسه لهم بالإلهام والنداء.

حقا كما قال الإمام الغزالي الشهير: "إذا كانت طريقة المعرفة تتغيّر فإن هذا التغيّر لا يؤثر في موضوع المعرفة "(من كتاب الإحياء م 3– ص 17.16 المنقذ من الضلال ص94.93).

وهذا لا يمنع من أن المشكل يبقى مطروحا، عندما يقول سيدي الشيخ (في البيت 25):"ومنذ عرفت الحق ..." يعني بذلك معرفة صفة الله "الله الحق المبين" ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور25) . لكن من يقول صفة يقول نوعية أو ميزة وجودية،لا كشفًا للسرّ الجوهري. أظن أنّ مَفْهُومًا مُهِّمًا كالمعرفة، لم يلمّ فلاسفتنا وباحثوا العقائد التقليديون به إلماما دقيقا لتنقيته من الإستعارات التي تغشّي معطياته الحقيقية، كما وضعتها الفلسفة الأوربية العصرية التي أبرزت المعرفة وقيمة المعرفة. ما المعرفة ؟ ما اليقين الذي تمنحه المعرفة ؟

فكرة الحقيقة لا تتآلف مع القيمة نفسها للمعرفة، ومعرفة الله تسجل فقط، في الإطار العام للمعرفة: تعرف يعني تميّز بين الأشياء، تفهمها وتلج في حقيقتها. ما قيمة هذه المعرفة وإلى أي مدى تبلغ المعرفة الحقيقة ؟ الجواب عن هذا السؤال ليس بسيطا .

بالنسبة لفلاسفتنا وعلماء الألوهيات (علم اللاهوت) فإن مفهوم الحقيقة يرتكز على قوانين المنطق. بينما المنطق في هذا المضمار يبقى غير كاف لأن علوما أخرى، مثل علم الاجتماع وعلم الأحياء وخاصة علم النفس، تنير لنا أكثر مكوّنات وقوانين المعرفة، بالأخصّ في ميدان التأمّل وفي طبيعة العقل البشري، بتحقظ إن مشكل المعرفة يختلف بطبيعته عن المشاكل النفسية، كونه قبل كل شيء مشكل قيمة إذن فهو فلسفي .إضافة إلى ذلك فهو مختلف وأكثر تعميما من مشاكل المنطق التي تعمل على إبراز شروط صلاحية مختلف الأمور العلمية، لاعلى البحث عن الحقيقة و لا على تعريفها.

-26- وَمَهْمَا نَظَرْتُ كَائِنًا مَا بُعَيْدَما عَرَفْتُهُ (45) لَمْ أَعِرْهُ مِنِّي بِلَمْحَةِ (رواية:نُعِرْهُ)

-27- رَقَيْتُ فَمَا الَّذِي يَفُوقُ مَقَامَنَا[60] سِوَى السَّلَفِ الأَخْيَارِ أَهْلِ الوِلاَيَةِ

-28- كَذَا صَحْبُ خَيْرِ الخَلْقِ[61] فَازُوا بِرُتْبَةٍ تَقَاعَسَ عَنْهَا الْغَيْرُ مِنْ دُونِ مِرْيَةِ

-29- وَعَايَنْتُ [62]مَا لَوْ عَايَنَ الْغَيْرُ جُزْأَهُ لَغَابَ [63]وطَاشَ مَا لَهُ مِنْ قَرِيحَةِ[64]

-30- وَحَمَّلْتُ نَفْسِي [65]مَا لَوْ مِعْشَارُهُ عَلَى عِنَانِ الجِبَالِ الرَّاسِيَةِ لَدُكَّتِ [66]

كما أن فكرة الحقيقة نفسها غير ثابتة، تتغير بتغير التطوّر العلمي أي بِنُمُوّ وتَطَوُّر المستوعبات البشرية. قبل الوصول إلى مرحلة الفكرة الإيجابية، لابد من أن المعرفة قد مرّت بالنظري ومذهب الشك والعقلي(ناكر الوحي)، والإنجلاء بعد نظريات تذّكر المبهم(أفلاطون) والجليّ الواضح الخالص (أرسطو)، و التمذهب وعظمة التوحيد ...إلخ

بينما نعلم الآن بفضل العلم الإيجابي أنّ العقل تبعا لطبيعته وطرق استقصائه ليس له قدرة خاصّة معصومة، قادرة على أن توصلنا إلى المطلق. بمعنى واحد إن الصوفية لهم الحق في أن يجعلوا الفهم و الإدراك يتفوّق على العقل الذي يعتبر بالنسبة إليهم جهدا داخليا لتنظيم الفكر تبعا للمتطلبات الحيوية و الإجتماعية، وللحكم أي وضع علاقة بين المفكّر وبين الشيء المفكر فيه بين السعة و المدّة . كما يرون أنّ من السذاجة أن نفكر في مكان وزمان شيءٍ مطلق لامكان ولازمان له. هذا يعني وضع شروط اللامشروط ووضع حدود للامحدود، أي وضع كل شيء تحت مقاييس العقل، قابل للنقاش. حقا أن العلم الإيجابي يبرهن أن العقل نفسه قادر علىالتوصل إلى نوع من الحقيقة وأن المعرفة البشرية ممكنة وحقيقية. الصوفية لا ينكرون هذه الإمكانية. المعرفة الموضوعية بالنسبة إليهم، حقيقية، لكنّها مرتبطة بالتكوين العقلي البشري، سواء فيما يتعلق بطبعه أم بطرق تفكيره ولو كان طبعه ومنطقه مختلفين، والعلم شيئ آخر على الإطلاق. إن حمل فكرنا إلى معرفة الحقيقة الموضوعية يجعل حقا التجربة ممكنة مع أننا لا نعرف الأشياء إلاّ حسب مظاهرها كظواهر، وليس في حد ذاتها أبدا، كما في الإصطلاح الكانطي. إضافة إلى ذلك يبقى سؤال مطروحا: فوق أو خارج معرفتنا العلمية ألا توجد معرفة من نظام آخر ؟ مثل هذه الشروط تظهر جيدا أن معرفتنا "ملطّخة " بالأمور النسبية(العلاقة النسبية). أما المطلق فيبقى بالنسبة إليها نظرية مجرّدة فقط أو أماني بعيدة .إنها تخشى حقيقتها، كل حقيقتها.

إذا كان المطلق ممكن المنال فإنه يقتضي طرقا أخرى، ولكي نتوصّل إلى معرفة الله فلا بد من طرق مميّزة و تجارب معاشة. مفهوم الحقيقة لا يمكن تعريفه من الناحية الفكرية وبدون تدخّل الوسائل الحيوية (البيولوجية) و النفسية–الجسدية .

عند تعميم الفكرة، لابد حسبهم، من استبدال مفهوم التفرّد بالمعرفة. المعرفة هي الولوج وإظهار الهوية للشيء المراد معرفته، ولمعرفة الله لابد من تحقيق الذوبان فيه. في حين أنه للوصول إلى معرفة الكمال لابد من أن تكون كاملا في ذاتك. حيث من الضروري الكمال للتوصل إلى معرفة الله، إذن لابد من برنامج كامل متدرّج لبلوغ مثل هذا الهدف .

[60] - لاحظ المفسرون – وهم محقون – أن هذا النوع من الفخر خاص بحالة السّكر: (جرى على لسانه في سكره وغيبته). نلاحظ أيضا أن القرآن يحث على إظهار نعمته التي أنعمها على عبده: ﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾ (الضحى11).

[61] –عبارة مجازية نعني بها رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم). نعرف أن من بين صحابته، عشرة بشرّهم – بفمه الشريف – بالجنّة. وهم: أبوبكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوّام، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد، أبو عبيدة عامر بن الجراح.

صحابة آخرون عُرِفُوا بوفائهم للإسلام وللرسول رغم الإضطهاد: وبأعمالهم الجليلة أثناء غزوات الرسول لنصرة دين الله، وبمعرفتهم لكتاب الله المقدّس. أشهرهم: عبد الله بن مسعود، أبو موسى الأشعري، معاذ بن جبل، أبوذر الغفاري، أبيّ بن كعب، أبوالدرداء، بلال بن رباح، زيد بن ثابت ..(انظر إلى المؤلفات من الأمهات مثل طبقات ابن سعد – طبعة بيروت 1380 هـ /1960 م في المجلدات الثلاثة الأولى – وكتاب ابن حجر العسقلاني: الإصابة في أخبار الصحابة، طبعة القاهرة 1358 هـ /1939– 4 مجلدات، وكتاب ابن عبد البر القرطبي: الإستيعاب في أسماء الأصحاب طبعة القاهرة 1358هـ / 1939م –4 مجلدات – وكتاب إموح الطنطاوي: العشرة المبشرون – طبعة القاهرة 1396 هـ / 1976 م المجلد 1.

[62] - عاين : النظر بالعين، لا يجب خلطه بالفعل "رأى" الأمر يتعلق بمعطيات العين و ليس البصيرة (الداخلية)، كما يجب ملاحظة أن عين المصطفَيْنَ من بين الأولياء ينظرون إلى ما يفلت عن النظر العادي للمخلوقات الأخرى. الولي ينظر إلى ما وراء الزمان والمكان فهو إذن مطّلع على "السرّ ".

[63] – غاب وفي قراءة أخرى :ذاب

[64] – أهلية وموهبة ...

التشدّد في حفظ السرّ

-31- وَلَوْلاَ فُشُوُّ السِّرِّ[67] كُفْرٌ بِعَيْنِهِ لَبُحْتُ به ولَكِنْ أَوْلَى التَّصَمُّتِ (تصمّتي)

-32- وَلَكِنَّنِي أُغْضِي[68] حَيَاءً وَأَقْتَفِي سَبِيلَ ذَوِي النُّهَى[69] فِي صَوْنِ السَّرِيرَةِ

-33- سَلَكْتُ طَرِيقًا لَمْ يَطَأْهَا خِلاَفُنَا وَلَمْ يَسْلُكْهَا غَيْرُنَا مِنْ خَلِيقَةِ

-34- سِوَى سَلَفٌ لَنَا قَفَوْنَا آثارَهُمْ وَهُمْ قُدْوَتِي مِنَ الشُّيُوخِ الأَجِلَّةِ[70] (وفي رواية قُدْوَةٌ)

-35- وَلَوْ شِئْتُ قَوْلَ "كُنْ"[71] لَكَانَ الَّذِي أَنَا أَقُولُ وَيَجْرِي الأَمْرُ وِفْقَ الإِرَادَةِ[72]

---

65 – أي التجارب التي خاضها ليبلغ الدرجة التي يتكلم عنها : التقوى، السهر (القيام)، الصلاة الدائمة، الصوم، الخلوة، التأمل، محاربة اليأس والوساوس الشيطانية (انظر الأبيات103-114)

66 – تغوص في الأرض، تحطّم، تصبح مستوية مع الأرض، هذا المجاز: تحطم الجبال تحت الثقل العظيم موجود في القرآن في عدّة مواضع: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر21). وهي عبارات معهودة عند الصوفية.

67 - فشوّ السرّ هو عند الصوفية تعطيل للقواعد الصوفية. والذين انكبّوا على قضية الحلاّج الذي خرق هذه القاعدة، عابوا عليه ذلك. بجب أن نذكر أنه حتى خارج المقاييس التعبدّية هناك طقوس مثل سور وآيات يجب أن تقرأ بصوت منخفض. إذن ليس هناك أية بدعة لأنه بصفة عامة يجب أن ننظر إلى السر في مختلف الميادين وفي مختلف الظروف في الحياة الدنيا، يوجد سرّ الدولة، وسر الطب وسر المهنة وسرّ الكيمياويين عن الحجر الكريم، وسر الأعداد، كما أنه توجد فلسفة سرّية لا تفشى إلاّ بالمشاركة. كان فيثاغور يقول (توفى سنة 470 قبل الميلاد): "العلم بلا ضمير تحطيم للنفس " و بالرجوع إلى كتب الفلسفة حول مسألة السر عند الفيثاغوريين وعند أصحاب مدرسة التركيب الذري (الإلكترون)، حول (المدد التداولية) les intervalles، وذرات، والحركة، والعناصر الأربعة (الماء، التراب، الهواء، النار) فبالنسبة للصوفيين فإنّ السرّ هو المعارف التي تقودهم إليها تجاربهم وهو ما يُلْهِمُهُم الله إياه خلال المراحل التي يجتازونها في مسيرتهم نحوه تعالى.

سرّ الباطن هو في نفس الوقت أعمق ما في النفس، وهو لبّ الحقيقة، و الولوج في الغيب الذي يظهره الله له عن العالم. الدخول في السر الذي يتناسب مع المرحلة التي يقع فيها سلطان الله –المذكور– على روح الصوفي –الذاكر– ونفسه وقلبه.

إذا كان للروح والعقل مقرّ في الجسم، فإن للسر بدوره مقر في القلب بالضبط . في تسلسل الأفكار هذا نشير إلى التطورات التي أفردها ابن عطاء الله لهذه المفاهيم الدقيقة (كتاب مفتاح الفلاح)، كما نشير أيضا إلى التحليل الهام الذي نأخذه من الدراسة الرائعة التي قام بها الشيخ باش طرزي (كتاب المنح الربّانية – طبعة تونس 1351 هـ / ص 74 وما يتبعها، و ص 151 إلى174 إلخ ..) للمراحل الثلاثة للارتقاء: ذكر اللسان وذكر القلب وذكر السرّ؛ يضاف إليها ذكر سرّ السرّ، الذكر الخفي، ذكر الروح الكاملة بالنسبة لهذا السر. نسجل أن الامام الغزالي لم يتكلم عنه في الإحياء. فهو يركزّ خاصّة على ذكر جميع الأعضاء وخاصة القلب لكن وراء ذلك فإنه لا يعتبره دليلا يميّز أيّة مرحلة. كما نذكر أن هذا السر لا علاقة له بالغيب الذي يتفرد به الله وحده.

يرجع إلى هذا الموضوع في كتاب (فتوح الغيب) لأحد كبار أئمة الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني. خلاصة القول: إن فشوّ " السرّ الباطن " ممنوع (حرام) على الصوفي نظرا للأخطار التي قد يسببّها بين العوامّ، وبسبب ما يمكن أن تمليه بعض البواعث في كثير من الأحيان: مثل الشعوذة و المباهاة و التبجّح وسوء الخلق والطباع (ارجع إلى كتاب لطائف المنن لإبن عطاء الله). سنرجع إلى هذه المسألة في البيت 106من الياقوتة.

68 –أغضي : كما تنطق أقضي في التعبير الدارجي الصحراوي للغين (وأيضا الكويتي) . الفعل المجرّد من " غضّ " بنفس المعنى "أغضى" (أغمض العين، انحرف بها، التعفف عن شيء ما...) موجود في القرآن:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات3)، بمعنى التكلّم بصوت منخفض، وفي (سورة النور30)﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ أنْزلْ البصر إلى الأرض.

69 – ذَوِي النُّهَى : الرجال الذين يتصفون بحسن التفكير والبصر وهم أسلافه وشيوخه. ويسميهم سيدي الشيخ أيضا في الجلالة " أهل السلوك " وأيضا " فرسان الحضرة ".

70 - وهم كبار شيوخ الطريقة الشاذلية الذين يكوّنون "سلسلة الذهب" للطريقة، و الذين سيشار إليهم في الأبيات 127 وما بعدها.

71 - من القرآن ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس82] – هذا البيت يعبّر في ظاهره عن فكرة رهيبة، بالنظر إلى العقيدة والشريعة الإسلاميتين، لأنها في الظاهر تقدح في التوحيد وفي القدرة الإلهية، لأنه في الإسلام إن الله هو الآمر الحاكم ليس مثل الديانات الأخرى التي يعتبرون الله فيها كمهندس. لم "يَبْنِ العَالَم" كما هو في "الإنجيل" بالطريقة البشرية لكنه أمَرَ بكون الكون، فكان!

36- وَلَكِنَّ جِلْبَابَ[73] الْحَيَا وَالتَّأَدُّبِ مَعَ اللهِ يَحْجُبَانِ تِلْكَ الْمَقَالَةِ

37- وَرِدْتُ بُحُورَ الْحُبِّ فَازْدَادَ صَحْوُهَا فَغِبْتُ فَزَادَ الْغَيْبُ[74] صَفْوًا لِحَضْرَة[75]

38- فَلَمَّا عَرَفْتُ وَصْفِي[76] وَامْتَازَ وَصْفُهُ وَأَجْلَسَنِي بِبَابِ صِدْقِ الْعُبُودَة[77]

في حين أن الذكر الذي به يمكن لأي مخلوق أن يقول لأي شيء " كن، لكي يكون، يثير قضية الشرك بمشكله العنيف دون أي تأويل والشرك في الإسلام يصنف ضمن الكبائر (بل هو أكبرها). لكن معاذ الله أن يرتكب واحد من الأقطاب المشعة مثل سيدي الشيخ خطأ كهذا، بينما حياته ومذهبه وعلمه موافق تماما لتعاليم القرآن والحديث. إنها عبارة، مثل كثير من العبارات الصوفية، تثير وتجعل بعض الشراح والفقهاء ينحرفون. إنها تشبه في معناها الظاهري قولة الحلاج " أنا الله ".
هذه وتلك يجب أن تفهما كدلائل للخطّين الكبيرين لتجارب الصوفية في باطن الوحدة الإلهية.
من جهة وحدة الشهود التي بها يؤكّد الله حضوره وسرّه في قلب الصوفي في وحدانيته وعظمته وإرادته.
في هذه الحالة يكون الصوفي غير مالك لذاته. حبّه يجمعه بالله إلى حدّ الذوبان الكلّي فيه والتلاشي. يستقر في قلبه إذن حوار بينه (الذاكر) وبين هدف حبه (المذكور). حوار يبلغ إلى درجة ابتلاع إرادته واستغراقها بإرادة الله. إنه يحيى ويتلقى ويتحرك بإرادة الله فقط فيصير بذلك أداة تتحرك من قبل الله.
ومن ذلك فإن عبارة "كن" هي أمر الله نفسه الدّي عبر به الصوفي في حالة ثانوية. يجب أن يفهم البيت بهذا المعنى.
وامتزاج إرادة سيدي الشيخ في إرادة الله عبّر عنها في بيت سابق (19).
على ضوء تجارب بعض الصوفية، توصلوا إلى إدراك خلق، هو بتنوّعه وإجماعه، إنعكاس لوجود الله. يقولون أن الشيء المحدث لا يوجد إلا في ظاهره وينتهي بالفناء في الله الذي له وحده البقاء، بوحدة الشهود ندرك وحدة الوجود. الطريقة الشاذلية رفضت هذه الشطحات وركزت على فسخ الذات (أو نكران الذات) أو إبطالها متأمّلة والتي هي بعد التحليل هجر تام للمريد الواثق من نفسه في إرادة الله (أي التوكّل).
هذا التوكل الذي لا ينفي علاقة المحبة (الإتصال) حفَظ سيدي الشيخ من كل ادّعاء " الإتحاد " أو وحدة الطبيعة أو فكرة الحلول".وفي سياق الأفكار فإن هناك حديثا يعلمنا ما جاء في صحيح البخاري:حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ كَرَامَةَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ "
بهذا يبلغ العبد مرتبة " الخِلّة " (من خليل) على غرار سيدنا إبراهيم عليه السلام.
يصبح الولي، الأداة والعضو الذي يعبّر به الله عن أوامره. هذا التوكيل الرمزي من المخلوق للخالق هو له شكل مشابه في القرآن حيث قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء80].
لقد أكدت على هذه النقطة حتى لا نتّهم سيدي الشيخ بالشرك جهلا.

[72]– ((رأي حول هذه النقطة في البيتين (ولو شئت قلت كن... ومن يستغث بنا ....)
مجرّد رأي قابل للنقاش:(لو سمح لي القارئ مع احتراماتي لجميع ما قاله شيخنا بوبكر حمزة في شرح هذا البيت، وللخروج من هذا الجدال الذي قد يضيق به المؤمن دون الوصول الى القناعة المريحة عند التأويلات في شرحه، وفي إطار إبداء الرأي، مجرّد رأي:
ـــ نعلم انه كان لسيدي الشيخ أعداء ألدّاء وخاصة ممن كانوا مقرّبين منه.
ـــ ونعلم أيضا ان المخطوطات التي وصلت الينا لنظم الياقوتة تختلف كثيرا في بعض ألفاظها من مخطوط الى آخر زيادة أو نقصانا أو حتى استبدالا لكلمة مكان كلمة أخرى، وهذا لا ينكره أحد، وقد بيّن لنا شيخنا بوبكر حمزة في أول هذا المصنف وفي شرح الياقوتة الحالي هذا النوع من الهفوات الموجودة.
ـــ ونعلم أيضا أن الياقوتة ليست معصومة من أن يحاول أعداء سيدي الشيخ وأعداء الطريقة الشيخية أن يحرفوا فيها لكي يجدوا منافذ لقدحها ورميها بما ليس فيها.
ـــ كما نعلم أن المنصرين اهتموا كثيرا بقصيدة الياقوتة هذه سواء منهم المتقدمين أو المتأخرين (أمثال: لويس ماسينيون وشارل دو فوكو وميلاد عيسى). فهل نبرئهم من أنهم أدخلوا سموما في المجتمعات الإسلامية التي احتكوا بها وقد كانت لهم نشاطات جسيمة في افساح المكان للاستعمار ومده بأسرار الشعوب الإسلامية ومواطن ضعفها حتى يتسنى له الانقضاض عليها وقد فعل.
ـــ ألا يمكن ان نفترض أنّ البيت فيه تحريف عما قاله سيدي الشيخ أو حتى ربما زيادة هذا البيت وادخاله ضمن أبيات القصيدة.
أعلمُ ان هذا يحتاج الى بحث أكثر جدّية وأكثر عمقا حتى تتضح الأمور أكثر وتنغلق أفواه القادحين في الطريقة بسبب هذا البيت مثلا)).

[73] - جلباب: المستعمل هنا مجازا هو من أصل "فارسي" (!).

[74] - في مرحلة الزيادة تلتها مرحلة الحبّ بحُمَّاهُ واضطراباته التي تعلن عن بدء الحضور الإلهي في قلبه.

[75] - حضرة: حضور الله.

[76] - يتعلق الأمر هنا بالفرق بين المخلوق وغير المخلوق حتى نبعد أي شك في الوجود (انظر أعلاه)

[77] - عبودة :هذا اللفظ له معناه، ويستحق أن نضع تحته خطّا. فهي عبودة عارية عن طلب الجزاء (لا تبالي بذلك) بخلاف معنى "العبادة" التي هي مستوحاة من الرغبة في طلب الجزاء .

-39- بَذَلْتُ لَهُ نَفْسِي بِجِدٍّ وَقَالَ لِي رُوَيْدَكَ خُذْ مَقَامَ [78] عِزٍّ وَرِفْعَةِ

-40- فَفَاضَ عَلَيَّ جُودُهُ مُتَوَافِرًا وَمنَّ [79] وَوَلاَّنِي لِوَاءَ الْوِلاَيَةِ [80]

-41- وَمَا مِنْ مَقَامٍ شِئْتُ فِيهِ إِقَامَةً إِلاَّ وَهَوَاتِف [81] النِّدَا بِالحَقِيقَةِ [82]

-42- تُنَادِي هَلُمَّ فَاخْلَعِ النَّعْلَ [83] وَادْخُلَنْ لَكَ الْحُكْمُ [84] أَوْ بِكَ الْمَكَارِمُ حُفَّتِ

---

[78] – مقام جمعه مقامات متتالية رتبت حسب هذه الأبيات ترتيبا تصاعديا كالآتي : الخلة فالحب فالعبودة فالعزّ فالولاية .

يضيف المفسرون عند الكلام عن هذا الترتيب التصاعدي أن كل مقام يسجّل تقدّما في ولوج "الحقّ" في "العبد"، حقّ يترجم في كل جزء وكل عضو من جسمه. فيصير متمكنا من التأثير في الأشياء بعد إذن الله. والله : وهو السبب الأولي الجازم الأول و الآخر – لا يمنحه المشاركة ولكن الخلافة في إطار حكمته تعالى .إرادة تنفيذية وحرية نسبية وليست إرادة مهيمنة مسيطرة . منحة راجعة إلى حكم إلهي هي له بفضله تعالى وليست حقا .حقا أن الصوفي خاضع في جميع أحواله إلى السرّ. لكن قد يقع له وهو في "حالة ثانوية " يسبّبها " الحذب والوجد " أن يخرج سكره (يظهر...) كما هو مذكور في البيت 17 من الياقوتة . لكن حالة " الغيب والصّحو " تفسر " الخلافة " التي منحها الله اياه على سبيل الإمتياز. إمتياز موافق للقرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : 30] و ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : 69]و ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل62] و التي تسجّل في الإرادة الإلهية. أمَرَ القرآن أيضا أن نتحدّث عن نعمة الله التي منحها لنا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى11]. فالله يمنح فضله لمن شاء ويمنعه عمن يشاء بحكمته المطلقة وعلمه وقدرته ومشيئته. يرفض من يشاء ويقربّ إليه من يشاء. يمكنه أن يسند مهمة أو يكلف برسالة أيّا من مخلوقاته من الملائكة والرسل والأولياء، فإن من بين مخلوقاته العوام والخاصّة يوجد المقرّبون (ارجع إلى القرآن س 4 النساء آ 171﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء172] .﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة : 11] وفي سورة الشعراء على لسان فرعون يحفز السحرة ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء 42] وفي الأعراف ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف 114] إلخ ...

فرغم ارتقاء سيدي الشيخ في جذبه فإنه لم يفقد فضيلة خلقية يتميّز بها الدين الإسلامي وهي:الحياء، التي يؤكدها الحديث المعروف: كل دين اختصّ بشيء وهذا الدين اختصّ بالحياء": (قد يعني الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء»رواه ابن ماجة، والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.)

[79] - شك الراوي في قراءتها : من،منّي،منّ: واخترنا "منّ" معتبرين حرف الجرّ "عليّ" محذوفا.

[80] - الولاية: لفظ تقني اصطلاحي بمعنى معقد عند الصوفية، له أيضا معنى: الصداقة، القداسة، تكليف بمهمة الحكم (السلطة). وهو الرتبة الأولى في نظام الصوفية كما يوضحه بعيدا البيت 115 .قالوا في الذي بلغ درجة "ولي الله " (الصاحب) صار هو النموذج في الطريق الصوفي، ورمزا لمحبة الله التي تجعل الولي يتحول من حالة الى أخرى، هذا اللفظ كثير الاستعمال في القرآن (انظر س. 2 آ. 195-222 / س. 3 آ 76-146 / س 5 آ 42 إلخ ...) .

[81] - هواتف جمع هاتف، صوت أو صياح صادر من اللامرئي . الأمر واضح أنه استماع باطني . نضيف أن هذا اللفظ يعني بلغة العصر العربية "آلة التلفون" فكل ما يزعم أنه في اتصال مع من لايراه يسميه "هاتفا".

[82] - الحقيقة: لفظ مألوف عند الصوفيين يقابله " الظواهر " (أي عكسه). يعني الحقيقة المطلقة للأشياء بالنسبة للظواهر الخارجية، الحقيقة المجرّدة من كل ما يمكن أن يحجبها أو يشوّهها. هدف المعرفة هو الدخول إلى الحقيقة للوصول إلى مصدرها "حقيقة الحقائق" أي "الله" هي واحدة من معطيات الإلهام بالوحدانية الإلهية التي بسببها يسقط الحجاب (الرداء) الذي يغطي الخارج، تاركا الأشياء مرئية في حقيقتها الصحيحة بفضل النور الذي لا يخبو، الصادر من عند الله، فيضمن اليقين لكل معرفة. كما أنه يعطي الأمان للصوفي بفضل هذا النور وبفضل إدراكه لكي ينجو من الإفتتان أو الضلال عندما يصل إلى "المقام" فيفرّق بين الحقيقة المكشوفة (العارية) وبين التأويلات التي تعطيها الحواس .

[83] – اخلع النعل له معنى رمزي، التخلص من الحذاء هو التخلص من كل ما هو دنيء (أسفل)، فاني، غرور، الحياة الدنيا بما فيها من طعم ومغريات لا تتجاوز مستوى الحذاء عند إعطاء الأشياء قيمتها الحقيقية.

وبنفس الألفاظ أمر الله تعالى موسى في الوادي المقدس طوى أن يخلع نعله عندما أصبح في مقربة منه تعالى كما في القرآن في قصة سيدنا موسى عليه السلام:﴿إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك﴾(طه12).

[84] – الحكم :سلطة، تشريع، قانون، حدّ. الأمر يتعلّق هنا بمستوى ما فوق الطبيعة الذي خصّ الله به المقربّين إليه من بين أوليائه، قانون خاص ممنوح من الله لأوليائه وبفضله يتمتع بالوحدة والتوازن الباطنيين اللذين يؤمّنان

-43- حَوَيْتُ بِكُمْ وَكَمْ مَرَاتِبَ حُزْتُهَا وَلاَ أَنِسَتْ بِدُونِ غَيْرِهِ هِمَّةِ(وفي رواة بغيره)

-44- فَكَمْ آيَةٍ [85]رَأَيْتُهَا فِي ارْتِقَائِنَا وَلَمْ تُغْنِنِي عَنْ دُونِهِ كُلُّ آيَةِ

-45- حَفِظْتُ عُلُومًا [86] لم تَسَعْهَا سَمَاؤُهَا وَلَمْ يَبْلُغِ انْتِهَاهِا أَهْلُ الإِشَارَةِ[87]

-46- فَعَمَّتْ وخَصَّتْ فِي الأَنَامِ مَنَارُهَا وَفِي حَضْرَةِ الْكَمَالِ[88] هِيَ مُسْتَمِرَّةِ

متطلّبات طريق الصوفية المقدّمة لطالب الوظيفة

-47- سَرَى سَرَيَانًا سِرُّنَا [89]فِي السَّرَائِرِ [90] وَلَمْ يُدْرَكْنَ بِالأَفْهَامِ المعِدَّةِ [91]

استقراره و (ترشيحه) استحقاقه لعبادة الله حق عبادة وللتحرك حسب حكمته تعالى وإرادته: المعنى الحرفي، لك الحكم: أي أنت مرشح للحكم بصفة لا غبار عليها .

[85] – آية: رمز، أثر، جملة قرآنية، علامة... فهي شيء أو مشهد، تخمين، دلالة مستقبلية، شيء يُنْذِر ويكشف، عند التأمل فيه، عن شيء آخر. مشهد العالم في تعقيداته وخباياه يكشف عن وجود الله و عظم صنعته وقوّته في وحدانيته وعظمته. عند الصوفي لا يتعلق الأمر بالإظهار ولا بالدليل عن الإيمان لكن بحضور متواتر لله في نفس وقلب الوليّ. والقرآن يؤكد على التأمل في الآيات التي يعرضها مشهد الكون للتوصل إلى إكتشاف وجود الله في قدرته وعلمه المُطْلَقَيْن.

[86] – الأمر يتعلق هنا بالعلم المكسوب الذي أضيف إليه العلم الموهوب. هذان النوعان من العلوم يسمحان لبلوغ الدرجة الثالثة من المعرفة التي تتجاوز سماء العلم، فوق مستوى البشر العادي وحتى الصوفيين المتوسطين، إنها معرفة المقرّبين. القلب هو الذي يصلح لأن يتلقى مثل هذه العلوم. وفكرة أنّ القلب وعاء "عظيم" مأخوذة من القرآن حيث قال (ترجمة لما جاء في كتاب المؤلف لأني لم أعثر في القرآن على آية بهذا المعنى ولعلّه الحديث قدسي): «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» (أخرجه الديلمي في الفردوس عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وقد قدمنا بعض التوضيحات حول مفهوم العلم عند الصوفية في ترجمتنا للقرآن فَلْيُرْجَعْ إليها، كما يمكن الرجوع إلى إحياء علوم الدين للغزالي المجلد 3 ص11 إلى 17...هذا البيت له علاقة متينة مع البيت 13 السابق .

[87] - أهل الإشارة : لقب للصوفية أو لطبقة من الصوفية وهم المقربّون من المقرّبين. تستعمل كثيرا للدراويش. وهم هنا الذين يفهمون أمورا بالاشارات و الرموز التي يرونها أو يسمعونها.

[88] - في رواية: كَمَالِهِ؛ و في رواية أخرى :وَفِي حَضْرَةِ القَهَّارِ جَلَّ اسْتُمِدَّتِ .
حضرة: كلمة مستعملة كثيرا عند الصوفية بمعنى الحضور الإلهي عبر الأشياء في القلب بالسمع (حضرة الحسّ) إلخ. ومعنى البيت : "هذه العلوم حفظت فيّ بصفة تامّة" كما يجدر أن نذكر أنّ حضرة تعنى أيضا عند الصوفية الإجتماع في حصّة ذكر حول " المقدّم " لتلاوة النظم الديني بعد صلاتي الصبح والمغرب وهي مذكورة في "الجلالة " لسيدي الشيخ في قوله " أهل السلوك ملوك فرسان في الحضرة " .

[89] – لهذا البيت قراءات متعدّدة: سَرَى سَرَيَانًا سِرُّنَا في السرائر/ سار سِرُّنَا سِرًّا في السرائر، سرى سريانا: يعني السفر ليلا، والسير الخفيّ (الدم) ويعني الولوج في الأعماق (التجذّر) . أهم كلمة هنا: السر والسرائر جمع سريرة وسَرِيَّة: فكرة أو عمل خفي .

[90] – إننا نتبع في شرحنا المعنى الذي ذكره المفسّرون لهذا البيت. الأنا الباطني لسيدي الشيخ ولج في أسرار لا يستطيع العقل البشري أن يدخلها (حسب البيت)، ولوج بالقلب كما يوضح الشراح، ويضيفون أن المكونات الأساسية للكائن البشري هي:
أ– النفس النامية (الزاكية) التي تتحكم في الأحاسيس والحركات والميولات.
ب– العقل : الفكر في شكله النظري و الجدلي.
ج– الروح: وهو ما أختص به الله عز وجلّ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً} [الإسراء 85].
إنها جوهر الإنسان: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ38] ، {تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} [القدر4] إلخ). ولوزدنا لها صفة "الأمين" فإنها تعني جبريل (الروح الأمين)، تعني أيضا الروح المقدس؟ {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} [السجدة9]) {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} [التحريم12]).
د– القلب: لقد توسعتُ في شرح هذه الكلمة في اللغات السامية في كتابي ترجمة القرآن تفسيره {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم11] في ملاحظة). إنه (عند السامية المشتركة) مقرّ القدرات العالية للإنسان خاصة الأحاسيس والفكر. إنه عند الإنسان مدرك أحاسيس المعرفة، مباشرة، حالا، بالحدس، بالإلهام عند الصوفية، استعداد القبض على مالا يستطعه العقل. هذا الاستعداد الذي يكشف عن السرّ هو نفسه تفضيل ممنوح من طرف الله. إنه عضو جسدي شهواني في نظر الصوفية، نعم، لكنه أيضا وخاصّة مبدأ دقيق فكري حيث يسكن الإنسان في حقيقته العميقة (انظر

-48- فَلَيْسَ سِوَانا بَعْدَنَا بِمُعَبِّرٍ [92] عَنِ الْحَضْرَةِ الْعُلْيَا بِأَحْلَى عِبَارَةِ

-49- بِعِزَّتِهِ أَقْسَمْتُ ثُمَّ جَلاَلِهِ لَمَا طَابَ وَقْتُ القَوْمِ[93] إلاّ بِبَيْعَةِ [94]

الغزالي المجلد 3 ص 34). القرآن يجعل منه مقر الإيمان، و الرؤية الباطنية لله. هو مصدر السلام أو القلق كما أنه علامة للعمى الفكرية {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [البقرة97] {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد28] {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج46].

الحديث يعدّد أنواعا : القلب الأغلف هو قلب الملحد، والقلب الأجرد هو قلب المؤمن حيث يشعّ سراج الإيمان نوره، القلب المصفّح هو القلب المضطرب بالشكّ، القلب المنكوس (المقلوب رأسا على عقب)، هو قلب المنافق {عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الدَّمُ وَالْقَيْحُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ}(انظر مسند الامام احمد المجلد3ص17)

[91] - مستعدة، مهيّئة و المعنى أن قفزة الروح ليلا نحو الله واستحقاقها يكشفان سرّا لا يمكن فهمه بالعقل.

[92] - في هذا البيت كما في أبيات أخرى قبله أو بعده نجد الحماسة النشْوية للصوفي الذي يحمله سكر الحبّ المتسامي والتقوى المستكثرة إلى المبالغة. من هذه الزاوية نفهم الإسراف في التعبير الرمزي للورع المُطمْئن الذي ذكرته مثل هذه الأبيات التي ذكرت فيها المبالغة في المدح (أوالفخر) عن قصد. المدح (أو الفخر) المُغَالِ فيه كما هو، فإن اللغة العربية بدقتها وضبطها النحوي و الصرفي، لم تحترم في هذه القصيدة بأهمّيتها وبلاغتها،هذا حتى وإن أخذنا بالإعتبار الضرورة الشعرية. نلفت الإنتباه أن الأخطاء المرتكبة التي نستخرجها من النص المخطوط أو المطبوع و التي تشوّه معنى الكلمات وشكلها لا يجب إرجاعها إلى الناظم (سيدي الشيخ). بهذا يليق تصحيح كلمة "على" في الشطر الثاني بكلمة "عن".

[93] - القوم الصوفيون كما سبق ذكره.

[94] بيعة : للإعتراف به "كقطب" صوفي مؤسس لطريقة روحانية. ابتداء من هذه الأبيات حتى البيت 93، يُظْهِرُ سيدي الشيخ جهودَه وتجاربَه و المدارج التي مرّ بها، ونجاحه في طريق الصوفية، كما يُظْهِر مُؤَهِّلاته وقيمة الطريقة التي أنشأها. ويرسل نداء صريحا لمعاصريه لكي يَنْضَمُّوا إليها جماعات. إنه يفضح خصومه، ويردّ على المُشنِّعين، ويَسْخَط على أهل البهتان (مثل أبومحلي). لايفرق بين من يرمونه بالبدعة سواء جهلا أو قصدا، ويثبت بالبرهان معرفته التامة بالشريعة الدينية في الطريقة التي رسمها. لا أحد يستطيع في هذه المقطوعة من القصيدة أن يجد الترويج المفرط لصالح طريقته على أنها غير متلائمة مع القواعد العامة للصوفية. إنّ ذلك يعدّ من الجهل أو الطبع الحاقد في الميدان الديني، في قرنه، قرن المعركة وعدم الاستقرار السياسي والمزايدة الدينية. لقد ركّزت في المقدمة التاريخية سابقا على الأخطار التي كانت

تهدد الإسلام بشمال إفريقيا في القرن 10 م/ 16هــ من جرّاء انحلال سياسي لا سابق له وتعدّد الطرق (الأخويات) التي كانت تتكاثر من هنا وهناك في المغرب العربي.فنشأ من ذلك تشويه للصوفية فعقيلة المنافسة بين ممثلي مختلف تشعّبات القادرية و الشاذلية دون أن نعدّ الجماعات الخفية التي كانت تَنْبُعُ من هنا وهناك لمجرد نداء أصحاب المعجزات من كل نوع و المفترين..

نحن في بداية انحراف للصوفية وميلاد ظاهرة زيارة الأضرحة التي حلت محلها، وتتابعت بطريقة فظّة : "مزارات أضرحة الأولياء" (maraboutisme). الغرب الإسلامي كان مسرحا –أكثر من المشرق– للمزايدات الجامحة التي كان يدعمها المتهوّرون الدينيون الذين يتنازعون انضمام الجماهير الشعبية الجاهلة و المتطرفين المندفعين إلى "طرقهم" المزعومة .

كان الشمال الإفريقي لتلك الفترة وللقرون الثلاثة الموالية، كما كانت الأشعار الشعبية (المَلْحُون) صدى يعكس الشعوذة التي خاضها "تجّارالبركة". بعض أتباعهم لايتردّدون في جعل "وليّهم"(بل شيطانهم) في مرتبة أعلى من الله ! معتبرين إياه أقرب إليهم وأقوى وأسرع منه (تعالى) في حل مشاكلهم اليومية . مثل هذا الضلال و الشذوذ الذي استمر إلى يومنا هذا رغم التذكير الملحّ والغليظ من طرف علماء الدين، يظهر إلى أي حدّ وصل الإنحطاط في هذه البقعة من العالم لدى الصوفية غير المفهومة فهما صحيحا. عبادة الله استبدلت بعبادة "الوليّ" أو أصبحت موازية لها، في صورة أخرى لعبادة الاصنام كما في الجاهلية زادها خطورة مزجها بالمعتقدات المتوسّطية. أهل التطور يقولون أن " الوظيفة تخلق العضو ". الجهل و الفوضى شجّعا وأطّرا الخرافات. ديانة وثنية بأكملها وتعقيداتها مرتكزة على أسس سحرية ومحورها بعض المعتقدات المتعلقة بالأشجار وعيون الماء و الأودية و المغارات وبعض الحيوانات و الدم و الشياطين والظلام و الزوايا والزوابع والديارالمهجورة والأطلال، كل ذلك جعل الجماهير الشعبية تنحرف عن عبادة الله ووحدانيته وعظمته وتمجيده.

غضب سيدي الشيخ على هذا الإنزلاق للإسلام نحو الوثنية الفظّة ففضح المسؤولين عن ذلك الانحراف الذين هم ليسوا إلاّ مدّعين أنهم مؤسّسون لطرق صوفية وناداهم للإنضمام إلى طريقته الروحانية التي يثبت صحتها واتباعها

-50- فَأَيُّ وُصُولٍ كَانَ مِنْ غَيْرِ بَابِنَا   وَأَيُّ دُخُولٍ مِنْهُ دُونَ إِشَارَةِ [95]

-51- ومن يستغث بنا[96] اضطرارا لغوثنا   يغاث ولو بقعر بحر وظلمة

للسنة الصحيحة، وقيمتها الروحية. وضّح الهدف والشروط، معتمدا في إثباتاته أيضا على انحداره من الصِّدِّيق، أول صحابة الرسول وعلى متانة "سلسلة الذهب" في الطريقة الشاذلية.

على كل حال إن نداءه هذا يظهر الحالة الدينية المزرية المتميزّة بانتفاخ وتكاثر "مزارات أضرحة الأولياء" التي استغلها أناس. تكاثر راجع إلى اتجاهات القرن. ففي التاريخ الديني لشمال إفريقيا وأيضا أوربا و المشرق كان القرن 10هـ16 م قرن التصوف والروحانيات. أغلب الطرق (المذاهب) الروحية المسيحية يرجع تاريخها إلى القرن 11هـ 17 م: مثل: مذهب سان فرانسوا (المتوفى سنة 1552 م) ومذهب Les Jésuites الذي أسسه إنياس دولويولا (المتوفى سنة 1556م)، مذهب Visitation الذي أسسه القديس فرانسوا دوصال (المتوفى 1622م)، مذهب الأصاغرOrdre des Minimes الذي أسسه القديس فرانسوادوبول (المتوفى 1507م)، مذهب بنات الصدقة les Filles de la Charité الذي أسسه القديس فانسون دوبول (متوفى سنة 1660 م)، مذهب كارمليت les Carmélitesالمُسْتَصْلَح من طرف القديسة تِرَاز دافيلا Thérèse D'Avila (المتوفية سنة 1582 م) إلخ ... إنه قرن الفوضى و التغيرات والقرصنة والتسابق البحري واسترجاع واحياء روح الحروب الصليبية التي خلق إثرها المغامرون والمتلاعبون والمخادعون جوّ عدم الاستقرار وعدم الأمن المؤدّي إلى التقزّر والنفور من الدنيا والبحث اليائس عن الملجأ عند الله.

ويضاف إلى ذلك –ونكرّر– بالنسبة لشمال إفريقيا انتشار الصوفية الأندلسية المطرودة من قواعدها الإسبانية تحت دفع استرجاع الأندلس من طرف المسيحية ومحاكم التفتيش الحاقدة .

غياب الوحدة السياسية في شمال إفريقيا في بداية القرن نفسه، قبيل ظهور الأتراك في الجزائر و تونس دفع القبائل إلى التجمع لضمان الدفاع و المعارك ضد المسيحية الغازية، يتجمّعون حول "ولي" ماسك في أعينهم بالسلطة الخارقة والمنقولة من الأب إلى الإبن:"البركة". الماسك لمثل هذه السلطة لم يعد صوفيا يبحث عن ملاقاة الله في الورع و الصلاة و الزهد في الدنيا و الخلوة و الحب وإنما أصبح "وليا يزار"، وثنيا مخادعا مرتبطا بالتشريفات و متاع الدنيا أكثر منها بحياة العبادة والتقوى. فكان يعمل جاهدا عند تأسيس طريقته على تجميع أكبر عدد ممكن من الأتباع حوله.

لقد عمل سيدي الشيخ جاهدا على محاربة مثل هذه الخرافات و المخادعات و الشعوذة لكي ينزع عن النصوص القرآنية و السنة جميع الخرافات والطقوس الوثنية.

فتعرضّ طبعا لردود أفعال: حيث افْتَرَوْا عليه الأكاذيب و نَعَتُوه بالمبتدع. فهذه الأخوية (الطريقة) الناصرية التي كانت زاويتها موجودة بين آفلو وبوعلام حاربته بضراوة، ومثلها فَعَلَ قاضي معسكر. أحد المشعوذين سيدي عيسى تنازع معه حول مساحة نفوذه. توصلوا إلى اتفاق لمناطق كل منها كحدود: واد القصب (بين آفلو و الأغواط). لقي أيضا مشاكل مع أنصار وأتباع شيخه سيدي عبد الرحمن السهلي الذين كانوا يوشون به له حسدا لنجاح طريقته. حصل اتفاق بين الشيخ وتلميذه يلزم هذا الأخير أن يدفع مرتبا سنويا يتضمن خاصّة ناقة بيضاء وأَمَةً سوداء وزربية صوفية. كان بإمكاني أن أسكت عن هذه التفاهات لكن التاريخ له متطلباته التي بدونها يصبح عبارة عن هذيان واستطرادات جوفاء. في البيت الموالي كرّر النداء واعدا المريدين بتعليمهم وإشراكهم في السرّ وهديهم إلى نور الله إن أرادوا أن ينضموا تحت إمرته الروحية.

[95] - كل هذه الأبيات يجب أن تفهم على أساس تأثير السكر ونشوته والمعنى: لا توجد طريقة تعليمية كالتي يعرضها سيدي الشيخ ولا يوجد مدخل أضمن إلى الطريقة الصوفية منه. لفظ "إشارة" كما رأيناه من قبل له معنى مجازي. أما هنا فله معنى الإشارة والنصيحة والتعاليم المعطاة أثناء الحصّة التعليمية (الذكر)...

[96] - هنا المعنى مبهم (مشتبه)، هل هي استغاثة لحل المشاكل اليومية؟ مثل هذا هو من اختصاص الله وحده. الملائكة أنفسهم بل وحتى الأنبياء لا يجرؤون على ادعاء مثل هذا النفوذ أو مثل هذه المهمة. أظن أن في هذا الموضوع كثيرا من الشراح وقعوا في الأخطاء بما في البيت من إلتباس. في رأينا المتواضع الأمر يتعلق بتكوين طلاب الوظيفة: حتى وإن كانوا في جوف الليل – بصفة فكرية – أو هاموا في "عرض البحار" يمكنهم أن يقصدوا سيدي الشيخ لكي يعلّمهم ويوجههم إلى الطريق الصوفية ولكي يوصلهم إلى "الهدف" (انظر البيت السابق)أي نحو النور الإلهي. يؤكد أنه قادر بعد إذن الله ومشيئته على أن يهدي الضال الباحث عن "الشيخ " من عالم الظاهر إلى عالم الباطن .إن الرأي الذي يأخذه معنى هذا البيت بصفة حرفية على أن سيدي الشيخ يغيث كل من ينادونه ويستغيثون به في حالة الشدائد في مصالحهم الخاصة أو حالة الحوادث أو حالة الإعتداء إلخ ...قلت أن هذا الرأي أخذ به المريدون ذوو المستوى المتوسط بل حتى بعض الشراح مستندين إلى القرآن (س البقرة 2 آ254 آية الكرسي) التي قد يفهم منها أن (الحضور) والتوسط والشفاعة ممكنان باذن الله. الشيخ أبو الحسن الشاذلي مؤسس الشاذلية في "الحزب الكبير" يتوسّل إلى الله لكي يجعل من الصوفية سبب غنى مقربيه (انظر كتاب مفتاح الفلاح لابن عطاء الله في هامش "لطائف المنن" المجلد 2 ص 60) لاشيء في هذا الدعاء يسمح بالتأويل المادّي للفظ "غنى" الذي يعني باللغة العربية غنى المال كما يعني غنى النفس أي الإستغناء عن الناس أو عن الأشياء .

لهذا نميل في هذا البيت إلى المعنى المجازي بهذا التحفظ والعلم لله وحده (و الله أعلم !) .

-52- ومستنشد بإسمي لكشف مُلِمَّة سأدركه ولو ببعد المسافة[97] (في رواية ما مستنشد)

-53- فَيَا أَهْلَ عَصْرِنَا أَجِيبُوا دُعَاءَنَا فَإِنَّنَا نَدْعُو لِلْهُدَى عَنْ بَصِيرَةِ (في رواية فإنني أدعو)

-54- أُحَذِّرُكُمْ بِمَا النَّبِيُّ[98] قَدْ أَتَى بِهِ وَنُخْبِرُكُمْ بِمَا أَتَى مِنْ بِشَارَةِ[99]

-55- وَلَسْتُ بِمُدَّعِي الرِّسَالَةَ غَيْرَ مَا تَحَصَّلَ لِي مِنْ إِرْثِ عِلْمٍ وَحِكْمَةِ

-56- فيا عجباً لِعَاطِشٍ بِإِزَائِهِ بُحُورٌ مِيَاهُهَا شَرَابُ المَوَدَّةِ [100]

-57- فَدُونَكَ فَاشْرَبْ وَارْتَوِ مِنْ بُحُورِنَا فَلَهَا شِفَاءٌ مِنَ الأَهْوَاءِ المضِلَّةِ

-58- وَأَيُّ طَبِيبٍ لِلْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى أَطَبُّ مِنَ الذِّكْرِ الْقَوِيِّ الإِشَارَةِ

-59- وَأَيُّ مُعِدٍّ لِلذُّنُوبِ وَمَحْوِهَا أَشَدُّ مِنِ اسْمِ[101] ذِي الصِّفَاتِ الجَلِيلَةِ[102]

-60- وَمَا الحَجُّ وَالجِهَادُ[103] مِنْ غَيْرِ فَرْضِنَا بِأَفْضَلَ مِنْ ذِكْرِ الأَسْمَاءِ العَظِيمَةِ[104]

---

[97] - معنى هذا البيت مرتبط بالبيت السابق: كل طالب وظيفة وجد صعوبات عليه أن يرجع إلى تعليمي فإنّه سوف يهتدي به حتى وإن كان بعيدا عن الطريق المؤدّي إلى الله حتى وإن كان هائما في " ظلام الروح " قد لايفهم من لفظ " مستنشدا ... " النداء فقط بل يمكن أن نفهم الطلب من أحد أن ينشده الأبيات.

[98] – في رواية أخرى: أخذكم بما النبي محذّر.

[99] - لفظ بشارة يجعل البيت مُقْتَبَساً في مجمله من القرآن :{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء105] الذي يصف النبي (صلى الله عليه وسلم) بالبشير والنذير لعالم المستقبل "خير وأبقى" من عالم الدنيا : {وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى17]، {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى} [الضحى4]. يردّ سيدي الشيخ على الذين اتهموه بالبدعة أن طريقته مطابقة تماما للقرآن والسنة. كما يؤكد أن طريقته مُسْتَنِدَةً على سلسلة الشيوخ المشهورين في الطريق الشاذلي في البيت118).

[100] – في رواية "بحور وماؤها" (86 مكرر) معدّ من الإعداد التَّهَيُّؤ و التحضير، في القرآن: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة46] و {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة89] ...

[101] - اسم الله الأعظم المعروف فقط لدى العارفين. في الطريقة الشاذلية يتكلم الشيخ ابوا الحسن الشاذلي كثيرا عنه في "حزب النور" (انظر اللطائف لابن عطاء الله في الهامش ص 51): "ندعوك ياربّ بقدسية اسمك الأعظم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء " (ارجع إلى شرح البيت الأول) .

[102] – في رواية أخرى : " الصفات الحميدة " هي الصفات التي يصلح الدعاء بها، هي أحسن أسماء الله (انظر كتابنا : بحث عصري في العقيدة الاسلامية – فصل : الله).

[103] - الذكر في كل لحظة والصلوات المفروضة ... فالحج و الجهاد ليسا فرضا إلاّ للمستطيع جسديا وماديا (على من إستطاع) (ارجع إلى قوله تعالى: { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران97]، والآية {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} [البقرة286]).أما الشهدتان والزكاة والصلاة فهي جازمة الفرضية(في القطاع). {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الإنسان25]).
ونضيف في هذه النقطة أن سبب عدم الأمن في عصره – وهو من الموانع والمصارف– فلا يجب أنْ نَظُنَّ أَنَّ سيدي الشيخ ينفي فرضية الحج. المناقب لم تذكر ذلك.

[104] - التضرع إلى الله وذكر أسمائه الحسنى موجودة في القرآن: {ولله الأسماء الحسنى، فَادْعُوهُ بها} (الأعراف180)، {أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى}(الاسراء 110) {..لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى.. }(الحشر24) إلخ ...
إن مبدأ الصوفي يتمحور على التضرع والذكر وخاصّة الطريقة الشاذلية. إنها التكرار اللاّمتناهي لإسْمِ الله ولهذه أو تلك الصفات الجليلة المذكورة سرّا أو جهرا، بعدد محدّد من المرات حسب نظام إيقاعي له خط التلاقي بدقات القلب وسريان الدم والتنفس وحركة الجسم ممّا يجعل الصوفي سريع التلقي والاحساس بالحضور الإلهي في قلبه.
في مكان معتزل بعد الصلوات المفروضة وفي الأوقات مخصوصة، يجلس الصوفي الشاذلي واضعا كفيه على ركبتيه ويردّد بصوت مرتفع "لاإله إلا الله" وهو يحرك جسمه يمنة ويسرة، كما أشرنا من قبل، يمرّ بعدّة حالات وهو يترنّم. وينتهي به الأمر إلى أن لسانه يعجز عن الحركة، وتنتهي العبارة الإلهية بأن تذوب في قلبه ولا يبقى منها إلا معناها. عن هذه الممارسات يمكن الرجوع إلى عدّة كتب فيما يخص الطريقة الشاذلية (ابن عطاء الله في كتاب مفتاح ../ و الغزالى في كتاب الإحياء المجلد 3 ص17.16) .

-61- بَلِ الذِّكْرُ أَقْوَى ثُمَّ أَوْلَى لاَسِيَّمَا إِذَا اسْتَشْعَرَ الْقَلْبُ النُّعُوتَ الْحَمِيدَةِ[105]

-62- بِذَا صَدَعَ الْمُخْتَارُ[106] أَعْنِي نَبِيَّنَا وَصَحَّ بِالنَّقْلِ فِي الآثَارِ الصَّحِيحَةِ[107]

-63- وأيُّ سُلُوكٍ كَامِلٍ دُونَ صُحْبَةٍ[108] وأيُّ اهْتِدَاءٍ شَامِلٍ دُونَ مِنْحَةِ [109]

-64- وَأَيُّ طَرِيقٍ رَاشِدٍ غَيْرَ رُشْدِنَا وَأَيُّ اهْتِمَامِ الوَقْتِ[110] مِنْ غَيْرِ هِمَّةِ

-65- فَصَدِّقْ فَإِنَّ الصِّدْقَ[111] أَرْفَعُ رُتْبَةٍ لِمَنْ يَبْتَغِي وُصُولاً فَاحْفَظْ مَقَالَةِ(رواية الوصول)

-66- لَقَدْ شَهِدَ الْمَوْلَى بِأَنِّ نَصِيحُكُم وَأَنِّ عَلَى نُصْحٍ جَدِيرٌ بِخِبْرَةِ

-67- فَوَا أَسَفًا لِتَارِكِ [112] حَبْلِ عَهْدِنَا عَمِي وَصَمَّ[113] وَارْتَدَّ بِالْقَطِيعَةِ(رواية فَوَا أَسَفِي)

-68- وَيَا خَيْبَةَ الْمَشْغُولِ عَنَّا بِلَهْوِهِ وَأَضْحَى بَعِيدُنَا سَرِيعَ النَّدَامَةِ [114]

-69- وَيَا حَسْرَةَ الَّذِينَ آنَوْا بِبُعْدِنَا إِلَى أَنْ تَجَرَّعُوا كُؤُوسَ الْمَنِيَّةِ

-70- سَيَسْقُطُوا فِي أَيْدِي الْخَوَالِفِ[115] بَعْدَنَا لِمَا فَرَّطُوا فِي أَخْذِهِمْ لِلطَّرِيقَةِ

المؤلفون يلاحظون في ذكر الله ثلاث حالات متتالية (3 أغلفة) كما تعرضنا إلى ذلك سالفا: ذكر اللسان، ذكر القلب، ذكر السر. يمكن أن يكون ذكر القلب حسب الحالة دون جهد أو متعبا تبعا لتكيّف الفرد البطيء أو السريع إلى حالة التأمل المعاش .

"الغلاف الثالث " أو الحالة النهائية للذكر تجعل القلب مَرْكَزاً للحب الإلهي ورابطا بين تحقيق استكمال الذات و الجذب وبين الروح التي صارت تأمّلية ملأتها الحظوظ و التفضلات الإلهية من الداخل .

إنه في قدرة الصوفي أن يدفع بحماسته نحو الله حتى هذا الحد وأن يتمسك بذلك بعون الله. انظر بشطارزي كتاب المنح الربانية طبعة تونس 1351هـ ، ص 66 .

في هذه الأذكار المختلفة توجد مراقبة تسلطّ على التنفس، والحركة ومدّة الممارسة وعدد التكرارات للعبارة التي تتراوح من 99 إلى 70000 مرّة. لذلك يصبح استعمال "السبحة" مستوجبا حسب عدد حبّاتها المتغيّر (33 أو 99 أو 101 حبّة) (المرجع السابق).

[105] – أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

[106] - المختار هو واحد من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم.

[107] - من المألوف أن يُقَابَلَ العِلمُ المكتسب عن طريق النقل بالعلم المكتسب عن طريق العقل . الآثار التي يعنيها البيت هي الست الصحاح التقليدية وهي: صحيح البخاري(متوفي 266هـ 870 م)، صحيح مسلم (م 275هـ /875 م)، سنن أبي داود (م275هـ /888 م) النسائي (م303هـ915 م)، مسند أحمد ابن حنبل(م271هـ886 م)وشمائل الترمذي(م893/279). يضاف إلى هذه المراجع الست مصنف ابن ماجة(م886/273)، وموطأ الإمام مالك بن أنس(م 796/179). طبعا يوجد بحوث أخرى للأحاديث التي يجب الرجوع إليها، انظر بحثنا العصرى في العقيدة الإسلامية – فصل : الحديث) .

[108] - أميل إلى المعنى : صحبتي ومنحتي: من أراد أن يسلك أحسن الطرق فليصحبني، ومن أراد أن يهتدي أحسن هداية فهي التي أمنحه إياها.

[109] – المنحة: الأفضلية، الحظوة، النعجة الحلوب يعطي لأحد حقّ الإنتفاع بها خلال الربيع.

[110] - الوقت: وقت صلاة. يعلمنا الحديث: "الصلاة في وقتها خيرمن الدنيا وما فيها" وحسب المناقب فإنّ سيدي الشيخ كان أحيانا يؤخّر صلاة إلى وقت الصلاة الموالية. وهذا جائز في السنة. هذا التأخير كان يضطرّ إليه خلال المقابلات التي كان يجريها مع الناس، وكذلك نظرا لتعليم التوحيد الذي كان (بوزعة) يلقنه وكان هذا كافيا لنميمة الناس. فكان هذا البيت ردّا لأصحاب سوء الظنّ وفساد النية. وفي رواية أخرى: (طريق واضح).

[111] – الصدق: مبدأ أساسي للزهد وللتلقين. فطالِب الوظيفة الذي يشك في نفوذ شيخه وهدية وملقّنه يُضَيِّعُ وَقْتَهُ. بثقته فيه وبإخلاصه يحصل على الرتبة العالية عنده وعند الله.

[112] عبارة التأسف هذه تتبع بحرف الجر "على" وليس اللام المكسورة وهذا من تأثير اللغة العامية على الياقوتة.

[113] – أعمى وأصم اقتباس من القرآن (البقرة آ 18 و181 إلخ){صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يعقِلُون} يعني المريدين المعرضين عن مواصلة الطريق.

[114] - في رواية أخرى:"وعاد بعيدنا سريع الندامة" يتبع الفعل "بعد" بالحرف "عن" أو "من" لغة.

[115] – الخوالف جمع خالف أي ناقص العقل المتخلف يرمز إليه بالنساء، يقصد هنا السفهاء.

-71- وَمَا أَقْبَحَ التَّسْوِيف عَنْ قُرْبِ بَابِنَا   وما أَحْسَنَ التَّشْمِير قَبْلَ الإِمَاتَةِ

-72- فَأَنَّى لِبَطَّالٍ يَظَلُّ مُشَبَّطاً   حَلِيفَ الكَرَى غِرًّا بَطِيَّ الإِفَاقَةِ

-73- يَنَالُ مَقَامَ[116] الْقَوْمِ أَوْ يُدْرِكُ الْمُنَى   وَيَفْهَمُ عَنْهُم وَهُوَ صَاحِبُ سُكْرَةِ

-74- أَوْ كَيْفَ رِضَاءَ الله يُدْرِكُهُ الَّذِي   يُسَاخِطُ رَبَّهُ وَيُرْضِي الْخَلِيقَةِ

-75- أَمْ كَيْفَ لِمُغْتَابِ الْوَرَى ذِي نَمِيمَةِ   يَمُوتُ شَهِيدًا[117] أَوْ عَلَى خَيْرِ مِلَّةِ[118]

-76- أَمْ كَيْفَ لِمُسْرِفِ الطَّعَامِ وَشُرْبِهِ   يَذُوقُ مَذَاقًا أَوْ يَفُوزُ بِشَمَّةِ[119]

-77- كذا من عُرِفَ بِالْفُسُوقِ وَنَحْوِهَا   يُجَازَى بِفِعْلِهِ الْقَبِيحِ وَلَعْنَةِ (من الخِزْي)

-78- فَلَمْ يَمْتَثِلْ أَمْرًا وَلَمْ يَجْتَنِبْ نَهْيًا[120]   وَلَمْ يَذْكُرِ الْمَوْلَى[121] خَبِيثَ السَّرِيرَةِ

-79- حَرِيصٌ عَلَى دُنْيَاهُ لاَهٍ مُكَاثِرٌ   مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ ذُو عُتُلَّةِ[122]

-80- فكيف يكون للعلوم مناسبا   أخو الكسل والتفريط[123] فِي خَيْرِ خُلَّةِ[124]

-81- إِذَا امْتَطَى الْقَوْمُ الدُّجَى لِلتَّهَجُّدِ   وَحَازُوا مَقَامَ[125] قُرْبِهِ بِالْمَزِيَّةِ

-82- بمقعد صدق[126] فازوا والرتب العلى   وأسمى فراديس[127] الجنان الرفيعة

---

[116] - مقام له معنى آخر: محطّة.

[117] – في الميدان (الجهاد) أو النطق عند الموت بالشهادتين.

[118] – كما عرفه القرآن، الاسلام أحسن الأديان وهو ملّة إبراهيم {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} (البقرة130)/ و الآية: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج78] إلخ ...) {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}(البقرة161) فكرة الموت في الإلحاد سيعود إليها في البيت95.

[119] - الذوق والشم: الحواس التي يستشعر بها الحضور الإلهي أو كيف يتمكن من إدراك درجة ذوق وشم الصوفية العارفين.

[120] - اقتباس من القرآن الآية الآمرة بالخير(الحلال) والناهية عن الشر (الحرام) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل90))"إن الله يأمر بالعدل و الإحسان وإيتاء ذي القربى و ينهي عن الفحشاء ة المنكر والبغي".

[121] – مفروض على المؤمنين بالله أن يذكروه في كل لحظة.(في القرآن: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[الأحزاب21] {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الإنسان25] ونعلم أيضا أن ذكر الله هو أحد أسس الصوفية للتأمّل والصلاة (ارجع إلى البيت 60 وهامشه).

[122] - أداء ونغم البيت فيه شيء من الفوضى لما يحتويه من ألفاظ قرآنية مقتبسة خاصة في الشطر الثاني الذي يمكن اعتباره اقتباسا حرفيا الآية:{مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ}[ق25] والآية: {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ}[القلم12ــ 13] ونهاية الشطر الأول يذكّر أيضا بالآية: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر1].

[123] - هذه الأصناف الإجتماعية التي يعدّدها سيدي الشيخ في ما يخص الإيمان تظهر لنا غريبة في عصره ومواقعه القبلية في الجنوب الجزائري المشهور بسبقه إلى التديّن والكرم، لقد يفاجأ المرء أن يجد في هذه القائمة من الأوصاف السكيرين، ومرتكبي الحرام وأصحاب الإيمان الفاتر. في زمن الإستعمار زاد سوء الأخلاق حدّة، ومما هو دالّ على انقلاب الأمور هو أن بعض أحفاد سيدي الشيخ الفاسدين الضالين أظهروا طيلة حياتهم بعبادتهم للأهواء (كاهنة باخوس) بالرقص الصاخب و التحرّر من كل القيود الأخلاقية بصفة يتقزّز منها القلب (الإنحلال والدعارة).

[124] - خير خلّة : خلّة وصحبة الله.

[125] - مقام القرب – انظر قيمة هذا اللفظ سابقا البيت 73.

[126] - الصدق و"مقعد الصدق" مذكور في القرآن: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر54–55] انظره سابقا البيت 65.

-83- فَأَعْلَى مَقَامِ الْعَارِفِينَ[128] بِرَبِّهِمْ رِضْوَانُ[129] الإِلَهِ ثُمَّ زَائِدُ نَظْرَةِ[130]

-84- وَذَلِكَ كلُّهُ بِفَضْلِ إِلاَهِنَا يُنَالُ بِمَنٍّ لا بِكَدٍّ[131] وَحِيلَةِ

-85- وأمّا أسيرُ ذَنْبِهِ يَوْمَ حَشْرِهِ فَهَالِكٌ إِنْ لَمْ يُنْجِيَنْهُ بِرَحْمَةِ[132]

-86- دَعَوْتُ إِلَى بَابِ الْكَرِيمِ عِبَادَهُ دُعَاءَ مَأْذُونٍ[133] لَمْ يَزَلْ عَنْ بَصِيرَةِ

-87- وَقَدْ جَاءَ "وَلْتَكُنْ .." بِمُحْكَمِ ذِكْرِهِ إِلَى "...الْمُفْلِحُونَ":أَيْنَ أَهْلُ الإِجَابَةِ[134]

الدفاع عن الطريقة التي أنشأها ضدّ الوشاة

-88- فَكُنْ مُقْتَدِيًا بِنَا وَثِقْ بِكَلاَمِنَا وَجِدَّ بِسَيْرِنَا تَفُزْ بِالْمَوَدَّةِ[135]

-89- فَإِنَّنِي عَبْدُ الْقَادِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ سَلِيلُ أَبِي الرَّبِيعِ[136] نَجْلُ السَّمَاحَةِ[137]

-90- وَلاَفَخْرَ غَيْرَ أَنِّي عَبْدٌ لِقَادِرٍ وَأَحْمَدُ[138] تَاجُ الرُّسْلِ أَقْوَى وَسِيلَةِ

-91- فَبِالإتبَاعِ نِلْنَا الْمَرَاتِبَ وَالْعُلاَ[139] وَبِاللهِ مَا حِدْنَا عَنْ شَرْعٍ وَسُنَّةِ

-92- وَ مُنْذُ عَقَلْنَا سَدَّدَ اللهُ سَعْيَنَا وَمَازِلْنَا مُقْتَفِينَ نَهْجَ الشَّرِيعَةِ

-93- وَلاَ تَسْمَعَنَّ قَوْلَ عَادٍ مُعَانِدٍ حَسُودٍ لِفَضْلِ اللهِ بَادِي التَّعَنُّتِ[140]

---

[127] - فردوس: كلمة من أصل فارسي تعنى في زمن الساسانيين الحدائق الملكية. وهي هنا أحد أسماء الجنّة (أعلاها).

[128] - لقد تطرّقنا وشرحنا سابقا كلمة "عارف" وأيضا "معارف". مشكل المعرفة هو العقدة التي لاتحل (أو مربط الفرس) و الموضوع الشائك للمناقضات بين السنيين والصوفيين. بالنسبة للسنيين- نكرّر- فإن ما نعرفه عن الله هو وجوده وأسماؤه وصفاته التي أخبرنا بها الله تعالى بنفسه. جوهره يرفع المجهول. بالنسبة للصوفيين يمكننا أن نعرف الله بجوهره ووجوده، والإتّصال بالله بواسطة التقوى و الزهد، وممارسة الحب والألم.

129-رضوان: أعلى درجة الإرتقاء الروحي وأولّها الإخلاص (انظر كتاب الأنوار للشعراني طبعة القاهرة ص5)

[130] – نظرة: لها عدّة معاني منها:اللحظة بالعين، التأمل، العين الضارّة، المهلة،العطف والرفق.. نحاول أن نتجنب تأويل الشارحين الذين قالوا بأنها "النظرة إلى وجه الكريم في كل وقت"

[131] – لقد ركّز الناظم وسيركّز لاحقا على الجهود التي يجب أن يبذلها طالب الوظيفة وليس في هذا البيت أيّ تناقض، لأنّ الإختيار الإلهي، امتنان منه وليس نتيجة خدعة. لكن ما إن يثبت طالب الوظيفة اختياره الذي هو نفسه هدفه لابد عليه أن يضاعف الجهود .

[132] - نعلم أن يوم الحشر يوم أن يجمع الناس للحكم الأخير فإن الله ليس عليه أي التزام أو تعهّد إتجاه أي مخلوق من مخلوقاته إلا واجب الرحمة {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[الأنعام12]. لصالح مرتكبي الكبائر وبإذن من الله يمكن للرسول أن يشفع لهم "شفاعتي لأهل الكبائر".

[133] – هو الذّي أذن الله له أن يدعو العباد أمثاله إلى الإتجاه الصحيح (القرآن)

[134] – عِبَارَةُ:(قد جاء في الذكر الحكيم: "نص الآية...") تُذْكَرُ عَادَةً عندما يزاد نقل آية قرآنية. فالبيت هذا مرتكز على آية قرآنية أخطأ الكثير وخاصّة الذين لايحفظون القرآن عن ظهر قلب والذين ليسوا متعوّدين على التعابير الإصطلاحية للشراح و الفقهاء(القانونين) والنقاد. معنى البيت وقد جاء في محكم الذكر (أي القرآن) قوله تعالى:"وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (آل عمران 104).وفي رواية المفلحين غلط . وباسْتِنَادِ سيدي الشيخ إلى الآية القرآنية هذه يريد أن يثبت أن النداء الذي يوجهه إلى معاصريه لا يخرج عن إطار الشريعة الإسلامية . والله أعلم .

[135] – حسب الشراح : مودّة الله تعالى ومحبّته .

[136] أبو الربيع: كنية سيدي سليمان جدّ سيدي الشيخ مدفون في بني ونّيف (قرب فيقيق) بالتراب الجزائري، وهو تلميذ لسيدي أحمد بن يوسف الملياني، وهو أحد "المذابيح" السبعة الذين قبلوا التضحية للبرهان على الطاعة والصدق.

[137] – السماحة: أبو جدِّ سيدي الشيخ الذي يرجع نسبه إلى الخليفة الأول في الإسلام أبي بكر الصديق .

[138] – أحمد: أحد أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم .

[139] – في رواية أخرى: "المَرَاتِبُ العُلَى" لكن هذا يجعل الوزن يختل في الشطر الأول .

[140] – هذه الصفات الخبيثة التي أنكرها القرآن وعَدَدُهَا يُضَافُ إلى التي ذكرها في الأبيات من 67 إلى 80 .

-94- وَمَنْ يُنْسِبَنَّ إِلَيْنَا غَيْرَ مَقُولِنَا يُصِبْهُ بِحَوْلِ اللهِ أَكْبَرُ عِلَّةِ

-95- وَمَوْتٌ عَلَى خِلاَفِ دِينِ مُحَمَّدٍ وَيَبْتَلِيهِ الْمَوْلَى بِفَقْرٍ وَقِلَّةِ

-96- وَبَطْشٍ وَشِدَّةٍ انْتِقَامٍ وَ ذِلَّةٍ وَيَرْدَعُهُ رَدْعًا سَرِيعَ الإِجَابَةِ

-97- بِلَعْنِ الإِلَهِ بَاءَ مَنْ رَمَى نَسْبَنَا[141] عِنَادًا إِلَى فِعْلِ نَكِيرٍ وَبِدْعَةِ

-98- كَذَلِكَ الَّذِي يَرْمِى كَرِيمَ جَنَابِنَا وَيُنْسِبُ قَدْرَنَا لأَقْبَحِ سِيرَةِ[142]

-99- فَكَيْفَ وَبِاسْمِ الْحَقِّ[143] نَهْجُ طَرِيقِنَا يَعُودُ إِلَى ضَلاَلِ أَهْلِ الدَّنَاءَةِ؟[144]

ابتداءا من هذا البيت حتى البيت 98 يهاجم سيدي الشيخ خصوم الصوفية عامّة، وخاصة الذين يتّهمُونه بالبِدْعِيّ (المُبْتَدِع) أو الذين ينكرون عليه تصرفاته في بعض الحالات الخاصّة وقد سبق أن تكلمنا عنهم في الفصل المخصص لحياته. واستنادا إلي الإمام الشاذلي وأبي العباس المرسي وأخرين مثل ابن الفارض فإن الشراح يذكّرون أنه لم يَنْجُ أحدٌ من الصوفية من انتقادات الفقهاء القَصيري العقل والحسودين وأعدائه الشخصيين. لهذا فإن في هذا البيت وما يليه يدافع عن نفسه وعن طريقته المطابقة للشريعة و العقيدة الإسلاميتين. كما يلمّح لمنافسه الحاقد أبومحلّي والحملة التي شنّها ضدّه وقد سبق أن تكلمنا عنه في فصل حياة سيدي الشيخ سابقا.

141 - نَسْبٌ ونَسَبٌ:أي الأصل والسلالة. تلميح للذين ينكرون نسب سيدي الشيخ إلى أبي بكر الصديق. كانوا يقولون أنه من قبيلة حميان (تلك تكون فضيحة)، فهي قبيلة استقرت أولا في ورقلة ثم طردهم أهلها لأعمالهم المنكرة ثم لجأوا إلى مشرية. وكان سيدي الشيخ قد سخط عليهم بسبب مساندتهم للإسبان في ذلك الوقت.

142 – جنابنا: شخصيتنا الفعل نَسَبَ يُصَرَّفُ مع الحرف "إلى" وليس مع "لِ" (تعبير عامّي).

143 - الحق: الله تعالى، أو الحقيقة.

144 – يتطرق في هذا البيت كما في الأبيات السابقة و اللاحقة إلى الإنتقادات الموجهة من طرف خصوم سيدي الشيخ وإلى الردّ على المشنعين و المغتابين لطريقته. وكان عددهم يرتفع تباعا طيلة حياته بسبب اتساع شعبيته المتزايدة واستقبال الناس لطريقته الصوفية، التي رسمها، من بين الجماهير الشعبية المختلفة على حساب الطرق المنافسة له. بحيث يمكن القول أن ذلك كان ردود أفعال دالّة على إشعاعه، عملا بالقاعدة الثابتة التي تقول أن "لكل نعمة حسود". لايمكن أبدا أن ينتصر المرء دون أن يثير الحسد، ودون أن يتعرض إلى التشويه الفاضح من هؤلاء وإلى التعبير الحاقد من أولئك . فقيمة المرء مرتبطة بعدد أعدائه ...

سيدي الشيخ لم يشرّفهم بذكر أسماءهم. إنّه يعدّدهم مكتفيا بتلخيص مساوئهم بألفاظ تلميحية: المتعنتون،العواذل، الناكرون، أصحاب السيرة القبيحة، الحاسدون الذين فضحهم القرآن كم مرّة، الغيورون الذين لا يعذرون الآخرين الذين خصّهم الله ببعض النعم فهم حساد معاندون.

لن نسترسل هنا في عرض المعارضة المزمنة "للفقهاء" المجادلين، المنغلقين في تبعيتهم الخانقة، ضد الصوفيين الذين يناصرون المعرفة الباطنية المتدرجة إلى الإشراق المؤسّس المتعلق بالله، ليس فقط بمراعاة النص القرآني بصفة مضبوطة في ظاهره وفي متشابهه وإشاراته، و الحديث و الفرائض، لكن أيضا وخاصة بالتقوى و الزهد في الدنيا و الخلوة وتجربة الألم، وكثرة العبادة و التضرع و الذكر المتواصل و الصلوات التي يحضر فيها مع اللسان القلب و "سرّ السر" – ليس هذا هو هدفنا هنا. نريد أن نرجع هذه الأسئلة إلى حالة سيدي الشيخ خاصة، مركزّين اهتمامنا، بصفة موضوعية وتامة، إلى أسباب ودوافع الإتهامات الموجهة ضده على ضوء المناقب نفسها. وحسب ما سجلناه بأنفسنا كإعتراضات لتأكيداته. اعتراضات ناقشناها مع "المقاديم" بحسن نية، وهم الذين يرون أنّ في الدين يعتبر العمل بالقلب أرفع من العمل بالمظاهر و بالمباهاة .

أ– اتّهام من نوع مذهبي لم يعرف في زمانه نظرا للمناخ الديني للقرن 10هـ–16 م. لسيطرة الصوفية على ضمائر الناس آنذاك، لكن يجوز إرجاع الاعتبار لمعرفة تأويل القرآن كما رخصه الله لنا لمعرفته و لتطوّره حسب الزمان و المكان انطلاقا من التفسير المأثور إلى التفسير العقلي

محادثتنا كانت بكلّ موضوعية إسلامية: أولا حول البيت 35 الذي يؤكد فيه سيدي الشيخ أنه وصل إلى درجة روحية يستطيع فيها– في إطار الإرادة الإلهية –أن يقول لشيء كن فيكون.

إن أي دارس للألوهيات سواء أكان يلتزم بالنص الظاهري أم باطنيا..إذا كان مقتنعا بوحدّانية الله وعظمته لا يمكن أن يقبل شيئا مشوّشا كهذا حتى وإن قاله النبيّ أو ملك مقربّ. الله هو وحده الإله ولا يوجد إلاّ إله واحد، المولى الخالد و الخالق دون شريك .

أجابونا – دون دليل قاطع – أنّ هذا تعبير مجازي معناه الظاهر قد يظهر فيه بعض التطرف لا يعبّر عن حقيقة الشيء ولكن عن حال الصوفي الذي بلغ حدود ارتقائه الروحي، الذي لا يجعل منه شريكا ولكن متلقيا من خلاله، تظهر أو تترجم إرادة الله النافذة الظاهرة. أثناء فنائه (في الله) كل شيء فيه يذوب (الأفكار والأحاسيس والإرادة)، في إرادة الله، وتضمحل ثم تتبع بإحياء . إرادته وفكره وإحساسه الكل يتجدّد ويتحوّل من قبل الله. فلا يستطيع في هذه الحالة الثانوية من الخطف (الجذب) و "الإبتلاع" لشخصه المخلوق من قبل الذات الخالقة، أن يحيى أو يتحرك أو يؤثر إلا اتباعا للإرادة الله التي تحوّله إلى وسيلة أو أداة. في هذه الحالة من الفناء و الفضل

المسكر نطق الحلاج بعبارة ظاهرها كفر لكن باطنها مفهوم بإعتبار تعظيمها و تمجيدها: " أنا الحقّ ! أنا الله " أي لا أعيش إلاّ بالله ولله .

حياة وآثار سيدي الشيخ كلها تبرئة من الادّعاء بالشرك. شُرَّاحُهُ لم يجدوا أي عناء لتجنيبه ذلك، مستندين إلى الياقوتة وإلى مناقبه، وكذا أن يبرهنوا عن مراعاته الدقيقة للنص المقدّس و الحديث النبوي وإرثه الروحي الذي وهبه إياه شيوخه في طريق الشاذلية وأجداده .

ب- اتهام آخر مذهبي ضد سيدي الشيخ: نقض الحبوس (الوقف) في بعض الحالات وهذه في الحقيقة ليست مسألة عقائدية ولكنها قانونية أو فقهية.

إذا كان مبدأ الوقف لا يشكو من أية نزاعات فإنّ قواعده مختلفة ومتنوّعة ودقيقة وغزيرة عند مختلف المدارس السنية حتى يخيّل إليك أنها توضع حسب النوازل وليست قانونا واضحا ثابتا لا يصطدم مع الأعراف. وبالتالي فإن في أيامنا هذه هناك حكومات إسلامية أمّمت الأوقاف والحبوس. وزيادة على ذلك فإن الحالات التي زعموا أن سيدي الشيخ نقل فيها ملكية الحبوس ليست واضحة ولا مضبوطة، حتى يتمكن فحصها و الحكم عليها بكل موضوعية في ضوء القانون و الشريعة .

ج- كانوا ينكرون على سيدي الشيخ أن يلبس لباسا أنيقا وأن يحمل سيفا محلّى غماده بالفضة وأن يركب الخيل المسوّمة كما يفعل الشيخ العربي. هذا الإنكارغير مقبول لكون قاعدة في الطريقة الشاذلية تمنع أتباعها أن يجعلوا من الفقر والبؤس الخارجي الظاهري و من ثياب التسوّل علامات الصوفي الحقيقي .

د- أعداؤه كانوا يقدحون في سيرته ويصفونها بالسيرة القبيحة متّهمينه بمعاشرة النساء. ونجد كتّاب المناقب لفتوا الإنتباه إلى أن ذلك الأمر منطقي في طريقته الجديدة الصوفية التي أنشأها حيث كانت مفتوحة للرجال كما للنساء. كان يستقبلهنّ في بيته لكن جماعات دائما من أجل أن يعلّمهنّ طقوس حصص الذكر، في الأخير تتضمّن الملامسة (أي يلمس كل طالب بيده مَنْ بجانبه). لكن بالنسبة للنساء كان الملقّن يضع يده في صحن مملوء بالماء العذب ثم تضع النساء المتلقيات بدهن الواحدة تِلْوَ الأخرى في نفس الصحن وكان ذلك بيعة رمزية .

هــ- أحسن صلاة هي الصلاة في البيت (أي دون مباهاة) وفي وقتها. هذا ما تثبته السنّة إلا عندما يتعلق الأمر طبعا بصلاة الجماعة: يوم الجمعة والأعياد والخسوف والكسوف والاستسقاء ...إلخ. وقت الصلاة أمر يجب احترامه لكن يمكن مخالفة ذلك لأعذار مقبولة " يسّروا ولاتعسّروا " كما تعلمنا السنة و القرآن. صلاة العصر تمرّ في وقت غير مضبوط تماما، المهمّ إقامتها قبل إصفرار الشمس. سيدي الشيخ الذي كان يدرّس مريديه ويستقبل ضيوفه طوال النهار وممثليه وأتباعه، كان أحيانا يؤخّر أداءها. كان هذا كافيا لناقديه لكي يتهموه بالبدعي. كتّاب المناقب استندوا إلى الحديث وإلى النص القرآني لكي يدحضوا هذه الافتراءات .

و- المعاندون (المترهبون الغاضبون، المتهوّرون أصحاب الطموحات الفاشلة، والأقارب الذين جعلهم الحسد حاقدين لسذاجتهم) كل هؤلاء شنوا حملة شعواء ضد سيدي الشيخ لم يحترموا فيها لا حياته الخاصة ولا العامة ولا أجداده ولا فكره الروحي الذي انتشر منذ البداية في جميع الشمال الإفريقي، من المغرب إلى تونس ومن الجزائر العاصمة إلى الصحراء .

نذكر أيضا من بين المنتقصين له عَمُّه الحاقد "المجذوب" و أخوه "إبراهيم" والأطرش ولي فيقيق وابن بهلول ولي مازونة، وابن مشرف شيخ مدرسة بني راشد، والقاضي الشلفي سعيد بن إبراهيم القدوري، وبعض المثقفين التابعين لجماعة الناصرية...إلخ. إن كل هذه الحملة العنيفة لهدم هذه الطريقة الجديدة وإسقاط مؤسسها لم تكن فاعلة بين الجماهير الشعبية بفضل رد فعل المتعلقين بها و"مقاديمها" الأجلاء. خلّدت المناقب بعض أسماء ممثلي الطريقة الشيخية والمدافعين عنها، نذكر منهم دون تمييز : القندوس بن عبد الله بتلمسان و العربي بن العربي بن أحمد من قبائل كبدانة، علال بوبكر من أخوية جبل عمور وحسين السّكوني(أو الساكوني) بفيقيق، ومحمد التونسي بذراع، وعلي البودي من أدرار، وإبراهيم بن ابوبكر بفاس، ويوسف بتوات وهود بن أبو تراب من معسكر، و الحاج بن علي من مراكش إلخ ...

لونشرنا الخريطة الجهوية لنفوذ الطريقة الشيخية في حياة سيدي الشيخ يتبيّن لنا أنها لم تكن كثيرة النفوذ عند التجمعات السكنية البربرية، ولكن في المقابل كانت منتشرة في الأعراش القبلية الكبيرة مثل: بنو عامر، القيعان (Qyãn) وأولاد زياد والرزاينة وجعافرية وأولاد سرور والمهاية والأغواط والحساسنة و الأنقاد وأولاد جرير وغيرهم ...

بينما لم يَحْلُ لكل الناس وخاصة الخصوم أن يحظى سيدي الشيخ بالسلطة النافذة غير القابلة للنقاش، في الأوساط البدوية والحضرية لأنهم كانوا يحتاجون إلى تلك الجماهير لتحقيق مآربهم.

أكثرهم جرأة وتبجّحا من هؤلاء الخصوم المغاربيين كان المدعو أحمد بن عبد الله بن القاضي المكنّى أبومحلّي (صاحب السيف ذي الغماد الفضّي) الذي سبق أن تعرضنا لحياته المليئة بالمغامرات عند التطرق لحياة سيدي الشيخ. تحت هذا الإسم المغري دخل التاريخ في فترة متأججّة سادها الشرفاء والسعديون حسب الإصطلاح الأوربي (بداية القرن 11هــ /17م)، وتحت نفس هذه الكنية، ذُكِرَ في مناقب سيدي الشيخ بصفة مبهمة، في الأبيات 93 عبارة "عَادٍ مُعَانِدٍ" يقصد بها " أبو محلّي " بينما كتاب حياة سيدي الشيخ و المؤرخون "الشرفاء" مثل الإفراني تكلموا عنه بتحفّظ بصفته "مَهْلَكَة" (انظر كتاب نزهة تاريخ المغرب من1511إلى 1670 م نص وترجمة هوداس ، الجزائر 1889 م)، لكنّ المؤرّخين الفرنسيين والإنجليزيين لهذه الفترة من التاريخ المغربي حكموا عليه بأحكام متنوّعة. يرجع إلى ما ذكرناه سابقا عن حياته ودوافع حقده ضد سيدي الشيخ وفي بحوثه حول أَحَقِّيَةِ السلطة وحول دور " المهدي" وحول عدم لياقة السعديين،إلخ...

عرض مبادئ الطريقة

-100- بِدَايَتُهَا لِلْغَافِلِينَ[145] بِتَوْبَةٍ   وَ أَشْرَاطُهَا[146] مَحْصُورَةٌ بِالتَّثَبُّتِ

-101- وَنُصْحٍ لِدِينِ اللهِ[147] ثُمَّ رَسُولِهِ   وَخَاصَّتِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِجُمْلَةِ

-102- وَتَطْيِيبُ لُقْمَةٍ[148] وَتَعْظِيمُ حُرْمَةٍ   وَشُكْرٌ لِنِعْمَةٍ وَرَفْعٌ لِهِمَّةِ

-103- قَوَاعِدُهَا شَوْقٌ وَعَيْنُ يَقِينِهَا   مَحَبَّةُ جَدِّ السَّيْرِ دَأْبًا لِحَضْرَةِ[149]

-104- وَكَفُّ الأَذَى وَحَمْلُهُ وَتَصَبُّرٌ   ولاَتُهْمِلِ الرِّضَى بِأَدْنَى الْمُصِيبَةِ(رواية أدهى)

-105- وَزُهْدٌ وَتَسْلِيمٌ[150] وَعَفٌّ[151] وَعِفَّةٌ[152]   وَتَفْوِيضُ أَمْرٍ وَ الشُّهُودُ بِمِنَّةِ

-106- وَجِدٌّ قَوِيٌّ وَاجْتِهَادٌ مُوَافِقٌ   وَصَوْمٌ وَسَهْمٌ ثُمَّ صَمْتٌ وَعُزْلَةِ

-107- وَحُزْنٌ وَدَمْعٌ سَاكِبٌ مَعَ لَوْعَةٍ   وَشَغْفُ قُلُوبِ الْوَالِهِينَ بِزَفْرَةِ

-108- نِهَايَتُهَا شَمٌّ وَذَوْقٌ وَشُرْبُهَا   بِهِ رَيٌّ خَمْرٍ ثُمَّ سُكْرٌ بِغَيْبَةِ(في رواية شرابها)

-109- فَأَمْطَارُهَا فِكْرٌ وَذِكْرٌ وَعِبْرَةٌ   وَمَحْوُ ذَوَاتِهِمْ لِلذَّاتِ الْعَظِيمَةِ[153]

---

[145] - الغافلون: المبتدئون، المتعلمون، المريدون غير المُؤَهَّلين.

[146] - أشراط: جمع شرط، مقدمات البداية ،لا يجب الخلط بينها وبين شرط الذي جمعه شروط.

[147]– الدين الصحيح الحقيقي لله هو الإسلام {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران85] {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ } [آل عمران19].

[148] - لقمة: الطريقة تفرض على المبتدئين ليبحثوا عن المأكل الطيب الروحي الذي يتلقّونه من الشيخ وتعظيم هذا الأخير وشكره على تعليمه وعلى همّته الشريفة، بعض الشُرَّاح فهموه أنه يجب أن لا يأكل إلاّ الحلال، واعتبروا ذلك فرضا في دخول الطريقة .

[149] - حضرة : حضور – عند الشاذلية هذا القرب لا يتحقق إلاّ مع قلب طاهر جدّا، وزاهد، له كمال باطني، وصدق في الفعل والفكر وعدم المبالاة بكل ما سوى الله. هذه "الحضرة الإحسان" يتلقاها القلب تدريجيا. وتستلزم "الشفاء" من كل نقص معنوي روحي يصاب به المرء عند ميوله المعتاد إلى الحياة الدنيا مثل: الأنانية والتفاخر والحقد والنذالة والنفاق والخيانة والخداع. هذا "الشفاء" يجب أن يكون من صنع الشيخ. "حضرة الإحسان" هذه تسبق أعراض أخرى تظهر في النفس للحضور الإلهي وخاصة "حضرة القدوس" التي هي في نفسها تألّق وخاتمة المطاف.(انظر الشعراني – وشرح البيت 5 – حيث تطرقنا لشرح هذا اللفظ سابقا).

[150] - تسليم مِن سلّم أي إعطاء النفس والأمر كله وبكل ثقة لله.

[151] - يلاحظ أن قاعدة "العفو" لم ينظر إليها سيدي الشيخ اتجاه خصومه (ارجع إلى الأبيات 93 إلى 98).

وهذا يمكن فهمه عندما نَقِيسُ مستوى حقدهم ونفاقهم وخيانتهم التي حكم القرآن باللعن الصريح عليهم بسببها: {أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ} [البقرة159] {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [البقرة 279] {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}[المائدة 60] {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[الأعراف44] {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح6]

[152] - العقة هنا ليست بالمعنى المعروف عند المسيحيين التي تؤدّي إلى الإعراض عن الزواج، وإنما هي عقة إسلامية متمحورة حول التطبيق المضبوط للنص القرآني الذي يرفض العزوبة.

[153] - يتعلق الأمر بالمرحلة الأخيرة من السمو الروحي (الارتقاء) للصوفي: ذوبان الذات في الذات (الحقيقة) الإلهية، ذوبان ومحو الذات والإرادة حسب الطريقة الشاذلية ليس مثل الصوفيين المتحمّسين ومع ذلك ملحدين، ذوبان يصل إلى درجة تطابق الذوات، فالذات المخلوقة لا يمكن أن تذوب في الذات الخالقة. وقع هذا النزاع –الذي لا يمكن تجنّبه – بين السنّيين وبعض الصوفيين المنحرفين.

سيدي الشيخ الذي يتمسك كثيرا بالشرع القرآني وسنّة الرسول صلى الله عليه وسلم، يعبّر بحذر عن الطريقة الصوفية التقليدية (الشاذلية، القادرية، النقشبندية، الخلوتية، إلخ ...) التي يلغي الاتصال عندها كل ارتباط طبيعي مع الله ولا يخلط مع الإتحاد، يتأتى إلى وجود في الله وبالله في معنى الإرادة لا الذات (الجوهر). عندما يصل

-110- مِنْ بَعْدِ غَيْمٍ جَاءَ صَحْوُ سَمَائِهَا   بِإِشْرَاقِ شَمْسٍ بِالْمَعَارِفِ حُفَّتِ(رواية جمّت)

-111- فَجَذْبٌ لَهُ عَزْمٌ انْتَهَى دُونَ حَاجِبٍ   إِلَى حَضْرَةِ الْقُدُّوسِ زُجَّ بِسُرْعَةِ

-112- وَحَالٌ لَهَا حَوَى الأُصُولَ بِأَسْرِهَا   طَرِيقَةُ أَسْلاَفٍ بَيْضَاءُ نَقِيَّةِ

-113- فَهَذَا[154] فُصُولُهَا وَشَرْطُ كَمَالِهَا   مَنُوطٌ بِعِلْمٍ ثُمَّ حِلْمٍ وَحِكْمَةِ

-114- لَهَا الجَمْعُ جَمْعُ الجَمْعِ جَمْعُ اتِّحَادِهَا[155]   أُصُولٌ لَهَا شُهُودٌ فِي كُلِّ لَمْحَةِ.

الصوفي إلى أعلى الدرجات بعون الله ، فإنه يصبح لا يتحرك ولا يفكر ولا يعيش إلاّ لله وفي حميمية حضرة الله في كل كائن بشري .

[154] - فهذي أو هذه :هذه الحرية في التعبيرالتي يستعملها في اللغة العربية كثيرا ما تثير غضب اللغويين .

[155] - نظرا لتقنية التعبير المستعملة والتركيب فإن معنى البيت يصبح صعب الفهم . ما نحن متحققون منه هو أن الأمر يتعلق بالحالات المعبرة على اتحاد الصوفي حين يصل إلى أعلى درجة الإرتقاء الروحي نحو الله. لكن ماذا فهم الصوفيون –الذين يستغلون كثيرا هذا التعبير– من إتحاد (الذي يعني باللغة العربية الجمع)؟ هل يتعلق بالله؟ فأي جمع إذن هو؟ كثير من الصوفيين يتكلمون عن معنى الذوبان في الله، وهذا ما تعتبره الشريعة الإسلامية كفرا بواحا.أم هل هو اتحاد رمزي لروح الصوفي المتطهّرة مع الله دون أن تعني أي اتحاد طبيعي ؟ يظهر أن كلمة "جمع" استعملت للتعبير عن هذا المعنى الأخير. الصوفية التقليدية – وسيدي الشيخ أحد ممثليها – تقبل أن حالة الروح تتضمّن التوكلّ التام وذوبان إرادة الصوفي في إرادة الله، وهي الحالة التي تضمحل فيها إرادة الصوفي فلا يتحرك إلا بإرادة الله، ولا تتصرف ولا تتلقى ولا يحسّ ولا يفكر إلاّ بالله ولله. فيصبح الاتحاد ليس تطابقا غير مقبول لكن ارتباطا يسمّيه الصوفيون الوسطيّون: الوصال أو الإتصال. بهذا المعنى الأخير استعمل هنا .

من المحقق أن مصطلحات الصوفية احتوت على كثير من الغموض ومن قرن إلى قرن خلقت بين السنيين و الصوفيين تناقضات مأسوية .

من هذه المصطلحات: الجمع، عين الجمع، الإتحاد، الفرق، النهاية، الوجد، الجذب، وحدة الشهود، وحدة الوجود، فلابد من الرجوع إلى مشاهير المؤلفين التقليديين مثل: القشيري (في الرسالة)أو الكلاباذي (كتاب التعرّف) حيث توجد تعريفات غير مثيرة لا في دقتها ولا في ثباتها.

حقا إن التعبير (المفردات) الصوفي يتغير من مؤلف إلى آخر حسب الممارسة و الميولات . لذا يجب الحذر من بعض المؤلفين الضالّين الشواذ إلى صد الملحدين مثل الحلاج وابن العربي وشعراء آخرين مخرِّفين على حقيقة الإسلام. بينما شيوخنا الصوفية التقليديون مثل الجنيد والبرطامي و الجيلاني و الشاذلي وابن الفارض وآخرون كثر حاولوا وجدّوا في التعمق في القرآن و السنة و الإقتراب أكثر من الله بالعمل التطبيقي و الصلاة واكتشاف الطرق التي تبث الحياة في التعاليم الإسلامية. أما المدّعون الصوفية "رفقاء إيلياCompagnon d'Elie " "المغرمون بالنجوم " فإنهم لا يتردّدون – في ضلالهم البعيد – من أن يعلنوا أنفسهم جزء مدمجا في الذات الإلهية و الوجود الإلهي فقالوا : " أنا الله! " اتّحادهم المزعوم يحمل على الاتحاد الطبيعي! لقد تطرقنا في عدّة مناسبات إلى هذه الإلتباسات، لأننا نرى ذلك ضروريا .

من الواضح أن العقيدة الإسلامية لا تقبل هذرهم ولاخرافاتهم ولا شعوذاتهم – فلا يمكن أن يفهم من كلمة " حب " إلاّ تفسيرا واحدا مجازيا – ضمن العلاقات بين الله و الإنسان – لا يعنى علاقة ودّية مرضية كما يثبتون وإنما هي اصطفاء الله لأحد مخلوقاته. فالله يحب المؤمنين الطائعين المخلصين و الله يكره العاصين و المجرمين . كما جاء فيما معناه في القرآن الكريم {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة195] { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة222]، وفي سورة آل عمران {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)} {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران31] {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)} بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)}{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)} {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)} {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)}.

الباحثون في العقيدة الإسلامية الذين هم مفسّرون مرخّص لهم (مؤوِّلون) يمتازون بسعة معارفهم وحذرهم اتجاه القرآن والحديث على أساس أنهم "ورثة" الأنبياء وهم معروفون بالشجاعة، رأوا من الواجب عليهم الدفاع ضد هؤلاء المتشدّقين المغرورين، عن الوحدانية الإلهية و العظمة الإلهية في صفاءهما المطلق، عليهم فضح الضلالات الإجرامية (عند مستغلي الأضرحة) على أساس أنها نوع من السحر ومن الطقوس الوثنية. عليهم محاربة بدعهم وهرطقاتهم، مقتنعين أنه إن كان لابد من رفع تمثال في أرض الإسلام للشعوذة والخرافة فإنها ستُكْسَى بلِبَاس(مستغلي الأضرحة) Marabout .

معاذ الله أن نعدّ سيدي الشيخ واحدا من هؤلاء "العبّاد المزوّرين ". بالعكس لقد خُضْنَا هذا الاستطراد من أجل أن نحفظ ونَقِي شخصيتَه وطريقتَه الروحية من كل خطأ يوجّه له.

من "الجمع" يمكن أن نفهم طاعة الله، والإتباع المطابق تماما للشريعة والعقيدة الاسلاميتين المتعمقتين إلى درجة – نعيد مرة أخرى – أن الصوفي لايعيش ولايحس ولايتحرك إلا بأن يجهد نفسه بربط إحساسه وفكره وإرادته

-115- فَأَوَّلُهَا وَلِيٌّ[156] ثُمَّ نَقِيبُهَا[157] نَجِيبٌ كَذَا الأَبْدَالُ[158] فَاقُوا بِرُتْبَةِ

-116- عِمَادُهُمُ[159] الأَخْيَارُ أَوْتَادُهُمْ[160] حَبَوْا بِخَاصِّيَةِ الْمَوْلَى هُمْ أَهْلُ الْخَصَاصَةِ

-117- وَغَوْثُ[161] اسْتِغَاثٍ ثُمَّ جَرْسُ[162] عُلُومِهَا وَقُطْبٌ[163] لَهُ أَعْلَى مَقَامِ الْوِلاَيَةِ[164]

-118- فَشَيْخُ الشُّيُوخِ ذَاكَ شَيْخُ زَمَانِنَا إِلَيْهِ انْتَهَتْ فُنُونُ هَذِي الطَّرِيقَةِ

-119- فَمِنْ شَيْخِنَا عَنْ شَيْخِهِ عَنْ شُيُوخِهِ تَسَلْسَلَتِ الأَشْيَاخُ أَهْلُ الْعِنَايَةِ[165]

-120- كَذَا نِسْبَةُ الأَبْرَارِ[166] وَصَفْوَةُ الْمَلاَ لَهَا[167] شَرَفٌ يُنْمَى[168] لِعِزٍّ وَرِفْعَةِ

-121- فَمِنْ قُدْوَةٍ عَلاَ إِلَى نُخْبَةٍ سَمَا وَمِنْ صَفْوَةٍ رَقَى لأَسْمَى الْخُلاَصَةِ[169]

-122- وَتِلْكُمْ مِنْ بَحْرِالنُّبُوءَ ةِ[170] أُنْشِئَتْ وَمِنْهُ اسْتَمَدَّهَا فُحُولُ الدِّرَايَةِ(فحول الدراية:أهل)

وحركته للإرادة الإلهية السيّدة. بها يحس نفسه مرتبطا (مجتمعا) بالصلاة الكثيرة والحب المستوعب والمُفْنِي. لكن الله هو وحده الإله، لا إله إلا الله. ففي معنى "شهود الحق" والجمع، يُفْهَم هذا البيت كما بيّن ذلك الشراح المتنبّهون والحذرون.

156 – وليّ: المتعلم، طالب الوظيفة، بصفة أوسع وليّ (صديق) الله، قدّيس. يقول الشراح أن عددهم كثير.

157 – نقيب: ممثّل السلطة، من النقابة. عددهم محدد إلى 40 وهم مطالبون بأن يجتمعوا وقت الفجر للصلاة جماعة. في الأصل كان هذا الإجتماع بالجامع الأزهر.

158 – أبدال جمع بدل: يستبدل بعضهم بعضا وهم في الدرجة الثالثة وعددهم 7.

159 - عِمَاد: كلمة لها معنى معقد فيها معنى الإرتكاز جمعه أعمدة. وهي الرتبة الرابعة. وعددهم 3.

160 – أوتاد جمع وتد. لفظ ذو معاني متنوّعة: في علم العروض، لتثبيت الخيمة إلخ.. المرتبة 5 وعددهم 4 .

161 - الغوث: له معنى التدخل للإنقاذ عند الحاجة. (؟؟؟؟)

162 - الجرس: لفظ مجازي وتقني، الدَّوِيُّ، يدل على "المقدم الصوفي" الذي بلغ درجة ما قبل الأخيرة من الإرتقاء الروحي، ويكتسب المعرفة بعمق (معرفة الله)، ويدوّي بها حوله، ينشرها لمن حوله.

معرفة حدسية متلقاة مباشرة من عند الله، أعلى من المعرفة العقلية. المعرفة العقلية التي تجعلها الكثير من المدارس فرضا واجبا مثل: الماتريدية والمعتزلة.

أما علماء العقيدة الاسلامية العقليين الأكثر استنارة وأكثر وفاء واستقامة وموافقة للدين وخاصة المتكلمون الأشاعرة يدعمون الرأي القائل: أن فرضا كهذا لمعرفة الله عن طريق العقل مرتبط فقط بالوحي. الله أوحى لنا بواسطة رسالته: القرآن، المبلغ إليه كما هو عن طريق رسوله.زيادة على الوحي نضيف النظر والتأمل للآيات الكونية وسير الحياة. لو كان العقل وحده يتمكن من معرفة الله فلاحاجة لنا إلى الرسول. ما إن عرّف الله نفسه لنا، بإظهار وجوده لنا من خلال صفاته التي قدّمها هو بنفسه: (عزيز، قدير، عليم، رحيم ...إلخ) أصبح واجبا علينا أن نعمق تفكيرنا في هذا الإطار لمعرفته. هذا ما يمكن استخلاصه من كتاب الاقتصاد للغزالي وكتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي.

163 - قطب جمعه أقطاب: هو الذي يحضر بأمر الله "لتسيي" العالم طيلة قرنه. النصوص حول هذا الحضور غامضة.

164 - درجات الأولياء (طبقات) المستحقين في طريقة سيدي الشيخ تحتوى إذن على 8 درجات. هذا العدد لم يأتِ صدفة لأنه لا يجب أن ننسى أن الرمز المميّز السري الباطني في طريقته هو 8. طرق أخرى لها كرموز رقمية 33,11,7,3 ...إلخ .

165 - العناية: الذين نستند إليهم عند الشدائد هؤلاء الشيوخ يكوّنون سلسلة تصل إلى الرسول.

166 - أبرار: المستقيمون، العدول، الأتقياء. في القرآن: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} [آل عمران193] ،{كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} [المطففين18] ، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [المطففين22]، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الانفطار13] [وفي رواية مع صفوة..]

167 - لها : ضمير مبهم (في غير محلّه)

168 - ينمى: فعل يتبع عادة بالحرف "إلى" وليس "لِ" هذه التركيبات الغريبة يمكن تبريرها أنها ناتجة عن الإستعمال المتعدد (التداول) الذي تلقته قصيدةٌ كالياقوتة التي لها صيت شعبي كبير وقد نسخت مرّات عديدة عبر القرون من طرف كتّاب ذوي ثقافات نسبية وذوي معرفة متوسطة (أو غير كافية) للغة العربية.

169 - تعددت روايتها:(اسمى الخلاصة؟ أو أسماء الخالصة؟...إلخ) تدل على أن معنى هذا البيت في الحقيقة غير ممكن القراءة (الفهم) ولذا نجد عدّة مؤلفين ونقال ينحرفون. وبالتالي فإن " ترجمتنا غير مضمونة " (يعني بها ترجمة صاحب الكتاب الأصلي).

-123-عَلَيْكَ بِهِمْ فِي كُلِّ شَأْنٍ تَشَاءُهُ   تَوَسَّلْ[171] بِهِمْ تَنَلْ سَرِيعَ الإِجَابَةِ

السلسلة الذهبية للطريقة

-124- فَخُذْهُمْ بِنَظْمٍ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ   عَلَيْهِمْ مِنَ الإِلَهِ أَزْكَى تَحِيَّةٍ[172]

-125- فَأَوَّلُهُمْ فِي الذِّكْرِ شَمْسُ وُجُودِنَا[173]   وَقُطْبُ نُهَى عُلُومِنَا اللَّدُنِيَّةِ

-126-إِلَيْهِ انْتَهَتْ رِئَاسَةُ الْقَوْمِ فَارْتَقَى   عَلَى صَهَوَاتِ الْمَجْدِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةِ

-127-أَبُو عَابِدِ الإِلَهِ يُسْمَى مُحَمَّدًا   إِلَى عَابِدِ الرَّحْمَنِ يُعْزَى فِي نِسْبَةِ[174]

---

[170]- النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

[171] - التوسل: نداء أحد رجاء تأثيره على أحد آخر لتحقيق مصلحة. لا يجب خلطها بالشفاعة وهي تفضّل خاص ممنوح للرسول من قبل الله ليرجو رحمته بالعفو عن المذنبين.

لا يوجد في القرآن شيء يرخص باستعمال (استخدام) أي مخلوق للوصول إلى تفضل عند الله (أو حظوة): {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[الأنعام40] {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن18]. كما أنه لا يمنع منعا باتاّ تدخل الأنبياء والأولياء لصالح البشر، في الوقت الذي يدعو الله الناس لأن يتضرّعوا إليه مباشرة لتحقيق ما يرجون: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف29]، {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر60]. تدخل لا يمكن أن يكون فعّالا إلا بإذن الله. إمكانية التوسل هذه استُغِلّت من طرف "أصحاب الأضرحة" على استحياء فقد تجعل من المؤمن "متعدد الآلهة"، ولكون الإسلام دين الوحدانية المطلقة والعظمة لله، فأي أحد يشرك أحدا آخر أو شيئا آخر مع الله يُخْرِجُ نفسه بِنَفْسِهِ من الإسلام ومن أمة الرسول صلى الله عليه وسلم، انظر {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[لقمان30]، {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[التوبة31] ، {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس18]، {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء48] إلخ...

[172] - "مقاديم" الطريقة وعلى رأسهم مؤسسها، يجب عليهم أن يعرفوا عن ظهر قلب أسماء الشيوخ المبلّغين (المورّثين) والمعلّمين وهم الذين تتكون منهم "السلسلة الذهبية" التي يجب أن تنمى حتى الرسول صلى الله عليه وسلم، الصوفية المستقيمة تفرض سلسلة "الارتكاز" هذه، لأن أيّة طريقة بدونها تعتبر بدعة منكرة بل هرطقة. الطريقة التي أسّسها الشيخ أحمد التيجاني الذي يزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلّغها له في المنام مباشرة تعتبر غير متّفقة مع الشرع بما أنّها تفتقر إلى السلسلة الموصلة، بل هي هرطقة خاصّة بسبب نظريتها حول "صلاة الفتح" ...

سَيَعُدُّ سيدي الشيخ في الأبيات التالية حلقات سلسلة الذهب. سلسلة وجدت فيها بعض الإختلافات حسب المخطوطات، لكن ليس هو أوثق من التسلسل الذي يذكره هو بنفسه في الياقوتة، منهم:

الشيخ عبد القادر بن محمد (عن) عبد الرحمن بن محمد (عن) (يعزى) أحمد بن يوسف الراشدي (عن) الزروقي (عن) الحضرمي (عن) الغزافي (عن) ابن عطاء الله (عن) أبوعباس المرسي (عن) أبي الحسن الشاذلي (عن) ابن مشيش (عن) المرضي (عن) أبي أحمد السنّي (عن) أبي مدين (عن) أبي يعزى (عن) ابي الحسن بن حرزهم (عن) أبي بكر "فخر الدين " شمس الدين (عن) أبي حامد الغزالي (عن) أبي المعالي (عن) المكي (عن) الجنيد (عن) سري السقط (عن) الطائي (عن) العجميّ (عن) الحسن البصري (عن) الإمام علي (عن) محمد "صلى الله عليه وسلم " (عن) جبريل (عن) إسرافيل (عن) اللوح المحفوظ (عن) القلم الذي يكتب بأمر من الله.

[173] – في حياتنا: وكصوفيّ نقول عن تكويننا كصوفيّين أن هذا المدح والثناء المبالغ فيه، كثير الإستعمال وهو يدل على شدّة تعلق التلميذ بشيخه.

[174] ابوعبد الله محمد بن عبد الرحمن بن حفص بن يحيى بن سليمان هو الشيخ المعلّم الملقن الأول لسيدي الشيخ يلقب "مولى السهول" باسم القرية التي بها زاويته على بُعد 100 كلم عن بوذنيب في الجنوب المغربي. المراجع التي في حوزتنا حوله ذات فاقة كبيرة. كل ما نعرف عن سابقيه أنه كان تلميذا لدى الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي سنتطرق إليه أسفله. وهو يعدّ من السبعة التلاميذ الذين قدّموا أنفسهم للتضحية أثناء إختيار إيمانهم و طاعتهم (ومنهم جدّ سيدي الشيخ: سيدي سليمان بن بوسماحة) وقد ذكرنا هذا سابقا .

وفي رواية مخالفة لها لدى بعض المؤلفين مثل العياشي (أنظر كتابه الرحلة الطبعة الجديدة المجلد 2 ص 421) أن سيدي محمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة990هـ 1582 م) لم يكن تلميذا مباشرا للشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني لكن كان تلميذا لعليّ بن عبد الله الفيلالي الذي هو تلميذ لهذا الأخير (والله أعلم).

-128-عَلَيْهِ سَلاَمُ اللهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَ مَا حَنَّ طَيْرٌ بِاللُّغَاتِ الْحَنِينَةِ

-129-فَعَنْهُ أَخَذْنَا أَعْنِي عَنْ قَمَرِ الدُّجَى وَرِثْنَا طَرِيقَ الْقَوْمِ دُونَ اسْتِرَابَةِ

-130- فَبِالرَّاشِدِي[175] اقْتَدَى وَعَنْ الزَّرُّوقِي[176] اهْتَدَى عَنِ الْحَضْرَمِيِّ[177] ثُمَّ شَيْخِ الْغَرَافَةِ[178]

-131- عَنِ ابْنِ عَطَاءِ اللهِ[179] بَحْرِ عُلُومِنَا عَنِ الْمُرْتَضَى الْمُرْسِي أَحْمَدَ حُلَّةِ[180]

كان سيدي الشيخ تلميذا له خلال عدة سنوات. فلما توسّم في تلميذه المؤهّلات عرض عليه شيخه محمد بن عبد الرحمن – حسب الرّوايات الشفهية المحلية – أن يستقر في الصحراء الجزائرية المغربية لكي يستكمل تكوينه بممارسة الزهد وأن يؤسس طريقة مستقلة.
كان في الظاهر ذا طبع صعب متشدّد غيور في سلطته من تلاميذه. أبناؤه وأتباعه المكلفون بجمع المرتبات التي كانت تعطى له من طرف الطرق المتفرعّة عنه لم يتوانوا في خلق سوء تفاهم بينه وبين سيدي الشيخ الذي أرغم لكي يرضي شيخه على قبول هبة تدفع لزاويته سنويا. هذه الهبة مازال إلى اليوم يطالب بها أحفاد الشيخ محمد بن عبد الرحمن من أولاد سيدي الشيخ. يوجد غير بعيد من الأبيض "رجم" (مجموعة من الأحجار) كمَعْلَمٍ للمكان الذي تودع فيه الشيخ و تلميذه. وقد تعهد سيدي الشيخ لسيدي محمد بن عبد الرحمن الوفاء والطاعة. (رجم الوداع).

[175]- الراشدي: لقب للرجل الأكثر تمثيلا للصوفية في الجزائر في تلك الفترة وقد تطرقنا إليه سابقا هو الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الملياني، من أشهر الشيوخ الشاذلية معلّم ومؤسس لأخوية (طريقة) أصبحت اليوم شبه معدومة وهي اليوسفية.كان يتميز بالحكمة الكبيرة على أهل زمانه وفي بعض المدن بناحية مليانة مثل البليدة والمدية وتنس إلخ ... توفي بمليانة927هـ 1521 م(ارجع الى المقدمة).

[176]- الزَّرُّوقِي: هو أبو العباس أحمد بن عيسى البُرْنُسِي من فاس معروف أيضا بزرقة عينيه تحت اسم الشيخ الزروق.عالم شرعي وصوفي شاذلي كان له عدّة أساتذة منهم "سيّد" العاصمة الجزائرية عبد الرحمن الثعالبي.ولد سنة846 هـ 1443م.ينتمي إلى قبيلة البرانس جنوب فاس وتوفي في ليبيا بمكان إسمه "تاجران" قرب مسراتة سنة899 هـ 1494م.ينسب له شرح فيّاض لكتاب "الحكم"لابن عطاء الله تحت عنوان "كتاب الأنس" كُتِبَ سنة888 هـ 1484م. كتاب ب 600 بيت عقب عليه أحد الشاذلية المسمى محمد بن على الخروبي. النسخة الأصلية كانت بحوزة المحافظ القديم لقبّة سيدي عبد الرحمن الثعالبي(أمين القبة)،المرحوم الحاج موسى بالجزائر. نحن مدينون إليه حسب نفس المصادر بكتب أخرى: كتاب الجنّة العاصمة من البدع في السنة، كتاب الأنوار السامية على وظيفة الزروقية، نظم في تعليم الفقه مشروح من طرف المسمى أبوزيد العياشي ومترجم من طرف باربرجر Barbugger يمكن وجوده في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة وبمكتبة باريس .

[177] –هذا الشيخ الذي يذكر أن نفوذه كان كبيرا، لا يوجد فيما لدينا من مراجع شيء يذكر أصله؟ مكان ولادته؟ وفاته؟ يذكر بصفة غامضة هنا وهناك تحت اسمه النسبي هذا:الحضرمي، كان يسمّى أحمد بن يعقوب (وحسب مخطوطات أخرى عقبة) الحضرمي أمّا الإسم الحضرميّ (النّسبي:بياء النسبة) يطلق على العديد من كتاب الغرب خاصّة:عبد الله القرطبي الحضرمي، أديب متوفي بقسنطينة سنة 636هـ 1239م، وابن عصفور الحضرمي لغوي ومؤرّخ توفي بتونس سنة 607هـ1211م إلخ...لا أحد منهم يناسب الحضرمي المذكور من طرف سيدي الشيخ ماعدا الحضرمي أحمد بن عقبة المتوفى سنة 854هـ1450م الذي يذكره أحد الشُرَّاح بالهامش فقط(مِمَّا هو بِحَوْزَتِنَا).

[178178]– نفس الملاحظة بالنسبة للشيخ الغرافي.عندما نَخُوضُ بحوثا من هذا القبيل، نلاحظ أن كتّاب السير والتراجم الصوفية السابقين(القرن9هـ15م) لم يدوّنوا إلاّ مؤسسي الطرق أو من لعب دورا تاريخيا جديرا بالإهتمام .
مشكلة أخرى:أن سيدي الشيخ لا يذكر في سلسلة التوريث (التبليغ) سابقيه في الطريقة الشاذلية حسب أسمائهم وألقابهم وكنياتهم إلخ، وإنما في أغلب الأحيان تحت إسم مجازي مستعار. فتصعب معرفتهم في مراجع التراجم:لا في طبقات الشعراني ولا في "الاستقصاء" للناصري، ولا في الكتب التي ألفها المستشرقون مثل كتاب (مارابو وخوان Marabouts et Khouan) رينّ Rinn ، ولا في كتاب "الأخويات Les Confréries" لِدوبون وكوبولاني Dupont et Coppolani. يمكن أن يكون هذا الشيخ الشاذلي – حسب بعض البقايا التي التقطناها من هنا وهناك – هو صوفي قرافة (وليس غرافة كما نكتبها أحيانا) وهي قرية في مصر السفلي. نرجو من الباحثين المغاربيين للجيل الشاب أن يقوموا بمثل هذه المهمة لإثراء تراثهم الثقافي وملء هذه الفراغات المؤسفة.

[179]- ابن عطاء الله تاج الدين أحمد السكندراني. واحد من الوجوه الأكثر تمثيلا ليس فقط للطريقة الشاذلية لكن للصوفية بصفة عامة . تلميذ لأبي العباس المرسي وياقوت العرشي، توفي سنة 707هـ 1307م في قرافة المذكورة أعلاه. ندين له بعدّة مؤلّفات مطبوعة بالقاهرة، الحكم (طبعة 1353)، الله (1348)، تاج العروس (1353)، الأنوار في سقط التدبير(1353) ، مفتاح الفلاح (بهامش كتاب لطائف المنن للشعراني،المجلد2)(1357)، مصباح الأرواح(نفسه).

-132-مَعَارِفُ مِنْهُ لِلْوَرَى وَمَوَاهِبُ فَحَازَ بِهَا مَجْدَ الْعُلاَ وَ الْجَلاَلَةِ

-133-إِلَى الشَّاذُولِي[181] السَّامِي أَبِي الْحَسَنِ الَّذِي بِحَوْزِالْكَمَالِ أَضْحَى بَحْرَالْحَقِيقَةِ[182]

---

[180] – أحمد حلّة: حاولنا شرح ذلك "أحمد المشرّف بالحلّة: لباس" وهو الحلّة التي ألبسه اياها شيخه أبو الحسن الشاذلي ليجعل منه خليفة له. لكن نكون ربما قد حملنا النص مبالغة.
المعنى يفهم عموما:العلوم التي بالتوريث "استوعبها" فأصبحت وديعة عنده(حلّت فيه) وللرجوع إلى أحمد أبي العباس المرسي:فهو أحد كبار الوجوه الصوفية التقليديين:ولد في مرسية وتوفي في الأسكندرية سنة 678هـ/1280م وهو التلميذ المفضل عند مؤسس الطريقة: الشيخ أبو الحسن الشاذلي الذي قبل أن يُلْبِسَه حُلَّتَهُ الخضراء لخلافته،كان قد زوّجه ابنته، وكان الشيخ أبو الحسن يقول وهو يعنيه:"كتبي أصحابي". تكلمنا عن حياة أبي العباس المرسي في كتابنا: "بحث عصري في العقيدة الإسلامية"(فصل الصوفية). نُقِلَ، عنه الكثيرمن الحكم والأحكام والتأملات، كان يقول:"من يعرف نفسه حقا، يعرف ربّه" "من يضحي بنفسه ويسيطر عليها يظهر الله مستواه وقوته" "الفقيه الحقيقي هو الذي يتوصّل إلى تمزيق الحجاب الذي يغطي عيون قلبه" "جميع الأنبياء ولدوا من رحمة الله. أما نبيّنا صلى الله عليه وسلم فهو عين الرحمة نفسها" "الرجال الحقيقيون هم الصوفيون في الليل.كلّما تكثف ظلام الليل كلما ازداد نورهم بالضرورة" ضريحه موجود في مكان مخصّص بمسجد رائع شيّده لشرفه ملك مصر العظيم فؤاد الأول بالأسكندرية.
في هذا الصدد سنفتح قوسا لنذكر أمرا خاصّا: من نعم الله علينا أن هيّأ لنا في هذه الدنيا ان اُسْتُقْبِلْنَا في هذا المسجد الَّذِي يشعّ بالقداسة(عام1399هـ–1979م) فبعد صلاة الظهر جلست مستندا إلى واحدة من السواري لأذكر سرّا بعض الأذكار. فرأيتني بعدها بقليل محاطا بمجموعة من الرجال و النساء الذين يطلبون مني أن أدعو الله لهم. ودهشتي كانت أكبر عندما توجه أمين المسجد نحوي وطلب مني دون أن يعرفني أن أشرّفه بمقابلة في مكتبه. فذهبت، وبعد تبادل الكلمات الطيبة وتناول القهوة، قادني إلى ضريح الشيخ الجليل. أحسست بفرح عظيم وشكرت الله على هذه النعمة المكرّمة. مكرمة وهب الله لي في جميع الأماكن المقدسة و الروحانية في الإسلام التي زرتها: الكعبة المشرفة بمكة، بئر زمزم، المسجد النبوي بالمدينة، مسجد السليمانية في اسطمبول، وفي نيودلهي، و الإمام الشافعي وابن الفارض بالقاهرة و ضريح سيدي عبد القادر جيلاني و الإمام الجنيد ببغداد و الإمام علي بالنجف و الإمام الحسين بكربلاء ومولاي إدريس بفاس و الإمام البخاري قرب سمرقند و الشيخ النقشبندي قرب بخارى.هذه الظروف التي أعتبرها علامات تفضيل من الله، سببت لي أفراحا كان أعظمها هو الذي أحسست به و أنا في منبر صغير وسط أكواخ تشكل نوعا من (الضيعة الصغيرة) في وسط الدّغل على بعد 50 كلم من نيامي (1960م).حين كنت أصلي أسرع إليّ أطفال ونساء وأطفال عليهم ثياب لا تكاد تكسوهم وهم يجرون ويصرخون "ألما مي!"(أي الإمام – الفقيه المرابو...)
لم أكن إماما ولا فقيها ولا "مارابو" كما كان يظن هؤلاء الناس الطيّبون الذين أبهرهم ملبسي لكن في قلبي كنت أتذكر – وأنا أدعو لهم الله بخير – أتذكّر الآية الشريفة التي تمجد الله الذي يهيّء القلوب للود وإلى محبة المؤمنين ،انظر القرآن: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}[آل عمران103]. وقد حدث لي أيضا أثناء تجوالي عبر العالم الإسلامي وغير الإسلامي أن أحسّ بالحزن. وأقساها كانت هي التي أرهقتني وأنا أصلي في مسجد قرطبة(سنة 1975م) الذي حوّل إلى كنيسة. حزني كان جيّاشا ومازلت أحس به كلما تذكرّته.
هذا القوس "الخارج عن الموضوع "أحسست به وأنا في مسجد أبي العباس المرسي الموجود غير بعيد عن مسجد الشيخ البصيري حيث قضيت ساعات من السعادة الحقيقية قبل أن أقوم بترجمة مشروحة "للبردة "(قصيدة مدح الرسول صلى الله عليه وسلم).

[181] - الشاذلي (بضم الذال وليس بكسره ولاتسكينه) كما يكتبه أو ينطق به البعض (انظر سابقا) هو أبو الحسن علي عبد الله بن عبد الجبّار الملقب بالشاذلي مؤسس الطريقة التي تسمّى باسمه وتعليمه والمثّل الذي أعطاه في حياته. كان له تلاميذ كثيرون منهم الشيخ أبو العظائم المدفون في القاهرة وأبوالعباس المرسي الذي تكلمنا عنه آنفا. وقد خصصنا له فقرة في كتابنا "بحث عصري في العقيدة الإسلامية" وأدخلنا ترجمة لبعض أقواله، ويمكن أيضا الرجوع إلى المقال الذي خصصه له الشعراني في طبقاته (مجلد2 ص104إلى112). نذكر بسرعة أنّه :
-1- كان من بلدة "شاذلة " فرع من قبيلة بني زروال من الشمال المغربي نشأ في غمارة قرب سبتة حوالي سنة593هـ–1197م. منذ طفولته ولع بالدراسة، من بين شيوخه الكثير من تلاميذ الشيخ الجنيد كالشيخ أبي علي بن حرزهم (الذي سنتطرق إليه) هو نفسه تلميذ للشيخ أبي مدين شعيب (العبّاد:بتلمسان) وخاصة الشيخ عبد السلام بن مشيش .
من فاس انتقل إلى الشاذلية (أو شادلية) بلدة في السلسلة الجبلية بزفران في تونس، ومروره بهذه القرية جعل بعض الناس يلقبونه دون دراية: شادلي. منها انتقل إلى الاسكندرية، ثم القاهرة التي جعلها مقرّا له. حج عدّة مرات إلى مكة وتوفي عند رجوعه من آخر حجّة له في "الحميطرة" بصعيد مصر سنة 656هـ–1258م.قبره بنيت عليه قبة جميلة بناها"مملوك"أصبحت مزارا مرتادا.

-134- عَنِ ابْنِ مَشِيشٍ قُطْبِ دَائِرَةِ الْعُلاَ[183] عُبَيْدِ السَّلاَمِ ذِي الْعُلُومِ الرَّفِيعَةِ[184]

-135- عَنِ الصَّدْفِي[185] الْمُرْضِيِّ غَوْثِ زَمَانِهِ أَبِي يَزِيدَ النَّحْرِيرِ تَاجِ الأَحِبَّةِ

-136- عَنِ الشَّيْخِ شَيْخِ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ[186] أَبِي أَحْمَدَ السَّنِّي[187] بَدْرِ السَّعَادَةِ

-137- عَنِ السَّيِّدِ الَّذِي أَقَرَّ بِفَضْلِهِ أَئِمَّةُ[188] مَنْ مَضَى مِنْ أَهْلِ الْوِلاَيَةِ

يجدر أن نحفظ من فكره الصوفي، اتّباعه المضبوط للشريعة الإسلامية، الحياة التأملية بالدعاء و التضرع، الصلوات الكثيرة، كثرة الأذكار، تمارين الجذب والوجد، انكار الشعوذة و الاهتمام بهندام خارجي مقبول حتى لا يستعطف الناس أمثاله أو محاولة استغلال المسكنة و العوز بين الجماهير الشعبية .

طريقته أنجبت حوالي خمس عشرة "أخوية"طريقة صوفية من بينها و أهمها في إفريقيا الشمالية الشيخية، وفي المشرق: برهانية الدسوقية (مصر و السودان).

-2- لقد ترك مؤلفات منها: أ – الوصية وهي بحث تربوي نظمه من أجل أتباع طريقته .

ب– المقدمة الغازية (أو الغاذية)

ج– كتاب الأخوّة

د– صلاة الفتح و المغرب.

هـــ– وأحزاب عديدة (أوراد) نذكر منها:حزب الفتح وحزب النور و الحزب الكبير وحزب البر وحزب الطمس وحزب النصر و اللطف وأدعية ...زيادة على المراجع المذكورة، أعلاه يمكن الرجوع إلى العمل الموثوق وإن كان سطحيا لمحمد بن شنب (دراسة للشخصيات المذكورة في " الإجازة " الشيخ عبد القادر الفاسي (طبعة باريس 1907) .

[182] - بحر الحقيقة : إسلاميا هذه العبارة مرفوضة نتيجة للمبالغة فيها، في رواية أخرى : مجرى الحقيقة. يجب أن نفهم : ألقى بالنور في بحر الحقيقة .

[183] – قطب:يمكن أن نتكلم عن القطب مع الشكل الكروي وليس الدائري .

[184] – عبد السلام بن مشيش: هو شريف من ذرية الإمام علي بن أبي طالب عن طريق الأدارسة بالمغرب.هو واحد من الصوفية المشهورين بالمغرب العربي. لقد نشر تعاليم الشيخ الجنيد صاحب بغداد وشعيب أبي مدين وليّ تلمسان. فمن فاس التي يكون قد درّس فيها بعض السنوات انتقل إلى جبال غمارة ، منطقة الشيخ الشاذلي وهناك تعرف عليه وجعله تلميذا له.

إنّه عالم عامل مشهور بورعه واستقامته. اغتيل من طرف الجماعات البربرية بتحريض من صاحب " المعجزات " محمد بن أبي الطواجين أصله من قبيلة كتامة. هذا العابد المزوّر كان يمارس السحر. كان يسلب عقول الجماهير الشعبية بأدواره السحرية التي يدّعي أنها معجزات وادّعى النبوّة .

الشيخ ابن مشيش أنكر عليه خُزَعْبَلاَتِهِ و خداعاته واتهمه بالمبتدع. فاستأجر هذا الماكر مجرمين ليقضوا عليه. اغتاله سنة625 هـــ1227م. قبته أصبحت مزار قبائل غمارة.

المرحوم و الصديق الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهرسابقا (توفي سنة 1397 هـــ 1977م) كان شاذليا بحق وقد قام قبل موته بترجمة رائعة عن حياة الشيخ الجليل ابن مشيش بعد أن فتش عن وثائق تتعلق بهذا "القطب" الصوفي المغاربي في الميدان سنة 1394 هـــ 1975 م فوجدها محفوظة في زاوية ابن مشيش في بلاد الغمارة. مسترشدا بهذه الوثائق وبكتاب طبقات ابن كحين Ibn Kuhin رأى أن هذا الصوفي الشهير لم يكن يسمّى ابن مشيش ولكن ابن بشيش،كما ذكّر بالعلاقات بين التلميذ و الشيخ أي أبو الحسن الشاذلي وابن مشيش وعلاقة هذا بشيخه عبد الرحمن المدني و نبّه بالأهمية التي كان يوليها الشيخ ابن مشيش للعبارة "لا إله إلاّ الله" أنها الإستسلام المطلق من المخلوق للخالق أي التوكّل و الورع، كما نوّه بآرائه في الزهد و الحب الإلهي . ويختم الكتاب بالوصايا و الحكم .

و المؤاخذة الوحيدة التي يؤاخذ عليها – رحمه الله – أنه نسي أن يخرج عمله الجميل هذا بكل الدقة العلمية المطلوبة (انظر كتاب: القطب الشهيد سيدي عبد السلام بن يشيش – لعبد الحليم محمود. طبعة القاهرة 1976 م) (وارجع أيضا إلى الاستقصاء ،المجلد 2 ص236-237 للناصري، و كتاب الشعرانى المجلد 1 ص 136 المرجع السابق).

[185] - ابوزيد الصّدفي:(و في رواية المدني) هو الشيخ أبوزيد عبد الرحمن الزيات المدني الذي لم تصلنا أية معلومات مضبوطة ماعدا إشارة وجيزة تطرق إليها الشيخ عبد الحليم محمود (المرجع السابق ص 30) .

[186] – في رواية أخرى غامضة المعنى : عن الشيخ شيخهم مريد شعيبهم ...

[187] - لم نجد إلاّ معلومات غامضة عن هذا الصوفي في الوثائق التي بحوزتنا، إلاّ أذا كان هو أبو أحمد جعفر الْخُزَاعِي المعروف باسم "سيدي بونو" مؤسس زاوية " العلش " Elche التي انتقلت إلى غرناطة فيما بعد (بداية القرن 14 م)، كان أحد الناشرين لفكر الإمام الغزالي في إسبانيا المسلمة.(من كتاب:صورة تخطيطية لتاريخ المغرب الديني – طبعة باريس 1951 م)

[188] - إمام: لفظ معروف يعني هنا الصوفيون الأكثر تمثيلا للصوفية .

-138- وَمَعْ ذَاكَ إِنَّ اللهَ أَشْهَرَ ذِكْرَهُ كَشُهْرَةِ هَذِي الشَّمْسِ مِنْ كُلِّ بَلْدَةِ

-139- أَخِي لُذْ بِهِ وَأَصْغِ سَمْعًا لِاسْمِهِ أَبِي مَدْيَنَ إِمَامِ هَذِي الطَّرِيقَةِ[189]

-140- لَقَدْ أَخَذَ الأَسْرَارَ عَنْ قُطْبِ غَرْبِنَا الإِمَامِ أَبِي يَعْزَى نُورِ الْبَصِيرَةِ [190]

-141-عَنْ السَّيِّدِ الأَسْنَى الْهُمَامِ الَّذِي سَمَا أَبِي حِرْزِهِمْ ذِي الإِغَاثَةِ [191]

-142- عَنِ الشَّيْخِ فَخْرِ الدِّينِ[192] نَاهِيكَ فَخْرُهُ أَبِي بَكْرِهِمْ يَحْيَى سِرَاجِ الأَئِمَّةِ

-143- عَنِ الشَّيْخِ شَيْخِ الْكُلِّ سِرِّ هُدَاتِهِمْ إِمَامٍ كَفَيَاضِ الْبُحُورِ وَقُدْوَةِ

-144- بِهِ يَسْتَغِيثُ الْكُلُّ شَرْقًا وَ مَغْرِبًا أَبِي حَامِدِ الْغَزَالِي عَيْنِ الْعِنَايَةِ [193]

---

[189]– الولي الشهير بالعبّاد ولي تلمسان هو شعيب بن الحسين الأندلسي المولود في تاريخ غير محدد في قرية قنتيانة (Cantillana) قرب إشبيلية، توفي سنة 594 هـــ 1197 م ودفن في العبّاد قرب تلمسان. من عائلة متواضعة، بعد إنهاء دراسته بدأ بحرفة النسيج. ولع بالتعليم الصوفي المعطى بفاس حيث ذهب في زمن الموحدين، بعد عدة سنوات من الدراسة ذهب إلى مكة حيث التقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني– حسب بعض المصادر– فشهد له بكثير من المحبّة وعند رجوعه تابع هو بدوره تعلمه للصوفية ثم استقرّ في بجاية. شهرته المتنامية أقلقت السلطان أبو يوسف يعقوب بن منصور الذي أمر حاكمه ليبعث به إليه بمرّاكش، استجاب بطواعية، وودع تلاميذه وسار إليه. قبل أن يصل إلى عاصمة الموحّدين توفي قرب واد "يسّر" في المكان المعروف "بالعبّاد" على بعد بضع الكلمترات عن تلمسان في التاريخ المذكور أعلاه.

سيدي بومدين معروف وحياته بحث فيها العديد من الباحثين فلا داعي لتدوينها هنا أو للتوسع في فكره وحياته الصوفية. يمكن للقارئ أن يرجع إلى كتابنا "بحث عصري في العقيدة الإسلامية" فصل الصوفية، وكذلك إلى كتاب:عنوان الدراية لصاحبه أحمد الغُبْريني (طبعة الجزائر1328هــ / 1910م) حيث نجد حكايات شيّقة حول إقامته وتدريسه وتلاميذه في بجاية. يمكن أيضا الرجوع إلى الشعراني ص 154- 156 .

[190]- أبو يَعزى أو يُعزى: صاحب العزلة وصديق الوحوش والطيور. والمحيّر في الأمر أن المراجع التي أخذنا منها لم تذكر له إسما ولا لقبا. نعرف على الأقل أن أصله من "حذميرة عيروجان" وأنه ينتمي إلى قبيلة بني صُبَيْح فرع للعرش الكبير "حسكورة". كان أحد كبار ملقني الصوفية وكان له نفس نفوذ الإمام الغزالي.

فضّل العيش بين الحيوانات عن مخالطة معاصريه، فالتَجأ إلى الفلاة (الخلاء) يعيش من الثمار والأعشاب الصالحة للأكل مرتديا برنسا أسود مرقعا وبردة من الصوف الخشن و "شاشية" من سعف الدّوم (عزف)، طويل القامة أسود اللون، نحيف جدّا، كان يرفض غذاء الناس وتجارتهم، بعض طبائعه ذكرها الشعراني في طبقاته (1 ص 136) كان يقول: "الأحوال تسيطرعلى أصحاب المظاهر وتتصرف فيهم كيف تشاء، بينما هي محكومة من طرف أصحاب الحقيقة الذين يتصرفون فيها كيف يشاءون"،" إذا بحثنا عن الحقيقة كفضل نكتشفها". تلميذه أبو مدين الذي كان يكنّ له الإجلال العظيم زاره في مسكنه بالبادية فرجع مقتنعا أن شيخه كان أعجوبة دهره. توفي وهو في سن القرن سنة 572 هــ/ 1177م (ارجع إلى الناصري.المجلد2ص184).

[191] - ابن حرزهم:أبو الحسين علي بن إسماعيل بن عبد الله . هو أحد أحفاد الخليفة عثمان بن عفان حسب المصادر. كانت أسرته تعيش منذ زمن طويل في فاس قبل ولادته التي لم تضبط . كان متخصّصا في دراية "الإحياء" للإمام الغزالي. كان يكن حبّا كبير للإمام و كان يُعَدُّ من بين أكثر أنصاره عزما آنذاك، حيث أن بحوثه أثارت جدالا في المغرب العربي (القرن6هــ / 12م).توفي دون شك في فاس سنة 569هــ / 1164م (ارجع إلى الناصري 2 ص184).

[192] – في رواية أخرى شمس الدين . اسم غير كامل صعب تحديده– في المخطوط الذي بحوزتنا قيل أنه الصوفي: أبي بكر بن العربي – قد يكون الكاتب يعني أبوبكر محمد محيي الدين بن العربي صاحب محاولات التوفيق بين المذاهب المختلفة، صاحب نظرية وحدة الوجود، المتوفى بدمشق سنة 638هــ 1240م. وهذا يداخلنا فيه الشك لأنّ "عاشق النجوم" هذا لم يعرف الإمام الغزالي مباشرة كما أنه لم يكن شيخه.

فهل هو إذن أبوبكر محمد بن العربي، الفقيه الأندلسي الشهير المتوفى بفاس سنة 543هــ 1148م؟ وهو الذي كان يتابع تعاليم الغزالي أثناء رحلاته إلى الشرق الأدنى.لكنّه لم يكن صوفيا . زيادة على ذلك لا الأول و لا الثاني لم يكن اسمهما "يحيى". فهل هو خطأ الناقلين أخلط بين محيي و يحيى ؟ أمام هذه الشكوك لا يسعنا إلاّ أن نقول : الله أعلم .

[193]– أبوحامدالغزالي: ولد سنة451هــ1059م في "لوس"بخراسان وتوفي سنة05 5هــ 1111م في نفس البلدة التي لم يبق منها شيئا منذ مرور المغول بها، هو معروف كثيرا ومؤلفاته منتشرة بكثرة و مدروسة فلا يحتاج إلى أن نخصّص له هنا تدوينا عن حياته في عملنا هذا. نشير فقط في هذا الصدد إلى كتاب حديث خصّص فيه كاتبه بويجس Bouygues دراسة عن مؤلفاته تحت عنوان: "محاولة تاريخية لمؤلفات الغزالي– طبعة بيروت 1959م–

-145- عَنِ السَّيِّدِ أَبِي الْمَعَالِي لأَنَّهُ[194] إِمَامٌ إِلَيْهِ يُنْتَهَى فِي الْفِرَاسَةِ

-146-عَنِ الشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ ذِي النُّصْحِ لِلْوَرَى أَبِي طَالِبِ الْمَكِّيِّ نُورِ الْوِلاَيَةِ[195]

-147- عَنِ السَّيِّدِ الْمُرْضِيِّ فِي كُلِّ سَيْرَةٍ[196] إِمَامِ الْجُرَيْرِ ذِي النُّهَى وَ النِّهَايَةِ

-148- عَنِ الشَّيْخِ تَاجِ الْعَارِفِينَ رَئِيسِهِمْ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُنَيْدِ رُوحِ الْمُجَادَّةِ [197]

-149- عَنِ الشَّيْخِ سَرِي السَّقْطِ نَجْلِ مُغَلَّسِ [198] عَنِ الْمَعْرُوفِ الْكَرْخِي نَجْمِ الدَّلاَلَةِ[199]

ومجموعة مقالات بقيم متفاوتة مطبوعة بدمشق (1961 م) بمناسبة مرور تسعة (09) قرون على ولادته. كما يمكن الرجوع إلى كتابنا "بحث عصري في العقيدة الإسلامية"طبعة باريس
1985 ص 444 إلى 448 .

[194] – أبو المعالي عبد المالك بن عبد الله الجُوَيْنِي المعروف باسم إمام الحرمين، وهو أحد كبار الشافعية، ولد سنة419هـــ1058م قرب نيسابور و توفي سنة 478هـــ1085م، لقبه هذا كان عند إقامته بالحجاز حيث كان يدرّس الفقه بمكة و المدينة طيلة 4 سنوات .

ترك عدة مؤلفات: كتاب البرهان في أصول الفقه، كتاب الورقات في أصول الفقه، كتاب الإرشاد الذي ترجم إلى الفرنسية من طرف دومينيك لوسياني (طبعة باريس 938 1). كان ذا ميول أشعري، وكان له تأثير عميق على مواطنه الغزالي، له علاقات جيدة معه حتى موته .

[195]- المكي أبو طالب محمد بن علي، سلفي و صوفي توفي ببغداد سنة 91 2هـــ904م حسب الشعراني(م 1 ص89). وحسب مراجع أخرى أكثر صحّة فإن وفاته كانت سنة 386 هـــ / 996 م. أكبر كتبه "قوت القلوب" من أوائل و من أوجب للعبرة في الكتابات الصوفية، طبع عدة مرّات في القاهرة (في مجلدات سنة 1351 هـــ /1932م) شُرِحَ و ترجم إلى عدّة لغات (انظر أ.ج أربيرى A.J. Arbery تحت عنوان (مذهب الصوفية The Doctrine of the Soufia) طبعة كامبريدج 1935 . أخذ الغزالي عنه الكثير في إحيائه. عدوّ لدود للحلاّج، كرّس حياته كلها في الدفاع عن الصوفية. كما اشتهر أيضا بالدفع الكبير الذي أعطاه لمدرسة السليمية في البصرة التي دامت حوالي قرنين. عرض في "قوت القلوب" عدّة قضايا صوفية وخاصة (التوبة) و (التوكل) و (الشوق).

[196] - المرضيّ (وفي رواية غير مقبولة مُرْضِي جُرَيْري) نسب صعب التفريق حسب هذا الشكل أليس هو الإمام الجريري التلميذ المعروف للجنيد وصديق التستاري، والمتوفي سنة 10 3 هـــ / 922 م (انظر الشعراني 1 –94) .

[197] – أبو القاسم بن محمد بن الجنيد له عدّة ألقاب منها : الكزّاز، القواريري، سيّد الطائفة، طاووس العلماء، تاج العارفين. كان نموذجا للصوفية وأول من وضع معطياتها بطريقة صحيحة، المعرفة، التوبة، الزهد، المشاهدة، الوجد، الحضور. أصله من نهاوند، قضى أغلب حياته في بغداد حيث توفي سنة 297هـــ 910م . وقد سمح الله لي أن أزور قبّته في مقبرة "شونيزية " سنة 1401هـــ1981م . كان ينتمي إلى عائلة شافعية التي تضم كثيرا من الصوفيين من بين أفرادها: سريّ السّقطي، يقال أنه حج ثلاثين مرّة راجلا إلى المسجد الحرام (الكعبة). كان يستعمل السبحة في أذكاره وأدعيته يستعين بها على ضبط عدد المرّات التي يكرر العبارات المرادة .

كان يقول :"الصوفية لها 8 أسس وهي الأوصاف نفسها التي كان يتحلى بها الأنبياء؛ السخاء كما كان يفعله إبراهيم و الرضى كإسحاق و الصبر كما فعله أيوّب و الإشارة رمز ركزياء و الغربة التي عاشها يونس Jean Baptiste (؟) و لبس الصوف على طريقه موسى، والسياحة التي عاشها عيسى و الفقر نصيب محمد صلى الله عليه و سلم .

" القلوب لاتكون أهلا للعالم القادم إلاّ إذا ازدهرت في العالم الحاضر". كما له عدّة أصحاب وتلاميذ مثل المحاسبي (توفي سنة 242 هـــ 857م) كان يرفض تطرف الحلاّج، كان له نفور متميزّ من الشعوذة؛ عند وفاته أمر من يحيط به أن يدفنوا معه جميع كتاباته، فسئل: لماذا ؟ ، فأجاب: "حتى لا ينسب لي ما لم أقل و لم أكتب "

راجع مصادر أخرى، الشعراني (1ص84)– رسالة القشيري (طبعة دمشق 1290 هـــ المجلد 1 ص 139) وطبقات الصوفية للسلامي (طبعة القاهرة 1389هـــ 1969 م) في عدّة مقاطع، ارجع إلى فهرسه ص 31 5 – جامع نفحات الأنس لنفس المؤلف – و الوفيات لابن خلّكان و تذكرة الأولياء لابن عطّار ، و كشف المحجوب للهجوايري – وكتابنا " البحث العصري ".

[198]- أبو الحسن السّري بن المغلّس السّقطي، من كبار شيوخ الصوفية، متمسك كثيرا بالسنّة، توفي في بغداد سنة 258 هـــ 871م و حسب مصادر أخرى 253هـــ 867 م . هو عمّ الشيخ الجنيد. كان له تلاميذ آخرون ماعدا هذا الأخير و هم من المشاهير مثل النوري، و الحراز والنصّاح . هذا الإسم " السقط " معناه بائع الخردوات. كما يلاحظ أن جميع الصوفيين الذين هم من مدرسة بغداد كانوا آنذاك حرفيّين مما يدلّ على أن الصوفين لم يكونوا يسمّون بأسماء تميز علمهم كعلماء عقيدة أو فقهاء؛ من بين شيوخه المحاسبي، وأكبر خصومه كان العنيد ابن حنبل الذي في تَشَبُّـــثِهِ حول عدم خلق القرآن، انكر عليه قبوله لخلق حروف النص القرآني. النقاط الصوفية التي ركّز عليها هي :العزلة والورع؛ كان يطالب بمراقبة أخطاء النفس بدل مراقبة أخطاء الناس. تعرف على عدة صوفيين

-150- إِلَى دَاوُدَ الطَّائِي الَّذِي فَاضَ عِلْمُهُ[200] عَنِ الْعَجَمِيِّ حَبِيبِهِمْ ذِي الإِنَابَةِ[201]

-151- إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِي الَّذِي فَاقَ نُورُهُ[202] نُجُومَ الدُّجَى و نُورَ كُلِّ مُنِيرَةِ

-152- إِلَى سَيْفِ[203] رَبِّنَا الْمُهَنَّدِ لِلْعِدَا وَبَابِ مَدِينَةِ[204] الْعُلُومِ الْجَلِيلَةِ

-153- أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ صَهْرِ نَبِيِّنَا[205] عَلَيْهِ رِضَاءِ اللهِ فِي كُلِّ لَمْحَةِ

-154- إِلَى تَاجِ مَنْ أُوفَى الْقِيَامَةَ جُمْلَةً وَنُورُهُ عَيْنُ الْكَوْنِ مِنْ دُونِ مِرْيَةِ

-155- مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى النَّاسِ رَحْمَةً وَمَعْدَنِ أَسْرَارِ وَعُنْصُورِ نِعْمَةِ

-156- عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ بِدَال دَوَامِ[206] الْمُلْكِ فِي كُلِّ لَحْظَةِ

في بغداد خاصة معروف الكرخي وكان كثير الأسفار خاصة إلى سوريا. كان يريد أن يعيش حسب عبارة معروفة: " تحمل كل أحزان العالم" (انظر ابن الجوزي في كتاب تلبيس إبليس طبعة القاهرة 340 1هـ ص 180 وكتاب التذكرة لفريد العطّار (1 ص 274 إلى 284، و كتاب طفحات الشعراني ص 84-85 و رسالة القشيري ص 83 إلى 88، وطبقات السّلامي ص 48-55 .

[199] – معروف الكرخي أبو محفوظ بن فيروز أو فيروزان هو أحد الوجوه المرحة من الصوفية البغدادية للقرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي؛ إنه صوفي أمّي (كان يسمى أمّي كرخ: حي مشهور في بغداد) و هو يحتل مرتبة هامة في تاريخ الصوفية. تأثر به السقطي تأثرا عميقا. كان يصلي عشر مرّات في اليوم لكي يحقق الله السلام للأمة المؤمنة. "حبّ الله لا يتعلم من الرجال، إنه موهبة من الله ويأتي من فضل الله " و كان يقول أيضا : " يعرف الأولياء بثلاث علامات : همّهم في الله، مصالحهم هي عند الله، واستشرافهم نحو الله" "يجب على الصوفي أن يأخذ الحقائق نهارها الصحيح و يرفض ما في يد المخلوقات" و كان يقول : "ما أكثر الأولياء و ما أقل الصادقين" توفي في بغداد سنة 00 2هـ /815 م. ضريحه معهود من طرف الزوار، كثيرا ما يأتون ليصلوا عنده صلاة الإستسقاء. ارجع إلى القشيري في رسالته ص 79-82 و تزكية ابن العطار 1 ص 269. ووفيات ابن خلكان و معروف – و كتاب كشف المحجوب للهجوايري طبعة لننغراد 1926 ص 141 و كتاب الشعراني المذكور سابقا 1 ص 72 و كتاب نفحات الأنس للأعجمي طبعة ليس LEES ص 42 وطبقات السلامي انظر الفهرس ص 547 .

[200] – الطائي أبو سليمان داود بن نصير: توفي في بغداد سنة 65 1 هـ 782 م. عاش أعزب في فقر مدقع، كان يقول: " أستحي أن أطلب من الله أن يدخلني الجنة إنه يعلم عملي وبؤسي وحده " أصله من الكوفة، كان يقضي كل وقته في الدراسة، كان يجالس أحيانا أبا حنيفة قبل أن يتفرغ لحياة الزهد. قبل أن يموت رمى بجميع كتبه في الفرات (انظر الخطيب البغدادي في كتاب تاريخ بغداد طبعة القاهرة 1355 هـ المجلد 11 ص 221 و الشعراني ص 76 و القشيري 97 طبقات السلامي ص 85 ج 1 .

[201] – الأعجمي حبيب اسم غامض لايمكن تعريفه . اسم حبيب يشترك فيه كثير من الصوفيين أما الأعجميّ فإنه يدل عموما على الإرانيين مثل أبي عبد الله التزميري و أبي علي البلخي، وأبي القوارس الكرماني إلخ ...أنّه دون شك أكثر تلاميذ الحسن البصري وفاء،عاش بالبصرة و توفي فيها (أو في بغداد) حوالي سنة 56 1 هـ / 773 م .\

[202] – الحسين بن الحسن الشيّاز أبو سعيد البصري، أحد السلطات الصحيحة للجيل الأول، ومرجع موثوق للصوفية عموما. مشهور في كتب مبادىء الفكر الإسلامي بعلمه و تقواه وبلاغته كما بشجاعته. ولد بالمدينة (سنة 21 هـ 642 م) توفي بالبصرة سنة 110 هـ 789م . تلميذ لمالك إبن أنس، أظهر طيلة حياته حذره المثالي في ناحية العقيدة ووفاءه للسنّة وزهده في الدنيا. هو أحد أحسن القائلين في الورع. كثير من حكمه و أحكامه نقلها الشعراني (انظر 1 / 29) الذي لم يعط شيئا مضبوطا عن حياته، أما القشيري فإنه لم يذكره حتى، أما السُّلامِي فقد خصّص له ملاحظة وجيزة غير كافية (ص 52 2 الملاحظة 18)، أما المعتزلة فيعترضون عليه خطأ. خصصنا له فقرة في " بحثنا العصرى " فارجع إليه و إلى كتاب ملل الشهرستاني ووفيات ابن خلكان .

[203] – يلمّح لسيف الإمام عليّ (رضي الله عنه وكرم وجهه)، المسمى "ذو الفقار"، والذي أصلا كان في حوزة الكافر منبّه الحجّاج. كان مفقرا وذا حدّين، كان يُضْرَب به المثل فيقال: "لاسيف إلاّ ذو الفقار"، كان ضمن غنائم بدر فأعطاه الرسول للإمام عليّ ثم انتقل فيما بعد إلى العباسيين. أشار إليه خاصة إبن سعد في الطبقات و الترمذي في الشمائل في فصل " سيف النبي ".

[204] - الأمر يتعلق هنا بمعنى مجازي وليس المدينة المنوّرة .

[205] - علي (كرّم الله وجهه) و محمّد (صلى الله عليه وسلم) هما الحلقتان الأخيرتان "من سلسلة الذهب لسيدي الشيخ ". فلا هذا و لا ذاك يحتاجان إلى أيّة معلومات. إنهما أحدهما رسول الإسلام و الآخر "سيفه" كل حسب رسالته و الإرادة الإلهية لنصرة دين الله على الكفر و السيئات و الفراغ المعنوي .

[206] - حسب المعنى الرمزي الذي يرتبط بحرف " الدال " بمعنى " دوام " .

المعنى الصوفي الذي يرتبط ببعض الحروف و بعض الأعداد لاستخراج معرفة باطنية لا تستوعب إلا لدى كبار الملقنين للطّريقة. ذلك هو الحال لاسم الله الأعظم، ولبعض الرموز وبعض العبارات التي يجد فيها الجاهل أو الخارج عن الطريقة تلميحات وإشارات في الدعاء والأذكار للشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي كان يقول: "أدعوك بالرموز والأسماء العليا وفواتح سورة البقرة، و الحروف الاستفتاحية وخواتيمها، وما ارتبط بسرّ "الحاء" الموجب للرحمة والميم للملك والدال للدوام ...إلخ

-157- فَعَنْ جِبْرِيلَ الأَمِينِ عَنْ إِسْرَافِيلَ قَدْ[207] تَلَقَّى مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ الأَمَانَةِ [208]

-158- عَنِ الْقَلَمِ الْمَأْمُورِ بِالْخَطِّ لِلَّذِي [209] قَدْ كَانَ وَ مَا يَكُونُ مِنْ كُلِّ ذَرَّةِ

التعليمات الأخيرة

-159- وَكُلٌّ بِأَمْرِ رَبِّنَا وَ قَضَائِهِ فَسَلِّمْ وَصَدِّقَنَّ وَاحْكُمْ بِصِحَّةِ

-160- وَإِيَّاكَ وَ التَّعْنِيتَ وَ الحَسَدَ الَّذِي يُنَافِي الْكَمَالَ عَنْ صَمِيمِ الْعَقِيدَةِ

-161- فَإِنَّ مَوَاهِبَ الْكَرِيمِ تَعَاظَمَتْ لَدَيْنَا مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنَّا وَ قُوَّةِ

-162- وَإِنْ قُلْتَ مَا الَّذِي أَنَالَكَ فَضْلُهُ فَفَضْلُ الإِلَهِ لاَ يُنَالُ بِحِيلَةِ

-163- عَلَى أَنِّي لِلتَّقْصِيرِ وَ الْعَجْزِ حَيْثُمَا حَلَلْتُ مُلاَزِمًا وَفِي كُلِّ حَالَةِ[210]

-164- وَلَسْتُ بِذِي نَحْوٍ وَلاَ عَرُوضٍ لِمَا يَرُومُهُ[211] مِنْ قَرِيضِنَا ذو الدِّرَايَةِ

-165- فَعُذْرًا[212] لِمَنْ رَامَ(ى) انْتِقَادَ ظُهُورِنَا فَلَمْ نَعْدُ عَنْ أَوْصَافِنَا الْبَشَرِيَّةِ

-166- وَمَنْ رَأَى مِنْ عُيُوبِنَا فَلْيُدَارِكْهَا بِحِلْمٍ وَلْيُصْلِحَنْهَا بَعْدَ التَّثَبُّتِ

-167- وَلَوْلاَ الْكَرِيمُ جَادَ مِنَّا بِفَضْلِهِ لَمَا فَاهَ[213] مِنَّا ذُو الْعُلُومِ بِقَوْلَةِ

-168- وَلَكِنَّ سِتْرَهُ مِنْ مَسَاوِينَا جُمْلَةً[214] وَأَظْهَرَ مَا بِهِ النُّفُوسُ اطْمَأَنَّتِ

-169- لَهُ الْحَمْدُ أَوَّلاً وَآخِرًا مِثْلَ مَا لَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أَسْدَى مِنْ فَضِيلَةِ

-170- قَدِ انْتَهَى بِنَا الْقَوْلُ نَظْمًا فِي كُلِّ مَا نُحَاوِلُ مِنْ تَحْصِيلِ جَمْعِ الْقَصِيدَةِ

-171- وَسَمَّيْتُهَا -الْيَاقُوتَ- رَفْعًا لِقَدْرِمَا تَسَلْسَلَ فِيهَا مِنْ شُيُوخٍ عَدِيدَةِ

-172- مُعَرِّفَةً لِشَأْنِهِمْ وَ طَرِيقِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ ذَوِي الأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ

-173- عَلَيهِمْ رِضَاءُ رَبِّ الْعَرْشِ بِمِثْلِ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا وَأَزْكَى تَحِيَّةِ

-174- وَأَهْدِي الصَّلاَةَ وَ السَّلاَمَ مُسَرْمَدًا عَلَى كُلِّ رُسْلِ اللهِ أَهْلِ النُّبُوءَةِ

-175- وَأَضْعَافُهَا عَلَى النَّبِيِّ مُحُمَّدٍ إِمَامِ الرُّسْلِ الْمُجْتَبَى بِالْوَسِيلَةِ

-176- هُوَ النَّبِيُّ الْمَبْعُوثُ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ[215] وَحَامِلُ لِوَاءِ كَمَالِ الشَّفَاعَةِ[216]

(ارجع إلى كتاب لطائف المنن بالهامش فصل الدعاء المجلد 2 ص 47: "رب إنا ندعوك بآيات القرآن وبسرّ 78 إلخ ... (انظر"حزب النور" بكتاب لطائف المنن بالهامش 2 / ص 150) .

[207] - جبريل واسرافيل: مَلَكَانِ مُقَرَّبَان (رئيسا ملائكة) حسب علم الملائكة عموما و مسألة الملائكة حسب العقيدة الإسلامية والمفكرين المسلمين انظر كتابنا "بحث عصري " فصل الملائكة ص 63 إلى 77 وأيضا ترجمتنا للقرآن وشرحه في السورة 35 (عنوانها). (سورة فاطر الآية الأولى) .

[208] – هنا يعني القرآن .

[209] – في رواية القلم المنير . الكريم : أي الله .

[210] - معنى البيت ليس واضحا: معنيان محتملان: أ –رغم عجزي و تقصيري حيثما كنت وفي أية حالة كنت عملت على هذا الإستحقاق.
ب– عند نظم هذه القصيدة حاولت أن أكون جادّا و موجزا رغم عجزي...

[211] – في رواية أخرى أرومه.

[212] - في رواية أخرى فعذري.

[213] - في رواية أخرى لما فاه منا ذو اللام – وأخرى لما فهنا من هذا.

[214] – في رواية أخرى لكنّه الستّار منّ بستره

[215] - نقول : كلّهِ

-177- وَآلِهِ وَ الأَصْحَابِ ثُمَّ جَمِيعِ مَنْ قَفَا نَهْجَهُ الْقَوِيمَ فِي كُلِّ لَحْظَةِ

-178- صَلاَةً تَمْلأُ الْمُلْكَ عَدًّا وَوَزْنَةً كَذَا مَا فَوْقَ الْفَوْقِ وَأَسْفَلَ ظُلْمَةِ

انتهى نصّ المنظومة وانتهى تصحيحها بحول الله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعالي، دام شأنُه.

يوم الإثنين 23 من شهر جمادى الأولى عام1406هـ الموافق عام 1986م بمدينة باريس.

سيدي الشيخ : الجلالة.*

تصحيح نصّ الذكر و ترجمة (فرنسية) مشروحة

– نص دعاء الجلالة يُتْلَى قبل صلاة الصبح (قبل طلوع الشمس) و بعد صلاة المغرب.

– هي منظومة القطب الرباني إمام الصوفية و فجر الطريقة الشاذولية سيدنا عبد القادر ابن محمد المعروف بسيدي الشيخ نفعنا الله ببركاته .

– نصها وما يستحقّ من تعليقات و تلخيصات و اختلاف روايات وما تقتضي من شروط في ترتيلها .

مقدمات : الشروط قبل الذكر

-1- طهارة البدن كما لو أنّك تريد الصلوات الخمس .

ترتيل بصوت مرتفع للعبارة الاستعطافية

-2- بسم الله الرحمن الرحيم – بسم الله السميع العليم

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم — بسم الله الرحمن الرحيم

-3- الفاتحة (مرّة)

-4- الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إنّ ربنا لغفور شكور ** (3مرات)

-5- إن الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه و سلموا تسليما (3 مرات) (الأحزاب 56) *** .

-6- التوحيد : لا إله إلا الله (100 مرّة) ****

---

[216] - في رواية أخرى : كامل الشفاعة، انظر القرآن {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [النساء85] والحديث:« شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»:رواه احمد وصححه الترمذي عن أنس بن مالك ، وابن حبان، والحاكم ، ووافقه الذهبي.

* إنها المنظومة الأكثر شعبية لسيدي الشيخ . ففيها التعبير عن الضعف البشري، وإيئاس الانسان المحروم من العون الإلهيّ وبحث عن فضل الله . ونظمها ، عند الدراسة، له تسلسل روحي تام: التضرع إلى الله ليجعل من ذكره محورا لحياته، استحضارعظمته و صفاته العليا، وطلب رحمته ورضاه.دعاء في الصباح أو ليلا، متوازنة قبل أو بعد أداء الصلاة فذّا أو جماعة (الحضرة) منظومة شعبية نتيجة انتشارها العريض وبلغتها التي تعتمد على اللغة الفصحى كما أنها تحتوى على اللهجة المحلية. تقطيعها يخضع لسوابق

**** هذه عبارة التوحيد والعظمة الالهية مذكورة في عدة آيات قرآنية وتكرر كمطلع من طرف الذاكر بعد كل بيت {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[طه7] ــ {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد19] – {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر22] – {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التغابن13] إلخ ...

7- في رواية أخرى : قراءة حزب الفلاح بدأ بقوله تعالى:" قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون" (سورة المومنون آ 1 وما بعدها) .

8- ثم إنشاء المنظومة : فرديا أو جماعيا في الأوقات المعلومة بالوزن المعروف بنفس البحر الله الله الله (6مرات في شطرين)

1-يا الله خلخل قلبي في هوى ذكرك لهواك قلت يارب بالمرصاد لقاك

2-خلقني للتعريف عبيدا لك ضعيف ألطف بيّ يالطيف بالرضى يوم لقاك

3-أَوْقَفْتَنِي للحساب ولا أعرف الجواب ياالله ياوهاب اجعل مأواي رضاك

4-اذكروا ياعابدين ذكر حضرة العشاق هي وهبة الفاكرين تضوى القلوب بالاشراف

5- راه وقتها مشهور بعد فرضي مولاك قبل سراج الطلوع عالج بها هواك

6- ثم بعد الغروب كن في ذكرها مرغوب تأتك من الغيوب مواهبها تضوي

7- سندها معقول عن الحضرمي منقول استمدّها فحول عن الحبيب تُروى

8-أهل السلوك ملوك فرسان في الحضرة يصبغوك بغير الكوك من شافهم يبرى

9-بسرّحضرتهم ياتوك والعاشق فيهم يضوى بنور همتهم يسقوك من جاء لهيكلهم يروى

10-بدايتها يروق بروائح في القلب تجلى نهايتها شروق في علم الغيب تضوى

11-التسليم ليك رضى والأدب فيها يوالي اشغل بها هواك تَصْفَ بها أحوالك

12-يارب طلبتك بأحمد الحبيب بجاهه قصدتك تغفر لنا يامجيب

13-محمد الشفيع جاء بالحق بشير وبالوعد يقول وبالوعيد نذير

14-صلى عليه الإله بسلام كثير مااحتوى علم الله وبجلاله كذا يسير

15-هو فضل الإله من نوره يقدح رحمة لما سواه به الجنان يفتح

16- ياالله وصفك عالي ياالله بلا إدراك ياالله زيّن حالي ياالله بلا إهلاك

17- تعلّيت يالتعالى تنهرب بالتقديس واحد في الأزل لا تسهى تنسى

18- يا الله ياذا الجلال والجمال والكمال تحيّرت العقول في كنهك ولامثال

19- يا الله أنت ربي يا الله مالي غيرك يا الله نورّ قلبي يا الله برحمتك

20- يا الله وجهت قلبي لك يا جوّاد اسقني من بطن الغيب ووفقني للمراد

21- يا الله اغفر ذنبي يا الله يوم حشرك يا الله استرعيبي يا الله برحمتك

22- يا الله انظر فينا نظرة يا لطيف بالعباد جدّد لنا حضرة واسقنا كاس الوداد

23- يا الله طب المعلول يا الله بجاه الرسول يا الله اشف المعلول يا الله وفّ ذا القول - تمّت و بالله عمّت-

1- الله الله الله الله الله الله (ثلاثمائة مرّة) (وحسب حضرة أخرى 100مرة).

2- يا الله يادائم ياحيّ ياباقي لاتجعل فينا ولامنا محروما ولا شاق

اللهم اجعلنا في الدنيا مهتدين ومن الحلال مرزوقين ومن الحرام محفوظين وعلى الطاعة واقفين وبالشهادة ناطقين وفي الآخرة مرحومين وفي القبر مؤنّسين وعند السؤال ثابتين وفي الحشر آمنين

وفي الميزان راجحين وعلى الصراط جائزين ومن الحوض واردين وفي الفردوس نازلين وفي العلّيين

ساكنين وفي وجهك ناظرين برحمتك يا أرحم الراحمين يارب العالمين.

3- اللهم صلّ على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وسيّد المتقّين ورسول رب العالمين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

4-{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات180-182]

ملحق و ملاحظات

النص السابق يعتمد عموما على الآيات القرآنية. وهو خليط من اللغة العربية الفصحى والعامّية المحلية، خليط يصعب أحيانا فهمه نظرا لعدم الترتيب النحوي والصرفي والإعراب وعدم التوازن الشعري. إنه نظم ينشد غالبا فردياأو جماعيا فهو مملوء بالتحريف المخلّ أحيانا ليس بسبب المؤلف ولكن بسبب الناشد الذّي يهتمّ بأنغام الأبيات أكثر من اهتمامه بضبط وصحّة النص. لذلك وجدنا روايات كثيرة مختلفة في أبياتها وأسطرها وترتيبها وتعابيرها. لذلك نعترف بأن(ترجمتنا) لنفس الأسباب مشوبة بالأخطاء الإملائية...

البيت1: راجع القرآن {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [يونس45]- {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر14].. لقاء روح المريد مع الله (موجود كثيرا في القرآن) يذكر ببعض الملاحظات الصوفية، فحسب الكلباذي لفظ "لقاء" له نفس المعنى "الوجد" فهو في نفس الوقت حالة عقلية حيث تحسّ الروح بأنها "تفحص" في رُؤَاها وأذواقها وأشواقها من الناحية العاطفية تحت النفوذ و السلطان الكامل لنشوتها وسكرها. وبمراعاة المحافظة على مفهوم الكلمة العادي هو:(ملاقاة المؤمن بعد الموت مع الله).

البيت 2 و3 :في رواية،لانعرف.راجع القرآن:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام20] – {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة118]- {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد21] - {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الشورى6] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد7]- {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور27]...

تعريف: المعلومة وبصفة أوسع المعرفة، وبالنظر إلى اشتقاق هذا اللفظ علينا أن نؤكّد من بداية هذا الشرح الموقف العقائدي السني (الأرطدكسي) والصوفي اتجاه: المعرفة، فعند الصوفية الفعل"عرف" له معنى اصطلاحي يختلف ويبتعد عن معناه عند السنّة. في الفقه السنّي المعرفة هي استيعاب طبيعة شيء عن طريق العقل، تعلم فكرة وحقيقتها بالنسبة لغيرها، دورها، قيمتها. وفي الصوفية معرفة كهذه إن كانت عقلية فقط فهي سطحية، خارجية عن موضوعها وغيركافية. وهي ليست مقبولة إلاّ إذا كانت "مشاهدة الله"، تتداخل تذوب في الشيء وتتحول إلىالحياة لكي يعرف الكائن نفسه في "المعرفة". يمكن القول أن مسألة المعرفة جميعها مطروقة في البيت. هناك الكثير مما يقال حول هذا الإدراك للمعرفة الباطني أوالظاهري عند الصوفية في الاسلام، وعند مفكري الهند وإيران واليونان إلخ ...

-البيت 4: الذكر الذي أمر به الله في كل حين عبّر عنه في القرآن مرّات عديدة: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} [البقرة152]و {وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة231]/ {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [آل عمران41]و {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف74]و {وَاذْكُرْ رَبَّكَ

فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف205-206] و {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم11] و {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الحج35] و {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [الأحزاب4] و {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [الأحزاب41] {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر45] {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات55]و {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ[المائدة110]إلخ.

هذا الذكر هونفسه حركة صادرة من الروح تقدّم لله في وثبة ودّية(حبّ) حبّ هو نفسه نداء الصوفي لربّه قصد رضاه، حبّ لا يستوجب التبادل. الذكر شهادة عاكسة مطابقة للحب، شهادة لفضل الله العظيم في الأرواح، وللإرتباط السرّي الذي يقع بين الذاكر والمذكور، ارتباط لاعلاقة له"باتحاد الوجود" الذي يتكلم عنه بعض الصوفية أثناء جذبهم أوسكرهم أوضلالهم. في الطريقة الصوفية الشاذلية يعتبر الذكر ممارسة مستخرجة من تقنية تتضمن في ذاتها "وحدة الشهود" لا "وحدة الوجود "كما يؤكّده بعض مدّعي الصوفية المنحرفين .

ذكر كهذا له "أوقاته" و "أحواله" و "مقاماته" و تقنياته: ذكر اللسان، فذكر القلب، فذكر السرّ والوداد (انظر بحثنا العصري فصل الصوفية) .

–البيت 5 : قبل سراج الطلوع: قلنا أنّ كلّ ذكر له عند الصوفية خصائصه، في الطريقة التي رسمها سيدي الشيخ في هذا الميدان: أوقات ذكر الجلالة هي "سراج الطلوع" أي الفجر والغروب عقب الصلاتين المفروضتين حينئذ. هذان الوقتان لهما مرجعية في القرآن: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} [طه130]

–البيت 6: في رواية غيوب – ارجع إلى القرآن: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام59]

–البيت 7: أحمد بن عقبة الحضرمي حلقة من حلقات الذهب التوصيلية في الطريقة الشاذلية. هذا الصوفى الشادلي الذي ينتمي أيضا إلى الطريقة القادرية يكون قد توفي سنة 854 هـ/ 1450 م أين ؟ المراجع في هذا الموضوع غير موثوقة وبها أخطاء. تكلمنا عنه في الياقوتة البيت 130 في رواية أخرى الأخضري، الخذر – وفي رواية الحبيب النبي .

–البيت 8: اللكوك لفظ عامي غير موجود في القاموس إلا في قاموس دوزي Dozy في الاضافات Les suppléments لكنّ شرحه خطأ حيث قال: كبّة صوف. في الحقيقة الأمر يتعلق بنبات صبغي من الفينيزويلا (كوكا)، أوراق نستخرج منها مستخلصا شبه قلي معروف هو: الكوكاين. قشرته استوردها الاسبان إلى المغرب لاستعمالها في صبغ الجلود تحت اسم الكوك ومما يجدر ذكره أنه في القرن16 و17 كانت مستعملة في الصباغة المغربية (الماروكينيري) [217].

–البيت 9: في رواية: من جاء لجمعهم – وأخرى من جاء ليهم

–البيت 10:في رواية: أنواع ، –

البيت 11: أديب

–البيت 12 : الحبيب انظر لطائف ابن عطاء الله حزب النور، وانظر القرآن: {فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود61] و {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

[217]– قد نفهم منه كذلك معنى : لكوك من لكّ أي تلكّأ في فعل الشيء أي تباطأ و تكاسل ، و المعنى أنهم يسارعون من غير تكاسل للقيام بأعمال الخير كهذه ، و الله أعلم

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر60]-البيت 13 : في رواية محمد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، انظر القرآن: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}[البقرة119] و {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}[الأحزاب45]

-البيت 14: هل نقول "يصير أو يسير؟ أظنّ أن معنى الشطر لا يفهم إلا حسب الآية: {وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[التغابن7] ونقرأ "وبجلالك ذا يسير".وحسب رأيي فإنّ النقّال والمنشدين يظنون خطأ أنه يجب أن تقرأ:"بجلال كذا يسير" ، والله أعلم.

-البيت 16 : انظر سورة الأنعام {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الأنعام103].

-البيت 17 في رواية أخرى: لا إنس ولا أنيس: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة255].

-البيت 18: في كنهك:{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}(الجمعة1)

-البيت 21: هذا البيت والذي يليه مقتبسان من القرآن:{قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ}[الحجر55] و {لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر53] {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى21] إلخ.. "بحرمتك" هذا اللفظ يجب أن يفهم بمعناه العامّي: أي النفوذ، السلطة التي نتولاّها.

-البيت 22 : انظر في القرآن: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران77] وبعدها {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[الشورى19]. ولطيف:{اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} [الشورى19] إلخ ...هذا اللفظ هو واحد من أجمل أسماء الله الحسنى يجعلنا نفكر في (الأزل) عند الصلاة(البيت17).

يا الله يا لطيف في الأزل   أنت اللطيف لم تزل   ألطف بنا مما نزل.   تمت وبالله عمّت

فهرست المصادر (المراجع)

الكتب المهمّة بالألفاظ التقنية الأساسية (المصطلحات)

ترجمة الألفاظ التقنية إلى الفرنسية(أو العكس)، وهي هدفنا في هذا المصطلح (المعجم)، بتعقيباتها وشروحها التي دعت إليها، مستوحاة بصفة خاصّة من المصادر الإسلامية التي سنذكر بعضها فيما يلي .

لقد تجنبنا إستخدام المادّة التي يلجأ إليها المستشرقون المعرّبون أو الإسلاميون وخاصّة المسيحيون مثل نيكلسون، أزين إبلاسيوس Asin-y-Palacios وماسينيون ولويس غاردات L.Gardet وأناواتي إلخ.. هذا الإبعاد لا يعنى أيَّ تحامل لأن هؤلاء العلماء قد خصصوا للصوفية و الفكر الإسلامي دراسات قيّمة. لكن لأسباب لغوية، ولإختلاف "العقلية" و التصوّر و التعبير لم يستطيعوا أن يعطوا للمفردات الصوفية وللإنضباط والدقة في فكر ممثلينا كل الأحكام والدقة المطلوبين .

كثيرا ما نلمس في نظرياتهم حول أصل الصوفية ووسائلها وأهدافها معادلة معقّدة فهي في نفس الوقت فردية (شخصية)، وأوربية، ومسيحية.

ومنها اختلاف في الزاوية المنظور منها ممّا أدّى إلى "عدم التكيفّ" وتغيير في اللون، وفي الطبيعة عند تطرقهم إلى كل ما في الصوفية، بل وصلوا إلى حد تعرية الصوفية عن الإسلام بسبب الإهتمام نفسه الذي أَوْلَوْهُ للتفاصيل في العمق الأساسي والشطحات الشاذّة و النّزويّة عند المتطرّفين، لكل ما يظهر عند البعض أنه ضدّ العقيدة الإسلامية .

لمثل هذه الأسباب التي قد تجرح المسلم، وقد تكون لا مقصودة عند بعض المستشرقين، ومتحرّرة عند آخرين، فحرصناعلى أن نهتم بتصوّرهم للصوفية، ونركز بصفة أساسية على اللغة العربية الفصحى والتصورات الصوفية وأمّهات كتبهم ذات النفوذ في الصوفية.

نفوذ نسبي، لأن في الحقيقة كل صوفي له مفرداته الخاصّة به حسب ممارساته وانفعالاته وتنقّلاته وإلهامه وتمييزه و إبانة استنتاجاته الشفهية. كما أنه لابد لكل صوفي أو على الأقل لكل "قطب" من مصطلحات. الألفاظ "إتحاد – وجد – شهود" مثلا تختلف من أحد إلى آخر .

بما أن الأمر هنا متعلق بصوفي شاذلي إنصبّ اهتمامه في عملنا بالمراجع العامة وخاصة ما يتعلق منها بالشاذلية. قائمة هذه الكتب ليست مرفوعة إطلاقا exhaustive إنها تحتوى على الكتب التي استخدمناها:

-1- أبوبكر الكلبازي: كتاب التعرّف لمذهب أهل التصوّف طبعة القاهرة 1389هـ 1969 م .

-2- أبوطالب المكي: قوت القلوب طبعة القاهرة1381 هـ/ 1961 م (مجلدان) .

-3- أبونعيم أحمد: حلية الأولياء. طبعة بيروت 1387 هـ/ 1967 م (10م) .

-4- أبو القاسم عبد الكريم القشيري – لطائف الإشارات ، تفسير صوفي للقرآن . طبعة القاهرة (بعد 1969 م) 3 مجلدات .

- أيضا الرسالة (القشيرية): شرح لأبي زكرياء الأنصاري وحاشية مصطفى العروسي – طبعة القاهرة 1290 هـ/ 1874 م .

-5- السرّاج الطوسي : اللُّمَع (**Al-Luma'**)،طبعة بغداد 1380 هـ/ 1960 م .

-6- علي الحجويري :كشف المحجوب – طبعة القاهرة 1394 هـ/ 1974 م

-7- عبد الرحمن السلامي:كتاب طبقات الصوفية، طبعة بيروت 1389 هـ/1969م.

-8- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين،طبعة القاهرة (دون تاريخ)5 مجلدات .

- المنقذ من الضلال: طبعة بيروت 1959 م .
- علم الكلام – طبعة القاهرة 1383 هـ/ 1963 م .
- بداية الهداية – طبعة القاهرة 1298 هـ .

-9- أبو الحسن الشاذلي المقدمة – طبعة القاهرة 1353 هـ

-10- أبومدين شعيب: أنس الوحيد ونزهة المريد – طبعة القاهرة 1306 هـ

-11- أحمد ابن عطاء الله: كتاب القصد في معرفة الإسم المفرد. طبعة القاهرة 1348 هـ/ 1941م

- الحكم (العطائية) طبعة القاهرة 1353 هـ.
- تاج العروس طبعة القاهرة 1353 هـ .
- مفتاح الفلاح طبعة القاهرة 1357 هـ .
- لطائف المنن طبعة القاهرة 1357 هـ .

-12- عبد الوهّاب الشعراني: لطائف المنن – طبعة القاهرة 1357 هـ .

- كتاب اليواقيت – به شرح الفتوحات المكية لابن عربي بولاق 1315 هـ
- كتاب الميزان – طبعة اسطمبول 1375 هـ/ القاهرة 1311 هـ .
- فتاوي الخواصّ – القاهرة 1304 هـ .
- الجواهر – القاهرة 1304 هـ .
- الأنوار القدسية – بيروت 1961 م .
- لواقح – القاهرة 1308 هـ .

-13- محمد أبوريّان : أصول الفلسفة الإشراقية – القاهرة 1959 م .

-14- أبوعبد الله اليافعي : حكايات الصالحين – القاهرة 1307 هـ/ 1890 م .

-15- محمد عبد الشافع : المنهج الصوفي في الفقه الإسلامي – القاهرة 1395 هـ/ 1975 م .

الفصل الثالث

مقاومة أولاد سيدي الشيخ

مقاومة أولاد سيدي الشيخ

1- السّي حمزة بن أبي بكر -

السي حمزة هو الإبن الأكبر للسي أبي بكر قائد الفرع البكري(فرع الأكابر) لسلالة سيدي الشيخ وهو في الدرجة السابعة. عاش حوالي سنة1225 هـ/1810م. أمّه الياقوت منحدرة من قبيلة رُحّل من ورقلة وهم المخادمة.

ورث السلطة التي كانت بيد أجداده، وذلك عند وفاة أبيه الذي ترك ابناء آخرين سجلوا صورا بطولية في الجهاد ضد فرنسا.

كان السي حمزة يمتلك في الصحراء وفي التل الوهراني نفوذا واسعًا. وكان أتباع الطريقة يكنون له إجلال عميقًا. إن تقواه وحسه السياسي واعتداله وبساطته مع جميع الناس، كل ذلك جعل منه في أعين أتباع الطريقة مثلا يقتدى به .

كانت ثروته الخاصة حسب الروايات الشفهية كبيرة جدا بحيث كانت تحتاج إلى ستين بعيرا قويا لحمل القطع الذهبية ا لتي بحوزته .عندما كان يغير إقامته.كان حليما مؤنسا لطيفا يتصدق على الفقراء،كما كان حسن الهيئة.

العقيد تروملي الذي عرفه فيما بعد ولم يكن يحبه، لكنه ترك عنه الوصف التالي :

"كان طويل القامة ذا هيئة محترمة قد نصل إلى درجة الغرابة في المبالغة فيها ببرانسه الخمسة أو الستة التي كان يرتديها بصفة منتظمة، يظهر تحتها قفطان غني برتقالي وسروال – تركي- أخضر، متحزما بحزام من شراك -cuir- مطرز يحمل عليه مسدسين مرصعين بالفضة والصدف وحاملة القراطيس. رأسه مغطاة بحائك حريري مثبت حول الشاشية الحمراء بالبريمة السميكة – الخيط المصنوع من الوبر– ساقُه بها التماغ –حذاء طويل لركوب الفرس – ، مشابهة لجذع شجرة الموز، قدمه محصن بالشبير–العربي–المذهب المثبت إلى الرجل بالتسبيكة من قطيفة حمراء مرصعةبالذهب.

إنّ الخليفة يخصص لفرسه الأناقة الحقيقية مثل جميع أمثاله في الدين:فاللجام من جلد الفلالي والفاس من حديد والدير مزود بقطعة من فضة وعلى طولها علقت أهلة وسلاسل صغيرة من معدن،والركابات مثبتة بالسير المصنوع من أعصاب البقر، وقربوس السرج مغطى بستارة من قطيفة بنفسجية وضع عليها صناع تونس الماهرون تطريزا ذهبيا راقيا. وبها التاربة ذات اللبدات – جمع لبدة – السبع زرقاء و صفراء حمراء وبيضاء لحماية ظهر الفرس من الجروح التي يسبّبها هيكل السرج؛ هلال شكل من نابين(أنياب الخنزير) مغلفين بالفضة معلق على ظهر الفرس بقلادة حرير

حمراء و الحرز يتأرجح أيضا لحماية الحيوان الأصيل من كل المخاطر، والجيرة الغنية المطرزة بالذهب و الحرير مثبتة بالقربوس. عندما يمتطي سي حمزة فرسه يحمل السلسلة العقدية من اليمين إلى اليسار من فوق برانيسه و سكينا طويلا ذا صفيحة مستقيمة في غمدها الفضي.

سيدي حمزة له سير بطيئ على وقع القائد العربي بهيئته الفخمة المتناسبة مع شساعة وطول الثياب المحلية –كان له 40 سنة تقريبا في 1854– له رأس قوي و جبين منبسط ، له لحية كاملة سوداء ، عيناه جميلتان يحفظهما حاجبان ليظهر من خلال ذلك مظهر لطيف يجلب الناظر إليه ويعجبه.أما في المعركة فإنه يظهر بمظهر المقاتل الباسل – وإن كان هذا قليلا عند رجال الدين – (إنتهى قول تروملي)

كان أبرز شخصية في هذه المرحلة الثانية لدور أولاد سيد الشيخ .أصله الشريف وسلطته الدينية وقوته السياسية جعل شعراء الصحراء الغربية يتغنون به. كما أن نفوذه إتسع إلى ما وراء الحدود التي سمّاها المؤرّخون بحقّ: إمارة أولاد سيد الشيخ .

في محيط تاريخي أصبح صعبا جدا بفعل التوسع الفرنسي المستمر في الجنوب الجزائري لكنه نجح في أن يعطي لأسرة أولاد سيد الشيخ وطريقتهم أطوالا لم تتجاوز من قبل وهذا ما جعل المشير ليوتاي (Marechal Lyautey)المعتدل في الحكم على الرجال حين كتب رسالة نشرها الكاتب بير موروا Pierre Maurois عند كتابة حياة المشير حيث قال :" نحن عند أولاد سيد الشيخ، أكبر عائلة سيدة في شمال إفريقيا ". كما أن شخصيات فرنسية أخرى لم تتريّث في أن تكتب أن " الجماهير الشعبية كانت تكن لهم حبا حقيقيا و إجلالا". "هذا الإجلال الذي تقاسمه معهم الشعراء الذين سنتطرق فيم بعد بعض أشعارهم في المدح".

كانت تربطه بسلطان المغرب علاقات حسنة حيث أعطاه أخته الياقوت للزواج بها (من أرشيف الزاوية – تروملي كتاب الفرنسيون في الصحراء باريس 1887 ص 85). كما كانت له علاقات حسنة بالتواق أيضا .كما وسّع منطقة نفوذ الزاوية إلى حدود الجنوب القسنطيني. علاقته الأسرية الأمومية مع المخادمة سهلت له النفوذ بورقلة و ناقوسة.

الأرباع في الأغواط والشعاينة في متليلي وقبائل المنيعة و أغواط كسال وأولاد زياد و أولاد سرور و حميان والرزاينة و كل قبائل نواحي سعيدة كانت قد انضمّت إليه.

رغم مطاوعتهم لفرع أولاد سيد الشيخ الأصاغر فإن قبائل الجنوب الجزائري و المغربي كانت تكنّ له إجلالا كبيرًا كما هو حال الأنقاد وبني قيل ودوي منيع و أولاد جرير و المهاية زيادة على قبائل التل الوهراني – عين تموشنت، بلعباس، حمام بوحجر، سوقر، فرندة، تيارت بوغار، إلخ ..

– وبفضل السي حمزة أصبح لزاوية أولاد سيد الشيخ إشعاع قوّي في الجنوب المغربي و كذلك في واحات قورارة و توات.

في داخل الطريقة عمل على تمكين فرع الأكابر (فرعه) ليسكت فرع الأصاغر و يجعله يخضع له و يرضى به و يؤيّده، لكن كبرياء فرع الأصاغر الذّي تجاوز حدّه في عهد أبيه حيث أفقده نفوذه بين العرب؛ فلمّا رأى سيد ي الشيخ بن الطيّب (وهو قائد فرع الأصاغر) أنّ شهرة سيدي حمزة تتعاظم حاول القيام ببعض الأعمال كتحالفه مع السلطات الفرنسية.

وتبقى نقطة أخرى للتّوضيح: كيف كانت العلاقة بين سيدي حمزة والأمير عبد القادر؟

في هذا المنظار يجدر أن نذكر أنّه منذ العهد التركي (العثماني) كانت إمارة أولاد سيد الشيخ مستقلّة عن المغرب العربي وعن الجزائر. في هذه الأثناء نادى الأمير عبد القادر الجزائريّين إلى نهضة جماهريّة وطنيّة ودينيّة ضدّ المسيحيّة التي غزت في سنة 1247هـ/1832م (24 نوفمبر) كل الطرق الدينيّة الصوفيّة ومن خلالها جميع القبائل العربيّة التي كانت تغطّيها، فاستجابوا بكلّ فرح لندائه (وكان هونفسه رجل دين و هذا ما ننساه كثيرا).

كان عبد القادر قائد لطريقة مشهورة وهي القادريّة. ولذلك فإنّ طريقة سيد الشّيخ المشعّة لم تكن لتتخلّف لتساهم معه في الجهاد الوطني وهذا ما وقع .

فأسرعت بتجنيد وحدة عسكرية من المقاتلين في سبيل الله وإرسالها إليه تحت سلطة مقدّم الزاويّة الغماري وهو من الأنقاد والصديق الشخصي للسّي حمزة.

كان للأمير خصال معنويّة عاليّة ، بشجاعته في المعركة وتقواه ووطنيّته لكنّه كان كثير الشكوك(الظنون) التي لا تقوم على أي أساس واحتقاره أحيانا للقوى حتّى التي قد تصلح له كعضد لنشاطه.

فكانت لأولاد سيد الشّيخ بعض التحفظات نحوه:

* إعدام – بأمر منه و دون محاكمة –كل من يتجرّأ مناقشة قراراته أو من ينكر عليه مصادمة بعض التقاليد القبلية. كما وقع لمقدّم زاويّة سيدي الشيخ ، الشيخ الغماري قائد قبيلة الأنقاد الذي إنضمّ إلى الطريقة كما قلنا قبل قليل ، فأمر الأمير بقتله من أجل سبب تافه.

* تخريب قصور قديمة من طرف جيوشه كقصر ستيتن القديم الذي في سفح جبل كسال بالأطلس الصحراوي أين كانت توجد زاوية ثانويّة للأولاد سيد الشيخ .

الرأي العام للعرب و البربر الذي لم يكن لصالحه أكثر فأكثر. وشعراء الملحون الذين كانوا يلعبون في ذلك الوقت دور وسائل الإعلام اليوم، والطرق الدينيّة التي بدون مؤازرتها فإن أيّة سياسة تبوء بالفشل، أصبحت هي الأخرى تتفكّك عنه. ولدينا بعض الأبيات الشّعرية للشاعر قدور ولد

محمد في الهجاء وذلك بالرّجوع إلى الكتيّب العربي (الفترة الثالثة) للمرحوم الأستاذ محمد عبد الرحمن وإلى مقتطف لولد القاضي (الفلك الملحون) الطبعة الثانيّة (الجزائر 1913 ص44–50).

بعد هزيمته في (طاقينTAGGUIN) إختلطت عليه الأمور، تذكّر حينها زاوية وطريقة أولاد سيد الشّيخ. فعندما هجره العرب في التل نزل بالأبيض ليطلب من أهلها الدعم .

أستقبل بإحترام في قبّة سيدي الحاج أحمد حيث ألقى خطابا أراد به هزّ مشاعرهم لكنه قوبل بسكون بارد ([218]) . فالزاويّة إذن رفضت دعمه في هذه المرة (1212هـ/1846م) وأخذت على عاتقها حمل الراية للمقاومة بعد سنوات قليلة .حقّا إن التوسّع الفرنسي الذي إستمرّ دون توقّف مع الإزعاجات والتّخويفات التي كانت تتزايد إلى حد عدم التحمل. ففي سنة 1210هـ/1845م ظهر العقيد جيريGery على رأس مجموعاته العسكريّة الفرنسية، في مقاطعة إمارة أولاد سيدي الشّيخ .

إنطلق من تيارت التي كانت شعبة عسكريّة فرنسيّة ، فألحقت الخراب بالمنطقة ممتدّة إلى الغاسول و بريزينيّة والشريعة ثم رجع إلى نقطة إنطلاقه مرورا بقصر ستيتن الذي خرّبه . وأثناء الطريق واجه عمليّات منعزلة، نظّمت بصفة مستعجلة من طرف القبائل . كان السّي حمزة وقتها في متليلي .وأولاد سيدي الشّيخ الغرابة عارضوا في هذه المرّة مسيرة جيري نحو الأبيض سيدي الشيخ فأجبروه على الرّجوع إلى موقعه. بعد هذه الغارة أختيرت قرية القراريج المهدّمة والمعروفة باسم البيّض (جريفيل سابقا) كنقطة إستراتيجيّة للتوسّع في الجنوب الوهراني، فبُنِيَ معقل فيما بعد به ثكنة كبيرة.

إلى حدّ هذا التاريخ كان الرأي الفرنسي بالعاصمة متردّدا فكان يكتفي بإحتلال محدود لكنّ تحت ضغط أصحاب الأعمال والمعمّرين والجيش انتهت فرنسا بِاخْتِيَار الإحتلال الشامل للبلاد .

([218]) بصفة عامّة كان أولاد سيد الشّيخ يشاركون الرأي العام الجزائري. فإقامته الجبريّة بفرنسا سبّبت فيه تغيّرات خاصّة بعد أحداث نابليون الثالث . فحريّته، و التشريفات المزوّرة التي منحتها له فرنسا، كل ذلك قد يكون خلق في نفسه إعترافا بالجميل نحو الإمبراطور.

و حسب ترجمة حياته التي أفرد له المشير أزانA zan ثناءا كبيرا سنة 1871م أن الألمان المنتصرين عرضوا عليه إستقلال الجزائر تحت سلطته، فأظهر عدم الإهتمام المطلق لمصير مواطنيه و قابل مبعوثي بسمارك" برفض عاطفي " حيث ترك البعثة الألمانيّة في قاعة الإستقبال ودخل إلى بيوته وجمع النياشين والأوسمة الشرفيّة (c roix de la L. d'H) التي حلّته بها فرنسا وقال لهم:" لا أستطيع أن أغدر بلدا وهب لي كل هذا الإمتيازهذا – وهو رفض غريب، و قيل أنه كان يدعوالشعب الجزائري بإستمرار إلى وضع السّلاح و الإنصياع إلى فرنسا– (أنظر كتاب ب.أزان P.Azan – الأمير عبد القادر باريس 1925– ص 277-278) و يضيف الكاتب قائلا:" و كان أنذاك قد نسي و لم يكن لرسالته أي أثر".

نُسِيَ ولكنّه ظهر فجأة وبصفة غريبة يوم أن حرّر الجزائريّون جزائرهم و سلاحهم باليد سنة 1962م (بعد مدة طويلة من النسيان و بعد أحداث جسام). وفي خضمّ نشوة الإستقلال شيّدوا للأمير عبد القادر في وسط أحسن ساحة بالعاصمة تمثالا على شكل فارس.

و من المؤسف حقّا أنّ أولاد سيد الشّيخ الذين استشهدوا على ظهور خيلهم و لواء الإسلام بأيديهم بإسم الجزائر، مثل السّي حمزة ، والسي سليمان والسّي محمد و السّي أحمد، و السّي لعلى، والسّي قدور ، والمقراني والشيخ الحداد وبومعزة فإنّهم لم يحظوا حتى بشارع يحمل إسمهم. لكنّ التاريخ النّزيه الثابت الذي لا يتسم بالتفرقة سيعيد لأجيال المستقبل الحقيقة وسيرجع الإعتبار والإحترام لكل من هو أهله، إن شاء الله. لم نذكر هذا إلاّ بمناسبة مرورنا على الحدث...

كان التّل قد أذعن في معظمه رغم ردود الأفعال غيرالمجدية للأمير عبد القادر الذي وقعت مجموعته (السمالة) بكل ما فيها في يد الدّوق أنمال le duc Anmale (1258هـ/1843م) يوم 14ماي.وسياسة المارشال بيجو (Bugeaud) الإجتياحيّة إنتقلت إلى مقاطعة أولاد سيد الشّيخ بالقتل والتّخريب والشّتم...

في الغرب الجزائري فإنّ المغرب الذي أَطْرَدَ عبد القادر وتركه لمصيره بعد أن كان يحميه ، بدأ يتخوّف المستقبل. حيث أنّ تهديدات خطيرة بدأت تستهدف وحدته و إستقلاله بجانب الجزائر التي أصبحت فرنسيّة. في سنة 1206هـ/1845م ،بعد دسائس كثيرة و بعد إتصالات سرّية و نقاشات مملّة غير مشجّعة توصّل إلى إمضاء معاهدة حسن الجوار مع فرنسا – معاهدة وجدة – وهي معاهدة خداع لأن فرنسا رفضت صون و ضمان المستقبل رغم إلحاح المغرب لتبيين الحدود التي تفصل البلدين ، في الجنوب أنشئت بالمقابل « بلاد السبي » (السبايا أي بدون مالك أو بلاد الأسرى).

لا شكّ أن فرنسا عندما قرّرت أن يمتدّ إجتياحها إلى ماوراء الأطلس الصحراوي قد جمعت معلومات حول المنطقة من النواحي السياسيّة و الدّينيّة والإجتماعيّة و الإقتصاديّة بصفة دقيقة جدّا (إرجع إلى كتاب دوماس.DUMAS الصحراء الجزائريّة – باريس 1845م–)

كانت تعلم أنّه لا يمكن لها الإحتلال في ظروف أكثر ملاءمة إلاّ بالأخذ بعين الإعتبار السّي حمزة، –كان عليها – وذلك حسب المبادئ الإستعماريّة كما جاء في كتابات رجالها السياسيّين وأَلْوِيَتِهَا – جنرالاتها – أن تتوافق وتطاوع قادة السكّان المحلّيين، فتستعملهم بصفة حتميّة، و تهدم معنويّاتهم أمام ذويهم وتخلق لهم خصوما و تجعل بعضهم يواجه البعض الآخر، بصفة عامّة، تستعمل معهم الطّريقة القديمة التي تقول – فرّق تسد - . لقد إستعمل هذا المبدأ إلى حدّ كبير مع السي حمزة. فإما أن تجعل منه صاحب إقطاعة أو تحذفه. من أجل ذلك ضاعفت السلطات العسكرية الفرنسية بتيارت بأمر من الحكومة العامة الإتصالات.

كانت هذه الإتصالات بدون جدوى ، فإن تخفّيات السي حمزة ورفضه لقبول التسلط الفرنسي على مقاطعته و تسويفاته مع الفرنسيين جعلهم يسخطون. فاقتنع بسرعة أنه لا مفر من مواجهتهم بالحرب و لا بد من التفكير في الوسائل للإستعداد لخوضها .

كان يستحيل تجنب المعركة و لذلك يجدر ان نضبط حسب الإمكان الوسائل التي كانت تمتلكها كلتا القوتين اللتين هما على وشك المواجهة.

فمن ناحية نجد جيشا ذا حرفة سبق وأن حارب في جميع ميادين الحرب الأوربية والجزائرية، و له تنظيم محكم وله مؤونة ومعدات حربية،وهوموضوع تحت قيادة مختصة ومنظمة حسب المراتب السلمية و مجهزة بوسائل الإتصالات السريعة خاصة البرق، وله مصالح المخابرات المدربة.

ومن ناحية أخرى نجد قوة محاربين مأخوذة إرتجاليا (عشوائيا)، متعوّدة على المعارك الفبلية، بأيديهم ذخيرة شاذة ومتلاشية تحت قيادة رجل ديني: السي حمزة قرر الحرب مهما كان الثمن في سبيل دينه ووطنه. القوى التي تمكنه من إقتحام الحرب يجب أن تموّنه من بين القبائل المتحدة معه في التل أو المغرب. لكنه كان يعلم أن البَدْوَ الرُّحّل كانوا أكثر شجاعة و إقداما لتنظيم هجومات مفاجئة من الجنود المغْتَبَرِين ، فهم صُلْبٌ و أوفياء للمثل العليا التي تفرض المثابرة والتضحية والحزم الراسخ . لكن معاركهم أصبحت كلها متشابهة منذ إحتلال التل. ومثل هزيمة عبد القادر النكراء كانت مملوءة بالدروس في هدا المضمار. وقد أوضح شاعر أولاد سيد الشيخ - وهو محمد بلخير في إحدى قصائده المشهورة تقلبهم و كرههم لذلك - أنّه:" لم يبق العرب كما كان الرجال من قبل .. منذ الحُمَيْرِيِّين وفرسان مخزوم". (قبيلتان عربيتان قديمتان مشهورتان بالمِرَاسة الحربية : أنظر ديوان محمد بلخير).

كان يقال "إنزعوا الثارات التي يراد بها الغنيمة ، تتضاعف الغنيمة والهزائم".

لما تعرفت السلطات الفرنسية بحكم تجربتها منذ دخولها الجزائر على العادات و التقاليد الجزائرية العربية والبربرية، و نفسيات الجزائريين، و هَوَاهُمْ الْمَرَضِي للدسائس، والطموح الفوضوي للبعض والروح العصبية عند البعض الآخر، لذلك كان معروضا أمام السلطات الفرنسية لتختار من تشاء من المخبرين السريين ومن ينشرون الإشاعات والدعاية لصالحها ،والمرشحين لمنصب القيادة. فإستطاعت أن تبث في المدن والقرى والبوادي للطابور الخامس مُغْدِقَةً عليهم بالأموال والنياشين لتفسد القبائل وتهيئ الجماهير الشعبية والسلطات المحلية لقبول بل لتمني الهيمنة الفرنسية. و نذكر على سبيل المثال الباشاغا ابن قانة في بسكرة و الباشاغا عدة في تيارت .

مع هذه القوى العشوائية وغير المنظمة وغير المسلحة تسليحا كافيا وغير المِمَوَّنَة مؤونة كافية أيضا ، فإنه كان على السي حمزة ثم على أولاده من بعده أن ينفخوا روح القتال و الطاقة المضطرمة ليجعلوا منها قوة ملحمة و قادرة على مجابهة أي خصم كان ؛ و كان هذا أقل ما يجب أن يحققه الجزائري المغوار. فجعل منه جيشا مهيبا رغم المكائد و الإساءات من طرف "مصلحة المخابرات" المؤْذِيَة إذاية كبيرة؛ هذا الطابور الخامس عند أولاد سيد الشيخ كان أخو السي حمزة نفسه وهو الغادر والخائن النعيمي ، فبعد دخول مستعمرة جيري GERY ، أخذ المقدمة في الطاعة و الإذعان لفرنسا مقدِّما لها الخدمات السرية والظاهرة، فأصبح شخصية منبوذة حقا حيث

كان فريسة لهواه الذي ذهب به إلى أن يقترف لصالح فرنسا الخيانات الخسيسة اللامشروطة. فلم يتردد في أن يسلم للسلطات الفرنسية واحدا من المقربين لدى طريقة سيد الشيخ و هو الحبيب بن مدني حيث سجل الشاعر الوطني محمد بلخير و قائع الحادث. فعُيِّنَ النعيمي آغا سنة 1266هـ/1850م. لكن كثرة جرائمه ومتطلباته المفرطة و تصرفاته غير المتحمّلة دفعت فيما بعد حميان الشفاعة إلى قتله سنة1272هـ/1856م.

عضو آخر من أسرة أولاد سيدي الشيخ من فرع الأصاغر هو السي الشيخ بن الطيب كانت له أيضا علاقات سرية مع السلطات الفرنسية فجعل جزءا كبيرا من قبائل حميان تقبل و تنضوي بالطاعة للسلطات الفرنسية بسببه.

في داخل الإتحاد وقعت في فرع الأكابر بعض الإرتدادات التي أثارت كلام الناس خاصة عند قائد قبيلة أولاد عبد الكريم و هو الجد الثاني للقائد الشريف سابقا .

كانت للعسكريين إرادة في متابعة غزو البلاد دون ضمائر غير مبالين بصراخات السلطة المركزية التي كانوا يقنعونها أن الأمرلا يتعدى العمليات الوقائية، فعملوا على "ضرب السفلة بالسفلة" حسب تعبير ترومليTrumelet (في كتابه تاريخ مقاومة الجنوب).

قررت القيادة الفرنسية تبعا لمطامعها في الصحراء و سياستها في السيطرة الإستعمارية أن تدخل مع السي حمزة في علاقات تحترم فيها مؤقتا شروطه لكي ترغمه فيما بعد على قبول السيادة الفرنسية بلا مقاومة ولا قتال وذلك في أدنى فرصة تكون سانحة لذلك.

و من أجل ذلك كله فإن السي حمزة قررتكوين جيش منتظم و مجهز ومستعد في أي وقت. جيش مدرب يتألف من المتطوعين ومن الذين يتقاضون مرتبا (الربان).

ففي عام 1266هـ/1850م بدأت المفاوضات رسميا بين القيادة الفرنسية بتيارت وبين السي حمزة، فاللواء القائد لهذه الشعبة العسكرية التي كلفت بمباشرة التفاوض إختارت لهذه المهمة بكل حذر ومهارة لجنة من الوجهاء المسلمين وكان هذا الوفد يتكوّن من :

ا) الشاب الطموح قدور ولد عدة قائد قبيلة الأحرار، خادم في كل إختبار للسلطات الفرنسية العسكرية، و هومثل للخائن دون شك، بلا شرف، حيث كان شركاؤه أنفسهم يعتبرونه عدوّ الدين والملّة فكانوا يبغضونه بغضا عميقا.

ب) القائد الميلود بن عون الله.

ج) محمد بن لعرج شخصية دينية بارزة.

د) القائد معروف بن الحاج قدور.

هـ) عبد القادر بن خالد قاضي تيارت.

كانت مهمتهم أن يقنعوا السي حمزة بالذهاب شخصياً إلى تيارت ليتفحّص مع السلطات العسكريّة شروط الوفاق مع القضيّة الفرنسية.

ففي 1850/01/15 عند قائد حميان الشراقة العربي بن لعرج وقعت المقابلة . وبعد مناقشة طويلة أفهمهم السي حمزة أنه لا يمكن أن يذهب إلى تيارت قبل أن يتشاور مع إبن عمّه السي الشّيخ بن الطيّب و مع أهل المِعَاد (وهو مجلس يحتوي على أكابر وشرفاء القبائل).

و للإستعلام أكثر، بعث السي حمزة حمزة إلى تيارت إثنين من أقرب الأوفياء له والمستشارين وهما معمر والحاج جلول ليحملا رسالة إلى اللواء (الجنرال) يعبّر له فيه عن حسن النيّة . فلما أنهت اللجنة مهمتها أخذت طريق العودة إلى تيارت يوم 1850/01/18.حيث أن مظهر المصالحة الذي أبداه السي حمزة لم يعجب جميع الناس، لكنّه كان في مأزق حيث أن العدو كان مستعدا لدفعه إلى المعركة . كان لا بدّ من الإختيار بين الحرب أو الإستسلام. وكان يمكن أخذ كمثال الأميرعبد القادر و إستسلامه قبل ثلاثة سنوات لكن كل شيء كان يصب في فكرة النضال ضد هذا اللقاء وهذه المصالحة المقبلين.

إن حالة العرب في الهضاب العليا التي استسلمت من قبل كانت لا تبشّر بخير كما أن تناقل الأخبار كان يتنبأ إلى السقوط و السيطرة الفرنسية. إن الإستسلام كان يعني تقديم الأيدي و الأرجل مقيّدة، والأجساد و الأملاك لسلطة أنانيّة وعنصريّة ، باطشة في عقوباتها ،مرتابة ومغتصبة،" الموت أهون من العيش في المذلّة" هذا ما قاله أهل المِعَاد.

كان السي حمزة يعلم ما يحتويه الإستسلام الحقير،" لكن - كما كان يقول - الكفّار يريدون أن يعاقبونا دون سبب أو إثارة ولتجاوز ذلك لا بدّ أن نسمعهم لغة السّلاح . لكن الحرب خدعة . وهي متبوعة بالإنتصارات والهزائم، فالأمر خطير، إنهم قد هيّأوا أنفسهم لخوضها وقيادتها. لكن نحن ؟ إنها ليست معركة القبائل، لا بد من الإستعداد الجادّ لها، فقبل خوضها لا بدّ لنا من وقت، وسيكون وقت المفاوضات. ولا بد لنا من الوقت والمال. فالعرب سيخذلون إن لم يبق لهم زاد يقتاتون به ويعيّشون به عائلاتهم. أعتقد أن أموال الزاويّة و أموال الزيارة ستحل لنا المشكل، يجب أن نجعل من أنفسنا جيشا يضاهيهم في التجربة الحربية مثل جيشهم، مدرّبا ومموّنا.لا بد لنا من سلاح كثير، يمكن ان نقتنيه من مزاب والمغرب. لا بد لنا من الوقت والشجاعة والمال، لا يجب أن ننسى أن الفرنسيين سيجبرون

-كعادتهم – المرتدّ ين العرب لمواجهتنا، لا بد من التفكير في الإستعداد ،لأن بيننا و بين الفرنسيين حربا لا يمكن تجنبها ".(هذا الكلام منقول عن لسان السي حمزة من طرف مقدّم الطريقة المرحوم الحاج محمد بن كبار بريزينيّة).

كل الحاضرين اتفقوا على ذلك، ثم تفرّق أهل المعاد بهذه التوقعات. وعلى هذا الأساس بقيت الإتصالات بين السي حمزة والقيادة الفرنسية بتيارت على حالها .

لم يكن السي حمزة يجهل عاقبة المنهزمين بالتل، كان يتخوّف كثيرا من الذهاب إلى تيارت بنفسه، فكان في كل مرّة يؤجّل هذا اللقاء الودّي – بزعمهم –الذي لم يتوقفوا عن دعوته إليه، لكن السلطات العسكرية الفرنسيّة كانت نافذة الصبرلتحقيق أمرالسلطة (الحكومة) العامة.وانتهى بهم الأمرإلى أن تعبوا من مماطلات السي حمزة فألحّوا عليه بالذهاب إلى تيارت للتخلّص منه بطريقة أو بأخرى. إغتياله ليس مستثنى –كتب الجنرال بيليسي Pelissier قائد فيلق وهران– ثمّ أضاف أن تلك هي الوسيلة الأكثر فعاليّة، و الأكثر سهولة للإنتصار على الحاجز الذي كان يشكّله السي حمزة دون الدخول الفرنسي إلى الصحراء .

كان أخوه النعيمي موافقا على مثل هذا المشروع وذلك ليأخذ مكان أخيه السي حمزة بسهولة.
إن الجنرال قائد منطقة تيارت تحفّظ إتجاه هذا الأمر لأنّه توقّع أنّ إغتيال رجل بمثل سموّه قد يسبب هيجانا وثورة، فطلب ممن هو أعلى منه أن يعفيه من هذه المهمّة. فكلّف الجنرال بيليسيي قائد منطقة معسكر بذلك ، فأرسل هذا الأخير وفدا جديدا مؤلفا من وجهاء المسلمين (سنة 1267هـ/مارس 1850م). وبعد إنتشار الميعاد و بعد تفكيرعميق قبل السي حمزة الدعوة التي نُقِلَت إليه عن طريق جماعة الإتصال (على شكل مبعوثي شارلماني من المدنيين والكهنوتيين لمراقبة السلطات المحليّة)،التي سجل العقيد تروملي قائمة أسمائها.

لقد قبل لكنّه حدد بتفسه مكان اللقاء: سفيد ، و هو مكان موجود على بُعد 35كلم جنوب غرب مدينة سعيدة، وهو المركز الفرنسي المتقدم في الناحية؛ كما أعلن أنّه سيكون مصحوبا بحرسه الخاصين به.

فبعثت قيادة معسكر ممثلين من الفرسان (سبايس)([219]) و "قوم " مُعْتَبَر، وطبعا النعيمي؛ كان على رأسهم الزعيم العسكري "صال SAAL " رئيس مكتب العرب بمعسكر.

الزعيم "صال " أعلم السي حمزة باسم اللواء قائد منطقة وهران أن السلطة العامّة للجزائر قد عيّنته خليفة –كما في عهد الأتراك –كممثل بكامل سلطته الإداريّة بإقليمه، لكن يمارس سلطته بإسم الحاكم العام بالجزائر على أن يدفع جزية سنوية إلى فرنسا وعلى أن يتفاوض معهم في مبلغها. السي حمزة أذعن النظر لكن على أن تمتنع فرنسا من التدخل الديني أو السياسي في حياة الإقليم. "صال " قَبِلَ وهو متيقن أن الفخ المنصوب لزعيم أولاد سيد الشيخ سيضع نهاية لجميع هذه المساومات. طلب منه مقابلة ثانيّة في الغد من ذلك.

([219]) سبايس: في المنجد جنود في خدمة أوربا (أصلها من الهند) كانت تطلق على الرجال الذين يستعملهم الأربيون في الهند لخدمتهم.

في الغد من ذلك وقبل أن يتفرّقوا، عندما كان الوفد الفرنسي ورئيس أولاد سيد الشيخ على فرسيهما أقبلت مجموعة من "القوم" الفرسان للضابط "صال" مسرعة كادت أن تؤدي بحياة السي حمزة لولا سرعة حركة فرسه حيث نجا من الموت بأعجوبة. (عن كتاب تروملي ص 93: الفرنسيون في الصحراء).

كان هذا الحادث عند السي حمزة و أصحابه فاضحا لنوايا السلطات الفرنسية، كان فشل المحاولة المخجلة قد وضع حدّا للمفاوضات. ولكي تنقذ فرنسا الموقف وتشوّه الحقائق قبضت على النعيمي وأُخِذَ الى معسكر لكي يُظَنَّ أنه هو مدبّر محاولة الإغتيال .

كانت خيبة أمل كبيرة لدى السلطات الفرنسية بمعسكر و تيارت ، فمواصلة الغزو كانت ثابتة في برنامجها، لكن كيف يمكن إقصاء عدو قوي وذي خطورة فريدة؟ بالقوة؟بالمفاوضات؟
هذا الحل الأخير هو الذي كانت له الغلبة.

يقول تروملي:"خلاصة القول ، أنّ تعيينه على رأس بلاده لا يكلّف خسارة تذكر، فنصّب كخليفة أولاد سيد الشيخ الشراقة في أفريل 1850م، أرادت فرنسا بهذا العمل أن تكسب السي حمزة. ذلك ما صدّقه السُّذَّجُ ؛ السي حمزة لم يتوقف من مواصلة إستعداداته، إنتهز الفرصة ليسرع مع أقرب مستشاريه في تحقيق مخططه الذي قرّره، مواصلة جمع ثروة ماليّة للحرب، وتعبئة الجماهير القبلية ووضعها في حالة ما قبل الحرب ،حفّز سلطات المغرب على دعمهم بالمعدّات اللعسكرية والحصول على الوعد من أهل مزاب بشراء السلاح من تونس (بنادق الكبسول ذات أنبوبين، السيوف، اليطقان، البارود ...)

كانت السلطات الفرنسية على علم يوما بيوم بواسطة عيونها وخاصّة النعيمي الذي كان متعجلا للتخلّص من أخيه بأي ثمن ليحلّ مكانه بدعم من فرنسا على رأس أسرة أولاد سيد الشيخ.

كان السي حمزة يبعث برجاله في جميع الجيهات، و في إنتظار نتائج المهمّة خيّم على سفح جبال ثنية التمر جنوب قرية الغاسول، لم يكن يعلم أن الجنرال بيليسيي بعث بوحدة عسكرية لمباغتة السي حمزة والقبض عليه وأَخْذِه تحت الحراسة إلى وهران. هذه السريّة تحت قيادة العقيد " دولينيي DELIGNY "غادرت تيارت بسِرِّيَةٍ تامة و لما وصلت قريبا من مخيّمه نفّذت مهمتهما.

و صلوا إلى مخيّمه بسرعة ليخبروه أن العقيد "دولينيي" في إنتظاره في الغاسول حيث توقّفت الفرق العسكريّة؛ ما إن وصل حتى أعلموه أن الجنرال "بيليسيي" يودّ ملاقاته ، ولم يسمح له حتى بالرجوع إلى خيمته ليحمل متاعه، أصيب بمرض فاضطرّوا إلى حمله على محمل و ارتحلوا قافلين

على توّهم ماريّن بحصن جريفل، مستعجلا على إنهاء مهمّته، اتّجه العقيد دوليني نحو فرندة ومنها نحو وهران حيث شرحوا له العقوبة التي أنزلوها ضده وهي عامين سجن نافذة .

لقد نجحت المكيدة لكن دون الأخذ بعين الإعتبار لردود الأفعال التي سرعان ما نتجت عن ذلك في جميع الصحراء بل حتى في التل الوهراني. الكل وصفوها بالعمل غير الشريف، بدأت الوفود العربية وأتباع الطريقة يفدون إلى وهران من سعيدة ومعسكر وبلعباس وتموشنت وحمام بوحجر وغليزان وحتى من تيارت لكي يعطوا له الولاء و الإحترام و توطيد العلاقة و الرابطة معه. منزعجا من التحول الخطير الذي قد يحدث، لم يتريث الجنرال بيليسيي من الإعلان إلى أركان حرب و يكتب إلى الحكومة العامة " إنه أكثر شعبية من عبد القادر، إنّه محبوب من الشعب غنيه و فقيره! " و لكي يخفّفوا من حدّة التعامل أعلنوا أنّه ليس في السّجن ولكنه في حرّية تحت المراقبة . ثم عيّنوا أخاه النعيمي المندّس برتبة آغا، لكنّهم علموا بسرعة أنه لا يحل المشكلة، لأنه ممقوت من طرف أهله و القبائل .

رجال الدين والشعراء وصفوا في المساجد والمقاهي والأسواق هذا العمل بالمشين والشنيع والغادر. في كل مكان استنكر الناس هذا الحبس والحضر فبدأوا يتحرّشون ضدّ الكُفَّار الّذين ليس لهم إيمان وشرع ،أعداء الله ورسوله وأعداء السي حمزة سليل الصحابي أبي بكر الصديق. فبدأت رياح العصيان والهيجان الشعبي تهب في جانبي الناحيّة الوهرانية والجزائرية، فَهِمَت السلطات الفرنسية أنها لكي تتجنّب الفوضى عليها أن تستدرك خطأها السياسي الفضيع الذي إستخقّت بنتائجه، لذلك اضطرّت بعد سبعة أشهر من السجن إلى أن ترجع للسي حمزة حريّته ومكانته التي جرّدته منها.(من كتاب تروملي ص96) – استغلّت حرّيته لتشوه سمعته، فكان عليه أن يظهر في كل المناسبات ، ذلك لخنق روح الثورة التي بدأت تنتشر، فقرّرت أن تجعله " يتجوّل " بإظهاره للشعب محاطا بالتشريف و الإعتبار والتكريم. فكان الجنرال " بيليسيي " يأخذه معه في كل مكان يظهر فيه الشغب والعصيان ، وبهذا أرغمه على مرافقته في غزواته ضد " الأرباع " بالأغواط ، و أولاد نايل بالجلفة ، كما أن العقيد دوريوColonel Durieu من جهته جرّه معه إلى الحدود المغربيّة في غزوة ضد حميان الشفاعة الذين كانوا في حالة تمرّد ، لم يكتفوا بإظهاره وإنما كانوا يرغمونه على المشاركة مع فرسانهم (القوم) في المعارك .

لم يكن يخفى على القيادة الفرنسية أنها إذا أرادت أن تحسّ أنها في دارها وهي في الصحراء فعليها أن تلغي السي حمزة الذي أصبح يشكّل خطرا متزايدا كما أن أتباعه يهيّئون العرب لخوض حرب ضد فرنسا. لا بد من التخلّص منه دون التعرّض لأي خطر **لأن** الأمر يتعلّق بعدو لدود لكنّه محترم ومعظّم في كلّ مكان بالصحراء و الناحيّة الوهرانية والوسطى وفي التل ، محاولة إغتياله

في "سفيد" فشلت ، و أما محاولة تسميمه فقد ثبت ثقل نتائجها فلم يبق لهم إلاّ "ضرب السفيه بالسفيه" على حدّ تعبيرهم (أو ضرب الشرّ بالشرّ). كان لا بد من إيجاد منافس يضاهيه، و بما أن أخاه النعيمي افتضح أمره في مساندة السياسة الفرنسية بطرق خسيسة مفضوحة فهو جاسوس و طمّاع ممقوت من جميع الناس.

لا بد من إيجاد منافس معروف بقيمته الدينيّة والسياسية ويحظى بالثقة. هذا الرجل هو صاحب الإسم المستعارالشريف محمد بن عبد الله الذي كان يتحرّك في الجنوب القسنطيني. في الحقيقة إن محمد بن عبد الله هذا كان شخصية مبهمة !

ماذا كان حقّا ؟هل كان محاربا بالإيمان ؟ أو مغامرا ؟ أو أحد عملاء القيادة الفرنسية؟ كان يدّعي أنّه شريف ، أي من سلالة الرسول لكن من أي فرع ؟ لا توجد أية شجرة نسب تصحح هذا الزعم الذي لم يكن إلاّ اختراعا من طرف فرنسا. قيل أنّه جاء من المشرق، من أيّ بلد من المشرق بالضبط؟ إنّه لمن المستحيل "لمشرقي" غامض يزعم أنه من أصل شريف أن يفرض نفسه كقائد ديني وعسكري على قبائل متفرّدة فيختلق لنفسه سلطنة هنا وسلطنة هناك الواحدة تلو الأخرى. فقد مرّ بتلمسان ثمّ الأغواط حيث أشهر نفسه كخصم للأمير عبد القادر، في حين لا يتصوّر لشريف ينصّب نفسه ضد قائد وطني هو نفسه يقول أنه شريف! أثناء منازعة السي حمزة مع فرنسا أعلن نفسه فجأة "سلطان" ورقلة ونواحيها وهي مقاطعة تابعة عادة لطريقة سيدي الشيخ.

بهذا اللقب خاض مجموعة من الإستفزازات ، وعلى إبتهاج من طرف السلطات الفرنسية لكن السي حمزة لم يعرها أي إهتمام في أوّل الأمر. اراد أن يأخذ الولاء من الشعانبة ، بوروبة ، من المخادمة ، من بني ثور كلّهم أتباع طريقة أولاد سيد الشيخ، غارة على واد زرقون ، و جزية مفروضة على "شعابنة برزاقة" بمتليلي، و هم متخرّجون من نفس الزاويّة. ان يظهر جليّا أنه يريد "وهو غريب مبهم " أن يحلّ محل القائد التاريخي لأولاد سيد الشيخ الشراقة وفي ولايته الوراثية نفسها. كان يريد أن يقوم بكل عمل يهين به السي حمزة ويعطيه إشهارا صاخبا وضوضاء. و بذلك عزل قائد واحة نقوسة ونواحيها أبا حفص بن بابيا و هو رجل يحبّ السي حمزة ويبذل نفسه من أجله، فاستبدله برجل من محبي الشيخ بن الطيّب. كان لا بد من رفع هذا التحدّي و وضع حد لفيش هذا " الشرقي " الغامض صاحب الأطماع المخبولة والإستفزازات التي لا تطاق.

وللتّحريش بينهما دفع العقيد دوريو Durrieu و الرائد كولومب بموافقة الجنرال روندو Randon الذي كان أنذاك الحاكم العام للجزائر، دفعوا الشريف المزعوم ليقوم بحرب ضد السي حمزة و قد وعدوه بأن يساندوه بفرق عسكريّة، وفي نفس الوقت الحّوا على السي حمزة ليهاجم محمد بن عبد الله مع وعده بالتدخّل إلى جانبه بفرق عسكرية فرنسيّة!.

إنّه لمن الخيانة أن نخفي بعض الأحداث، لكن التاريخ عِلْمٌ بارد لا يملكه أحد ، و هو يهتم بالوقائع و وليس بتفسيرها المعنوي .

السي حمزة غادر بريزينة على رأس قوّته يوم 02 نوفمبر 1853م/ 1270هـ المقدّرة بألف فارس ومثله من المشاة ، و صل إلى متليلي حيث مكث ثمانية عشر يوما. إنتهز الفرصة هناك ليبعث إلى ورقلة وناقوسة جواسيس ليخبروا القبائل التابعة لطريقة سيدي الشيخ عن قراره لوضع حد للفوضى التي إختلقها المغامر المدّعي الشرف الذي طال عمر تجاوزاته. طلب من الشعابنة بمتليلي وورقلة ومن المخادمة و الرويسات وسعيد عتبة والقبائل المنضمّة أوالصديقة أن يرفعوا الراية ويدقّوا طبول الحرب ضدّ المنبوذ الذي ساعد على الفوضى، ذي الأصل الغامض والأهداف و التديّن المشبوه. بمصاحبة أخيه المقدام السي لعلى غادر سي حمزة متليلي ليذهب إلى المنطقة التي أعلن فيها محمد بن عبد الله أنّه سلطان عليها أي نقوسة وورقلة. ومن الجانبين كان المستعمر الفرنسي يراقب العمليات دون أن يتدخّل.

من جهة محمد بن عبد الله لم يبق دون حركة و إنما طاف على الدواوير و الواحات مروّجا نداء المسلمين "الحقيقيّين" "مولين الكبدة " (أي الذين يملكون كبدا و قلبا يغار...) أي الشجعان لكن الفراغ أحاط حوله. و بشقّ الأنفس استطاع أن يجمع حوالي أربعة آلاف رجل، فلما تركه أهل ورقلة حمله ذلك إلى مغادرة حي الرويسات بعد أن طلّق نساءه من حرمه وهرّب نحو الجنوب أمتعته وحوائجه وقطعانه من الإبل و الغنم التي سبق أن جلبها. قرّر مباغتة واحة نقوسة ليلا ليجعل منها مركزه العام . لكنّه استقبل بنار قاتلة ممّا جعله يتراجع بضعة كيلومترات من واحة النخيل هذه، في الغد من ذلك وقعت له تحرّكات كبيرة بين مشاته عندما كان جالسا مع مستشاريه، كان سبب إنتشار الحركة في جيشه هو خبر إقتراب السي حمزة من نقوسة. وصلت عجوز ومن ورقلة – من قرابة السي حمزة من أمه (لأنّ أمه من قبيلة المخادمة كما سبق أن ذكرنا) فأخبرت سكان نقوسة بوصول فرق أولاد سيد الشيخ المفاجئ . فأصيب الناس بالهلع وتشكّلت مجموعات تحت الصراخات و الضجيج بحرارة والكل لا يفكّر إلا في إنقاذ نفسه، فلم يبالوا بنداءات وتوسّلات محمد بن عبد الله ثم تركوا سلطانهم المزعوم ما عدا قبيلة الهغزلية.

هذه الهزيمة النفسية قبل المعركة لم تكن منتظرة من القيادة الفرنسية، فأسرعت في تزويده بالدخيرة والسلاح ونصحته بالتخلي عن الهجوم والإنسحاب إلىالجنوب في ناحية الكثبان ليحتل مرتفعاتها و يبقى هناك في حالة دفاع.

في سفوح الكثبان اند لع القتال، استطاع رجال محمد بن عبد الله أن يظهروا مقاومة باسلة متستّرين وراء المرتفعات الرملية و قتلوا الكثير من رجال السي حمزة.

اليوم الأول مرّ دون نتيجة رغم إقدام وشجاعة السي لعلى و السي حمزة الذي جرحته رصاصة بيده. في الغد من ذلك تقرّر مصيرالمعركة . يقول تروملي "في الهجوم الثالث و رغم جرحه تقدّم السي حمزة بوجه مكسوّ بالدم، بِعَيْنٍ وَقَّادَةٍ و متنقلا من مجموعة إلى أخرى على فرسه الذي أبيضّ بالزبد وتخضّبت خواصره بفعل الشبير" ثم يقول "لقد هيّج فرقه بالصوت والحركة دافعا بفرسه وسط الميدان، متبوعا بقريبه الباسل السي قدور الذي أراد أن يسبقه و يحميه"(ص117-122 تروملي).

تبعه الفرسان والمشاة في هجوم لا يقهر، أدّى إلى نكس فرق محمد بن عبد الله. أصبحت المعركة طاحنة رغم تحرّش المقاتلين المكلّفين من قبل القيادة الفرنسية بقتله ورغم جروحه الجديدة بقي السي حمزة على فرسه وسط المعركة الداميّة.

قبائل الرزيقات واولاد مومن والقراريح واولاد زياد وستيتين يقاتلون بشجاعتهم المعتادة، إن خيولهم تعفّر الجثث تحت اقدامها، جواد السي حمزة إنكسرت رجله برصاصة فَامْتَطَى حصانا آخر، أراد أن يقود هجوما أخر ضدّ عدوّ كان يوجّه كل رميه نحوه شخصيّا، إذ راى ثمانية رجال راجلين يتقدّمون نحوه و هم يقودون "القادة" (حصان الشرف) ويصرخون قائلين: " بسم الله يا السي حمزة! لقد خدعونا! و نطلب منك الأمان، ونطلب منك أن نقاتل تحت رايتك!". أراد فرسانه أن يواصلوا الهجوم لكن السي حمزة قبل العهد والتسليم من طرف العدوّ وأوقف القتال. فأعلموه أن محمدا بن عبد الله لما رأى جماعته تتناقص فرّ مع فارسين أو ثلاثة فقط في إتجاه القافلة التي كانت تحمل أمتعته.هذا الإنتصار الباهر مع الإستسلام غير المشروط سبّب خيبةَ أملٍ كبيرة للقيادة الفرنسيّة، عن مكيدتهاالتي باءت بالفشل الذريع ثانية ، وبالمقابل سبّب لدى سكان البادية والحضر فرحة عظيمة ، و إن صيت السي حمزة الذي أظهره في المعارك كرجل حرب مهيب ومدبّر ماهر قد بلغ في الشدّة و الإتساع درجة لا مثيل لها في الأخبار التاريخية الجزائريّة.

الفرق الفرنسية نفسها التي خابت مساعيها بمنعرج الأحداث والتي حضرت "مجانا" إلى إنقلاب القتال المستميت، لم تتمالك من الإنبهار بحسن تخطيط وبسالة القائد الذي كانت تتمنى سحقه وقتله في "معركة السفهاء" كما سبق أن ذكرها العقيد تروملي.

غادر السي حمزة وجيشه ميدان المعركة، وعند وصولهم إلى مكان يسمى البكرات الذي يبعد عن ورقلة بحوالي ستة كيلومترات جنوبا، إستقبلتهم كوكبة من الرجال والنساء من جميع الأعمار والأطفال جروا أمامهم للإحتفال بهذا الإنتصارالذي يستحقّ الذكر. هذا الجمع "الوثني" على حد تعبير تروملي (ص123) إنضوى أمام السي حمزة وهم يحثون أن يقبلوا ركبته و ركابه وهم يصرخون :" الله يحفظك! نحن تحت طاعتك و ننضوي تحت رايتك !" ،"فالغايطة" والقصابة والطبل لم تستطع تغطية زغاريد النساء ، قال أحد الشعراء (محمد بلخير) في قصيدة طويلة :

الشكر يواتي البويكريّة *** وعلاه الى قالت إمرأة تولد

هم اللي هجروا بالإسلامية *** وادّوْا على الطايقين الشايط

إراد السي حمزة أن يذهب إلى نقوسة لكن المخادمة توسّلوا إليه لينزل إلى ورقلة و ليقيم بالقصبة (قلعة) التي بناها محمد بن عبد الله في حيّ الرويسات ليجعل منها برجا؛ علمت القيادة الفرنسية مرّة اخرى أن السي حمزة ليس فريسة سهلة فسكان التل الوهراني والجنوب الجزائري قد كسب ثقتهم ولا بد من مكيدة تجعله عديم التأثير وتبطل مخططاته، لكن "المكيدة" لا بد مكن تأجيلها لأن محاولة إلغائه قد تحدث آنذاك نهضة عامّة في كلّ الجزائر.

كان لابدّ حينئذ من أن يسرق منه الإنتصار، لا بدّ أن يرسّخ في أذهان العرب أن السي حمزة لم ينتصر على "الشريف" إلا بفضل فرنسا التي أوجبت أن ترفع رايتها في جميع صوامع القصور، وأسرعوا إلى تنظيم المناطق المفتوحة وتعيين قادة موالين لفرنسا لكي يديروها، كما أن العقيد دوريو أنّب السي حمزة الذي أخذ الولاء والطاعة من السكان بإسمه وليس بإسم فرنسا، فسأله السي حمزة قائلا: " لماذا لم تدفعوا بجنودكم من سبايس والجنود إلى المعركة ؟" ثم أضاف السي لعلى:"إن التفرّج على المعركة بين العرب جميل عندما لا يكلّف أي شيئ" ثمّ نزع عنه شرائطه (نياشينه) واضعا إيّاها قرب أنفه و شتمه بالعبارات التقليدية الشفهية ! :"و هذه الشرائط؟هل هي علامةالشجاعة وحبّ التباهي؟ إنّها حليّ النساء!إنها علامات النذالة! أيها الكافرالنتن ! أيها الكلب إبن الكلب! "، أراد ضباط أن يتدخّلوا لكنّ العقيد أوقفهم قائلا " فيما بعد! فيما بعد !"

الرائد كولومب كان يفهم جيّدا اللغة العربية و رأى من الأحسن أن يشير لهم قائلا :" يجب أن نؤجل الجواب عن المسألة فيما بعد "،وأعلم السي حمزة على مضض أن الحاكم العام روندو Randon يعطيه موعدا للإلتقاء به في الأغواط لكي يهنّئه على إنتصاره. وبالفعل استقبله روندو و هو شديد الإنبهار بإنتصاره في الأغواط ليقدّم له التهاني و"ليحلّيه " بوسام صليب فارس كتيبة الشرف (la croix de chevalier de la légion d'honneur) يوم 09 فبراير 1854م على سخط من دوريو وكولومب اللذين ساءهما أن يريا الإستقبال الحار الذي خصّه سكان الأغواط بالسي حمزة وجيشه الباسل، لكن السي حمزة اندهش كثيرا لما سمع الحاكم العام يشيد في خطابه – لما ترجم إلى العربية – ليس بالمقاتلين العرب و لكن بالفرق الفرنسية وشجاعتها ومصابرتها قائلا :"يا جنود مستعمرات الجنوب .. إنكم أظهرتم العلم الفرنسي في المناطق التي قبل مدّة قليلة من الوقت لم نكن نحسب أنكم تستطيعون الوصول إليها.. أيها الجنود إنكم أهل لتفخر بكم الأمّة " (و لم يضف طبعا " دون أن تطلقوا رصاصة واحدة !" (10 فبراير1854م).

لكي نرجع إلى لغز محمد بن عبد الله لا بد أن نعيد طرح السؤال : من هو بالضبط ؟كل شيئ يدلّ على أنّه رجل له يد في المصالح السرّية الفرنسيّة. ولم يكن أول ولا آخر العملاء المتخفيين لفرنسا التي كانت لها مجموعة من " الشرفاء " الدجّالين و " الأولياء" الدجّالين المستخدمين لصالح فرنسا بدافع المصلحة أوالطمع ينبثقون من هنا وهناك كلّما دعت الحاجة إلى تسهيل غزو البلد. كانت هذه حالته ، كما كانت حالت سيدي البشير زعيم الطريقة التيجانية الذي بتحريض من السلطات الفرنسية وقف ضدّ الأميرعبد القادر. وعلى كل حال فإن محمد بن عبد الله استسلم منسحبا من ميدان المعركة – بدون شك بأمر من القيادة الفرنسية – إلى الجنوب الجزائري التونسي، حيث دخل الحلبة مرّة أخرى في سبتمبر 1275هـ/1858م و نصب نفسه من جديد "سلطانا" و جنّد بسهولة عجيبة حوالي مائة فارس و مثلهم من المشاة و ارتمى على واد سوف و توات لكي يمهّد دون شكّ للإحتلال الفرنسي. و دخل من جديد إلى منطقة أولاد سيدي الشيخ حيث أوتي على فرقته على آخرها .

هو بنفسه لم تنقذه من الموت إلاّ تدخّل القيادة الفرنسيّة التي إنتزعته من أعدائه إنتزاعا. ولما تحققت من عدم "صلاحيّته" ومن الأخطار التي كانت تحدّق به بعثت به إلى فرنسا في مدينة بربينيو Perpignon حيث أقام بكل أمان بضع سنوات، ثم بطلب منه أعيد إلى الجزائر حيث توفى في تاريخ غير مضبوط، ودفن بالشمال القسنطيني(باتنة؟).

لسنا في حاجة إلى أن نضيف أنّ من خلاله والكثير من أمثاله من الزعماء المسلمين استعملتهم فرنسا كأدوات لسياستها التوسّعيّة و لغزوها ثم تتخلّص منهم بطريقة أو بأخرى كلّما ضايقوها.

ثم بدأ آنذاك لدى السي حمزة ما أسماه هو"بسياسة الصغار". كان يقول وهو يتكلّم مع السلطات الفرنسيّة "كبيرهم يكبّر بنا وصغيرهم يصغّر بنا "، وأسرع إلى إعداد ثورة ضدّ سيطرة تعهدت أن تكون غير مباشرة، لكن كل تفاصيل معاملاتها كانت مباشرة ومذلّة وغير شرعيّة وغير محترِمة للنظام التقليدي المستتب. فالمخالفات (والحوادث) تضاعفت بين الخليفة والإدارة الفرنسية الممثلة في دوريو الذي أصبح جنرال قائد (general commandant) لفرع معسكر، و الرائد كولمب Colomb قائد دائرة جريفيل ونائبه الملازم الأول بوران Burin Dubrusson.

في بداية الأمر قضية سجن إمرأة من ستيتين هي فاطنة بنت عائشة الكحّالة من طرف المدعو بوران لسبب تافه، ثمّ رفض السي حمزة الإشتراك في إستعراض فرقه من فرسان القوم المنظّمة بجريفيل بمناسبة العيد المسيحي في 15 أوت 1858 م ، زد على ذلك معارضة السي حمزة لإجلاء أعيان و أكابر من العرب من قبائلهم ليقيموا خيامهم عند قبائل أخرى ، و رسالته بهذا الشأن إلى الملازم الأوّل بوران تدلّ على خطورة الموقف المتصاعد:" ستعلمون أنكم تزرعون الفوضى عند العرب

إنّكم تستعملون القمع دون سبب إلى حدّ أنكم تسجنون المساكين الأبرياء دون مظلمة ، وإنّكم تنصتون إلى نصائح القياد (caids) التي تؤدّي إلى الفوضى عند العرب " و كتب القبطان كولومب : "إن طريقة تعامله لا تعجبني كثيرا " فأجابه :
بهذا الموقف:" تقول أنك سئمت مني و أنا أقول لك ألف مرة إني سئمت منك و من عروضك واقتراحاتك وطرقك غير اللائقة... سمعت من عروضك ما لم أسمعه منذ ولادتي" (ارجع إلى الوثائق –II 813-814).

و بكل عصبيّة و قوّة تحالفت السلطات العسكريّة ضدّ السي حمزة معتبرة أن مواقفه تقدح في كرامتها ومهمّتها. فوضعت الحكومة العامّة بين حلّين:هي(أي السلطات العسكريّة)أوعدوّ فرنسا(أي سي حمزة). هذا ما يفهم من رسالة كتبها الرائد كولومب للعقيد دوريو.و الجنرال دوليني الذي أصبح قائد منطقة وهران تأسّف لهذه الأحداث ولاِتّخاذ هذه المواقف. كان يعرف العالم العربي و يقدر حساب ما يمكن أن ينجرّ عن المقاطعة مع سيّد عربي قويّ ومجاملة الجماهير الشعبية.

كان السي حمزة منذ زمن طويل يودّ أن يعطي الفرصة للقيادة الفرنسيّة ليزن نفسه معها، لكنّه اضطرّ إلى تسكين الإثارات الفرنسيّة.

و بقي هذا الوضع مبهما (aleatoire) يسيرعلى الصدفة، حتى سنة1276 هـ/ 1860م حين نقلت إلى علم الحكومة العامّة بعض الأمور المقلقة.

مختلف المخبرين(الخبارجيّة) نصّوا على نشاط جواسيس السي حمزة الذين كانوا يجوبون الجنوب الوهراني و حتى المغرب وبلاد التوارق. و أمر آخر أخطر: قافلة ذات أربعة مائة جمل محمّلة بأحذيّة عسكريّة قادمة من المغرب متّجهة نحو الأبيض سيدي الشيخ حجزت من طرف الجمارك الفرنسية في ناحية تاندرارة. تيقّنت السلطات الفرنسيّة أن السي حمزة يهيّئ ضربة شائنة ضدّ فرنسا.

كان لا بدّ من إتخاذ إجراءات حتّى و إن كانت عنيفة لجعل إستعداداته للثورة لا مفعول لها وذلك بالقبض عليه شخصيّا وسجنه وليس في وهران لكن في الجزائر العاصمة. ولتحقيق ذلك لا بدّ من مكيدة. لما إستدعي لتقديم التهاني للعام الجديد للحكومة العامة ولبّى الدعوة ولكن بمجرّد وصوله إلى محطّة القطار "الدار المربّعة **maison carre**" بالجزائر قبض عليه وأُرْجِعَ رُفَقَاؤُهُ إلى جريفيل (يناير 1860م).

و أعلموه أنّ الحكومة كانت على علم "بغدره لها"، وبأن لقب الخليفة قد نزع منه وبأن جميع ممتلكاته أصبحت محجوزة:(قصره) مقر إقامته بوهران وعقاره بمعسكر ومقر إقامته بجريفيل وبساتينه

وبرجه ببريزينة و بساتينه بورقلة ومتليلي حيث كان ينوي بناء سد وممتلكاته بالمنيعة، وبأنّه قد حكم عليه بالعيش تحت الرقابة إلى أن تصدر أوامر أخرى بالجزائر العاصمة.

وضعوه في حمام عربي سماه مسلمو الجنوب الجزائري منذ ذلك الوقت "حمام سيّدنا" و الذي مازال موجودا. ثم توفى فجأة بالجزائر سنة 1277هـ/1861م (21 أوت) و دفن في قبّة سيدي محمد بن عبد الرحمن ببلكور (الجزائر).عند الإعلان عن وفاته اتُّهِمَت السلطات الفرنسية أنها استعملت له السّم.

بخلاف توقّعات السلطات الفرنسية فإن موته في ظروف مشبوهة كانت بعيدة من أن تشجّع على استعمار الصحراء ، إنّما فتحت مرحلة جديدة في معركة جماهير الجنوب الجزائري من أجل استقلالهم ومقاومتهم للإحتلال الفرنسي:عصر حرب (1280/1864م) لم تنته إلا مع وفاة بوعمامة (1325هـ/1908م).

حول وفاته الطبيعيّة أو بالسّم فإنّ المصادر الفرنسيّة غامضة و موجزة وملطّخة بالتهم. ترومليي أعطى الرواية الرسمية، الجنرال دوليني يتأسّف ويحسّ بنتائج الحادث. فيما بعد الحاكم العام جول كومبون يستنكر موقف السلطات الفرنسية إتجاهه دون أن يفصح عن رأيه([220]).

على كل حال فإنّ التحضيرات للحرب التي أوقد فتيلها السي حمزة طيلة حياته قد إحتدّت تحت ضغط الرأي العام حتى وصلت إلى التمرّد العام. تحرّكات القبائل واستنتاجهم للنهوض و السلاح بأيديهم كل ذلك عبّر عنه بالتقاريظ بالمدح والرثاء المحزن التي نقل لنا معاصروهم بعضها:

يوسف الشعني أعرب عن ذلك حين كان لا يزال في الإعتقال قائلا :

1-ابكِ ياعيني على رايس لعقاد * من لا ليه مثيل في ذا البر وذاك

2 - نبكي ونبكّي الحاضر بالتمجاد * بكّاني حمزة وزاد القلب هلاك

3- لو ما حمزة واشتا يبكوا لشماد * قالوا عَيْطَة عاقلين الصبر دواك

4- حمزة بوسكّين دمّار التياك * من جاته ساعته يواسي فيها هاك

5- حمزة طوّعها سلاطين و تياك * من برّ السودان لكراسى لتراك

6- ظنات الياقوت في قاسح لزناد * سلسلة ذهب باقية من ذاك لذاك

7- سيدي و أنا خديم على لجداد * لوداري بالضر نلقاه ونهداك

---

220 – هذه المعلومة مأخوذة من عدّة أشخاص بالبيّض و الأبيض خاصّة الباشاغا السابق لجريفيل العربي بن الدّين حفيد السي حمزة المتوفى سنة 1381هـ/1962م. / يرجع إلى الوثيقة 817 – و كتاب تروملي ص3 . محضر وفاته كان موجودا قبل 1958 في غلاف من رصاص بمكتبة حكومة الجزائر تحت رقم 150.

8- ياله في الجنّة ذراعي ليك أوساد * والاخاطي وين رحت أنا ويّاك

هذا الإرتباط الناتج عن العاطفة العميقة والتضحية اللامشروطة من طرف الأفراد والجماعات وجد سببه الّذي جربه في الثورة ضدّ الإحتلال الفرنسي تحت راية أبنائه باسم الدّين والوطن وبفضل المساهمة الباسلة لطريقة أولاد سيدي الشيخ، ثورة جعلتها أسباب أخرى لا يمكن تجنّبها.

بدءا بالحقد المتنامي في النظام الإستعماري مع العنصريّة المعاديّة للجزائر، إغتصاب الأراضي الخصبة لصالح المعمّرين أصحاب التكريم و الرعاية الذين كانوا ينشئون في مختلف الأماكن قرى كانت تسمّى قرى الإستعمار والدّيات والضرائب الثقيلة على الإبل والبقر والأغنام تفرض بصفة مبالغ فيها على بعض القبائل من طرف بعض الضباط العامّين من الجنرال يوسف الذي كان متفقا مسبقا و سريّا مع الجزّارين المهرّبين القادمين من المدن يمرّر لهم بأثمان زهيدة محصول تلك الأراضي المغتصبة المخجلة ، و إحتكار أملاك و أموال الوقف والحبوس وإلغاء وقفها بمرسوم يشترط أن الحبوس غير قابل للمساهمة، الإنزال المفروض للعساكر بالقبائل الموجودة في المناطق غير المحددة لتسهيل الإستلاء على الأراضي الجيّدة من طرف المعمّرين، النظام العقاري الهدّام (المسبّب للإفلاس) المفروض على أملاك السكّان الأصليّين، وأقصى العقوبات مفروضة على الجزائريّين لأتفه الأخطاء، مبدأ المسؤوليّة الجماعيّة إلى جانب عدد غير معقول من الإجراءات التسلّطيّة الجائرة والظالمة، حقد بلا سبب معمّم لكلّ ما هو عربي، شكاوي الجزائريّين كانت تُقابَل بمبدأ التفوّق العنصري المعترف به لكل اوربّي ضدّ السكّان الأصليّين، ومبدأ آخر أكثر جرأة: عملاء فرنسا سواء أكانوا مدنيّين أم عسكريين لا بدّ أن يكونوا دائما هم المحقّين حتى إذا كانوا مخطئين فهم محقّون، حتى لا يظنّ الجزائريّون أن السلطة قد ضعفت، هذا الإجراء المتعمّد ضدّ المساواة التي يصرّ عليها الجزائريون جعلهم يسخطون و دفعهم إلى الثورة .

هذا الإجراء كان يظهر جليّا في محاكم القهر التي كان قضاتها مكوّنين من العسكريّين والمعمّرين فقط الذين كانوا يتّهمون الأهالي بثلاث تهم معنونة:أعداء الفرنسيين ،أو الفرنسيين المعاندين والمشاقين، و الوحوش المثيرة للفوضى.

بينما الجزائريّ لم يكن لا بدائيّا ولا وحشيّا كسكّان غابات إفريقيا الوسطى أو أمريكا أو بولينيزياPolynésie. بالعكس إنّه ينتمي إلى ديانة ساميّة بثقافتها، الثقافة الإسلاميّة التي أنجبت أوربا على حد تعبير المؤرّخين الفرنسيّين أنفسهم، وأعطت ضربة إعلان النهضة والتحرر الفكري.

الشعب الفرنسي ذو الحقد العميق لخرق القانون كان يتشكّى من خلال منتخبيه هناك les élus) (métropolitains من النظام الإستعماري ويحتجّ ضده في كل مناسبة. لكن بما أنه لا يوجد أصمّ أكبر ممن لا يريد سماعا، فإن شكاويهم بقيت بلا تأثير. زيادة على الإستغلال السياسي

والإقتصادي والإجتماعي للجزائر- و هو الهدف الموكول للإستعمار –و زيادة على الإستغلال العنصري وتكاليفه العشوائية التي لا آخر لها و التي كانت تستند إلى قانون طبقي مهيأ و مُعدّ على المقاس وهوقانون الأهاليCODE D'INDIGENAT زيادة على كل هذا يضاف المناخ المعنوي الذي أصبح لا يطاق أكثر فأكثر. وحتى تُسْحَقَ معنوياتُ الجزائري: رجل أو امرأة إبتكر المستعمرون مفردات فاضحة مهينة هؤلاء الذين جاءوا بالثياب الرثة بدون أي فلس يذكر من جميع أركان أوربا لا يفوّتون أية فرصة لإهانة الأهالي في ذواتهم ولإحزانهم بمركب النقص. الألفاظ المستعملة كانت بليدة، لكن لحن الكلام والمناسبة التي كانت تستعمل فيها تجعلها شديدة التجريح: بيكو(حمار، حقير) جدع التين ، قنينة مشبعة، فأر،فاطْمة، موكير(MONQUERE) كما كانوا ينطقون كلمة عربي(عرّب) مظهرين بها حقدهم.

القرآن يعلمنا أن في كل خير يوجد شيء من الشر وفي كل شر يوجد شيء من الخير؛ هؤلاء المتغطرسون الأوربيون لم يتفطنوا أن بمعاملاتهم هذه يخلقون هم أنفسهم في الأهالي الهوية والإتحاد في جوالبؤس.وهكذا تكون من خلال الدم والدموع و الشقاء والمهانة والظلم، تجانس وتلاحم الشعب الجزائري. هذه الأجيال كانت تدفع الثمن مسبقا منذ 1830م، ثمن وحدتها ومستقبلها كأمّة كبرى.

كانت إذن أخويّة(جمعيّة،طريقة) سيدي الشّيخ وذريّته قد نشطت بروح حربية خفيّة، ومصمّمة على وضع حدّ لهذا الوضع الذي أصبح غير محتمل للثّأر لموت قائدهم المحبوب المكرّم غدرا، ولشرف الإسلام والوطن، فقرّروا التمرّد لخوض معركة بدون هوادة ضدّ فرنسا وعملائها الذين باعوا أنفسهم لها . معركة صعبة و بطوليّة ترجمها الشاعر الشادي محمد بلخير في نظمه الملحمي الذي سنخصّص له فيما بعد دراسة خاصّة . لا نستطيع هنا أن نضع وصفا مفصّلا للمعارك، سنضع فيما يأتي عرضا لأهمّ المجابهات السارّة والمحزنة لهذه الثورة التي دامت عدّة سنوات و تركت رمز المقاومة البطولّية الدّائمة للجنوب الوهراني أمام الأمبرياليّة المتسلّطة الفرنسيّة، مقاومة تمحورت حول صيت سيدي الشيخ وبطولة أبنائه المباشرين والملتفّين حول طريقته الصوفيّة تحت راية عائلة السي حمزة الذي أصبح مثلا للبطولة لجيش التحرير الوطني قرنا فيما بعد. شاعر آخر ترجم الوضع المعنوي للسكّان بعد فقدان السي حمزة قائلا: قال المرحوم يوسف الشنعبي:

1- سلطان[221] الصحراء([2])درق([3]) حسّه([4]) مابان خلى النجع و مرّ غادي([5])

---

[221]سلطان :لقب كان يعطى في القرون الوسطى لكل قائد في ناحية الصحراوية كما كانت الحال عند المماليك : تقرت ، ورقلة ، عين صالح ، أقادس ، طمبكتو.

[2]– الصحراء: أي الوسطى أخوية أولاد سيدي الشيخ أنشأت خلال العهد التركي إمارة مستقلة متحالفة مع الدايات، حدود هذه الإمارة مشار إليها في الخرائط القديمة لإفريقيا الشماليةوالصحراء ،آخرها في التاريخ التي مثلت هذه الإمارة والتي وضعها رين RINN.

[3] –درق: غاب في الأفق .حرفيا صوته لم يعد يسمع .

2 ـ ذيك الليلة شيّبت([6]) كل العربان   راحت ميخوذة أدّادي([7]).
3 ـ هذا قارح هذا مكدّس في الأحزان   لحموم الطاجين طالي
4- غاب شليل([10]) القوم([11]) ربّاب([12])   حرم النجع نقار([13]) ضدّي
5- من بعده ظنيت ما نكسب حيران   وادّاوا الكفّار سعدي
6- واحدة جابت صيد بوروبة فتّان   درقام إلا هدّ يدّي
7- واخرى جابت عقيب فرّاق   وتتشنّي وتقول ولدي
8-فحل النياق غاب وتهدو حيران   واش نهدّ أنا لذودي
9- خايف من دقّ المكاره والعديان   وفرقها وغدى موّدي
10-خايف من دّق المكاره والعديان   واعل والمشاعل يقدي
11- طير ريته سكن لي في الأفزان   وغدى والكمبيل في يدّي
12- غيّب مولى واد سقر والبيبان   نقار الأعداء الزقندي([14])
13 -ما يدوى من حسّ هيلات القومان   خبّال غزل الليّ تسدّى
14- وإلاّ راد الله مازال يرجع كيف زمان   ما ندير ارطى في وقيدي
15- و يولّي مهماه في وسط الفرقان   و يطيب أنا رقادي
16- غدروا فيه الروم شينين الديوان([15])   غدروا والفعل رادي([16])

---

[4] –حسّه: في الضمير الغائب بضم السين عند البدو وفتحها عند الحضر. ولمعرفة اللهجات العربية في الجنوب الجزائري الوهراني يمكن الرجوع إلى الكتب النالية و.مارسي W.Marçais لهجات أولاد إبراهيم ،بباريس 1908م. وكتاب كامبفماير Kempfmeyer بعنوان" Sud Algerische Studien "1905م ص 225–245 وكتاب J.Contineau "لهجات العرب في عمالة وهران" في Revue Africaine سنة 1940 ص 220–239 وكتاب G.Mercier "العربية المستعملة في الجنوب الوهراني" في سندات المؤتمر العاشر للمستشرقين المجلد الثالث ص 283–293 – كتاب المقري: نفح الطيب 592 ،وكتاب A.DHINA "تقاييد حول اللهجة وقواعد لغات الأرباع "1938 ص 313–352 ونصوص عربية للجنوب الجزائري نفس المرجع 1940.

[5] – غادي: ذاهب في الصباح أي بعيدا .

[6] –شيب: تعبير عن الحزن العميق.

[7] – **راحت**: ذهب مساءا. **ميخودة**:من المصدر"أخد" مبني للمجهول لإسم مفعول للتعبير به عند البدو وعن المرء إذا أُخِذَ ماله ولم يبق له شيئا. **أدادي**: بإدغام التاء في الدال "تدادي" أي يمشي بصعوبة تقال للفرس غيرالمنعل يعني يتباطأ في سيره إذا كان متضايقا

[10] –شليل القوم : الذي يتزينون به أو الذي يتخدونه ضرعا لهم عند الشدائد

[11] –دب: المعنى المحلي يروض الجمل أو الفرس يقود بكل تحرز.

[12] –الدهشات : داهش أي الذي خارت قواه.

[13] – نقار: من نقر أي إصطم أو ضرب ضربة جافة .

[14] –الزقندي :لفظة بربرية.

[15] –الديوان : المجلس بالمعنى المحلي والإدارة.

[16] رادي : فاسد من رديء.

- بداية المعركة -

2 - سـيـدي سـليمان بن حمزة

معركة عين بوبكر (أفريل 1280هـ/1864م)

رأينا فيما سبق أن موت السي حمزة التي صرّح بها العرب بالجنوب الوهراني أنّها وقعت بسبب التسمّم و قد تسبّبت في أزمة حادّة في العلاقات بين جماعة طريقة أولاد سيدي الشّيخ وفرنسا. ابنه الأكبر سيدي بوبكر، لم يعيّن كخليفة لكن باشاغا فقط أي موظّف في الإدارة الفرنسيّة، وكان ذا مزاج مسامح وذا صحّة ضعيفة. ولا يوجد عليه أي رد فعل ضدّ فرنسا، جموده هذا جعله بسرعة غير شعبي، الزّاويّة ومثلها الطريقة نفرتا منه، يقال أنه لم يمر زمن طويل حتّى سمّم حسب الرواية الفرنسيّة . مهما يكن فقد توفّى سنة 1279هـ/1863م.

أخوه السّي سليمان بن حمزة بالعكس كان ماقتا كبيرا للفرنسيين الذين اغتالوا أباه، وهم أعداء الإسلام وأعداء وطنه، وما إن بلغ العشرين سنة من عمره حتّى خلف أخاه، الخدّام و مقدّمو الزاويّة وشيوخ القبائل وخاصّة عمّه الباسل السّي لعلى شجّعوه بكل إلحاح لإعلان الجهاد.

من الناحيّة الفرنسيّة كان هذا الإعلان منتظرا و الجدير بالذّكر أنّ ممثّلي السلطة الفرنسيّة كانوا من عدم الكفاءة وعدم الذّكاءممّا جعل المعركة لا يمكن تجنّبها، كانوا يحبّون أن يصدروا الأوامر ويتبختررون ويطاعوا ويفعلوا ما يشاءون ومتيقّنين في كلّ مرّة من حماية ودفاع الحكومة العامة لهم، كما كانوا مضلَّلين – بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى – من طرف الجواسيس لحسابهم فيؤثّرون عليهم لقضاء مصلحة أو لإشباع ثأر.

الضباط المختصّون ب"شؤون الأهالي" نقلوا إلى إيطاليا أوالمكسيك ثمّ جيء في مكانهم بجهلة أغبياء(هذا ما جاء في كتاب تروملي بتاريخ إفريقيا الشمالية باريس 1931م ص 619).

معاملة الضباط الجدد في دائرة البيّض كانت أسوأ، المسؤول عن مكتب العرب بجريفيل كان مجرّد ملازم اسمه " بوران " ([1]) Burin .

الجنرال دوريكاجي كتب في شأنه قائلا "منذ ثلاث سنوات أو أربع أصبح الغضب والسّخط يتراكمان في صمت؛ ففي ربيع 1864م بلغ السّيل الزبى، فأصغر الحوادث يمكن أن يؤدّي إلى أزمة رهيبة" من جهة الجنرال دوليني الذي كان يقود شعبة وهران يعرف جيّدا أولاد

[1] – المعروف باسم بوران عند العرب و بهذا الإسم ذكره محمد بلخير في شعره ، والروايات الشفهيّة تنعته "بالكلب المتسلّط، النّزق ،محرّض، مثير، خمّار، يعذّب فرسه يوميّا لكي يتبختر أمام النّاس " اسمه الحقيقي Burin Dubuison ، ومن شدّة تكبّره في غير محلّه و فيشه جعل الوضع قابلا للتّفجير، معاملته هذه لم تخف عمّن هم أعلى منه في السلّم الإداري لكنّه كان يحظى بحماية ناجعة من قبل بيليسي Pelissier الذي أصبح حاكما عاما للجزائر.

سيدي الشّيخ وحبّهم للحرب و نفوذهم المعنوي، حيث كتب يوم 15 مارس 1864م في تقرير موجّه إلى الحاكم العام بيليسيي ليطلب منه أن يضع حدّا للأزمة، هذه الجملة المخيفة "إنّ جميع تنظيمنا العسكري بالصّحراء يختلّ " أصبحت تقارير بوران و السي سليمان بن حمزة مقلقة منذ موت أبيه ثمّ موت أخيه الأكبر، وهو رئيس الزاويّة و الطريقة، أجراس الخطر التي دقّت من هنا وهناك قاصدة الحاكم العام لم تحرّك له ساكنا كأنّه كان يبحث عمدا عن تعفّن الوضع حتّى إذا تدخّل جعل كل الجزائر تحت طاعته حين يضرب بقوّة وعنف الجنوب الوهراني رغم استنكار حاكم العاصمة.

الجنرال يوسف الذي كان يقود شعبة الأغواط كان في كلّ الأحوال من الذين نصحوه أن يتّخذ موقفا صلبا ليحقّق مفخرة، كان الأمر مريحا بالنسبة إليه كما سبق أن ذكرنا بما أنّ الضرائب من طبعها أن تمكّنه من تحقيق التجارة –علما بأنّه كان يهوديّ الأصل – التجارة التي حين بالغ فيها سببت استدعاءه إلى فرنسا في ظروف مهينة.بعض زملائه مثل الجنرال دوليني كانوا يرفضون مصافحته إذا التقوا به.

أوّل معركة نشبت بين الفرق الفرنسيّة وأولاد سيد الشّيخ تحت قيادة الشهير سي سليمان بن حمزة وقعت يوم 7 أفريل 1864م/1280هـ قرب عين بوبكر غير بعيد عن قرية ستيتين التي تبعد عن البيّض بحوالي 20 كيلومتر، تعرف هذه المعركة عند المؤرّخين "بمعركة عين بوبكر" أمّا عند العرب فتعرف باسم "يوم بوبريط "أي" معركة Beauprêtre"

أقل حادث يخشاه الجنرال دوريكاجي كما ذكر قبل قليل، كان سوء تفاهم من أتفه ما يكون. في الجنوب الجزائري يلجأ الناس إلى نوع من اللعب يسمّى " الهّف " أو "الخربقة" لكي يروّحوا عن أنفسهم، وهي لعبة تشبه الشّطرنج تتطلّب الكثير من التفكير و الحذاقة .

في أحد الأيّام كان بعض المقربين من السيّ سليمان ومن بينهم السي الفضيل([222]) وهو كاتبه الخاص (الخوجة) مجتمعين حول هذه اللعبة، فإذا ببعض الجنود (السبايس) المنتمين إلى المكتب العربي يدخلون معهم ويشاركونهم اللعب، ولكن وقع أن حرّك الجندي حجرته (بيدقه) تحريكا إعتبره السي الفضيل مخالفا لقواعد اللعب، فسبّه وشتمه بطريقة جعلت الحاضرين يغضبون وينهالون عليه ضربا، فرجع مبتئسا إلى مكتب العرب حيث قصّ وقائع الحادث للملازم يوران بطريقته الخاصّة، و دون أن يحكّم عقله أمر هذا الأخير بالقبض فورا على السي الفضيل وإشباعه ضربا ليكون درسا .

[222] أصله من واحة المسيلة بالجنوب القسنطيني وهي واحة مشهورة بنوعيّة سرج الخيل حيث أن الحرفيين فيها متخصصين في ذلك كما كانت تتميّز بوجود التعليم التقليدي بها (اللغة العربيّة) الذي كان ممنوعا منذ مدّة .

لما بلغ الخبر إلى السي سليمان أسرع إلى المكتب وأطلق سراح كاتبه مهددا أن "يجعل البارود هو الذي سيتكلّم". شتم الضابط الفرنسي وكاد أن يتشابك معه "venir aux main" ثمّ رجع إلى بيته (يوم 29 يناير 1864م). جمع أهل المعاد ليستشيرهم في الأمر وأجمع الكلّ على وضع حد لوجود هذا العدوّ الفاسق على أرض أجدادهم الأمجاد وعلى إعلان جميع شيوخ الطريقة و مقدمين الزاويّة، فحُرِّرَت رسالة من طرف السي الفضيل نفسه وبعث بها إلى الجهات المعنيّة وهذا نصّ الرسالة :

<< الحمد لله ذي الاسم الأعظم والصلاة والسلام على نبيّ الهدى:

عن عبد ربّه سليمان بن الشهيد حمزة بن أبي بكر رحمهما الله إلى كلّ من مقادم الطريقة الراشدة وشيوخ القبائل وكبار العماير. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعد هذا منّي إليكم باتفاق جماعتنا: بشرى بإعلان الجهاد في سبيل الله على سنّة الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم ضدّ الكفار الفاسدين الفرنساويين لعنهم الله الذين صالوا علينا وتعدّوا وأطغوا وشرعوا في إهانة ديننا الحنيف لاَ أراد الله. بعدما فسقوا في أرضنا وأحلّوا ما حرّم الله. فها نحن رفعنا اللّواء المحمّدي وبشّرنا كلّ مسلم بالجهاد راجين من المولى سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكفّار المخزيّين. فنرجو منكم ومن ناسكم جميعا أن نعدّوا لهم ما استطعنا من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون، فإيّاكم ثمّ إياكم ،وكونوا من القوم الذين وعدهم الله ألا خوف علهم ولا هم يحزنون ، ولن يخلف الله وعده.

الجهاد ثمّ الجهاد وبيوم المصانع وميدانه والجمع اللازم قبله يخبركم تفصيلا حامل البلاغ. هذا وليبلّغ من لا يبلغه من مبلغه. والسلام >>

كتب بأمر خديم الدايم (أو الدين) سليمان بن حمزة

يوم 22 من شهر شعبان عام 1280هـ(21 فبراير 1864م)

***

ذهب المبعوثون المحمَّلون بهذه الرّسالة إلى جميع الجهات، خاصّة في جنوب الأطلس الصحراوي حيث أنّ في الشتّاء تنزل قبائل الرحّل كعادتها على طول أوديّة زرقون، صقر،الغربي و الناموس. في 26 من شهر شعبان من نفس السنة (25 فبراير 1864م) مصحوبا بأتباعه

وعبيد([223])الزاويّة غادر جريفيل ليذهب إلى الزمالة (أو السمالة)([224]) التي كانت تخيّم بين واد زرقون و جبال علاقة غير بعيدة عن القرية الصغيرة سيدي الحاج الدّين، و هو مكان به الماء يبعد عن واحة بريزينة بحوالي 20كيلومتر. شهر رمضان (الصيّام) في تلك السّنة بدأ يوم 9 فبراير، بقي في منزله تاركا لأعوانه مهمّة التوضيح لانارة الراي العربي حول ما يعزم فعله و حث شيوخ القبائل للإسراع في التحضيرات للحرب. ودعا جميع "الفزوع" ليلتقي كل "فزع" قائده على رأسه في سيدي الحاج الدين للإحتفال بعيد الفطر (يوم 10 مارس 1864م) وذلك لينطلقوا بعد ثلاثة أيّام نحو جريفيل للإستيلاء عليها. و كان ذلك هو الهدف الأوّل من الحرب ،ثمّ يندفعون- في حالة الإنتصار- أبعد من ذلك ،أي نحو التل الوهراني . في انتظار ذلك التجمّع ألّف لجنة حرب (معاد الجهاد) أو جماعة الجهاد (كما يستعمله الرحّل عموما) تتكوّن من عشرة([225]) قادة مدربين على الحرب التي نقلتها لنا الروايات الشفهيّة([226]).

[223] -كما سبق أن ذكرنا : هؤلاء العبيد هم أحفاد الرقيق الذين حرّرهم سيدي الشيخ وعيّنهم لخدمة الزاويّة خاصّة إطعام الطلبة من تلاميذ ومدرّسين و أهالي واستقبال الهبات. أسماء البارزين منهم آنذاك ذكرهم دولامارتينير و لاكروا في الكتاب المذكور سابقا ص786-787

[224]- سمالة أو زمالة من زمّال و هو الذي يقود بعثة و يخيّم بها. في عهد الأتراك كانت تعني الكلمة خيل القبائل التي تخدم البايلك .(و في المنجد إنّها من " سمّل " أي القبيلة أو العشيرة أي المكان الذي تخيّم فيه القبيلة عادة...).

[225] -العدد عشرة لم يؤخذ عشوائيّا بل تبرّكا بأصحاب الرّسول صلّى الله عليه و سلّم المختارين ، المبشّرين بالجنّة.

[226]- إثنان من بينهم تركا ذكريات نصرهما و كرههما للموت . في جميع الصحراء و التّل و كذلك المغرب نظرا لبطولتهما و علمهما بالحرب:

ا- قويدر بن الشيخ القرشي مرعب العرب الذين كانوا في خدمة فرنسا كانوا يسمّون المزانات . أعماله وشجاعته وأناقته خلال المعارك، تقواه وكرمه بقيت إلى يومنا هذا أسطوريّة في المنطقة. كمخطّط استطاع إنشاء الفرق المضادّة للمدفعيّة .

نعلم أنّ منذ نابوليون الأوّل كانت المدفعيّة في الجيش الفرنسي تلعب نفس دور الفرق (la région) في الجيش الروماني الذي كان يدعى سيّد المعارك أو ملك المعارك .

أولاد سيدي الشيخ لم يكونوا يمتلكون المدافع لكنّ لإبطال مفعول قنابلها كان قويدر القرشي هو أوّل من سبق بهذا الرّأي حيث أمر الفرسان لتشكيل مجموعات مكلّفة بتتبّع مسار القنبلة ثم ينطلقون بخيولهم حتّى يصلوا إلى مرمى القنبلة ثم يقطعون بمقصات معدّة لذلك فتيل الإشعال و بذلك فإن القنبلة لا تنفجر .

قويدر بن الشيخ القرشي ينتمي إلى قبيلة الرزيقات (شعبةالزغم) توفي سنة 1337هـ/1920م عن سنّ يناهز 90 عاما في بريزينة حيث دفن قرب قبّة سيدي العربي .

ب- الآخر هو المستشار وعم السي سليمان قائد الشعابنة لم يكن أقل شهرة من الأوّل ألا وهو سيد لعلى بن بو بكر كان بحق صاعقة الحرب ماهر في العمليات و ذا شجاعة لا تقهر؛ كانت فصاحته و بلاغته تحيي الجموع. كان يدخل السّرور على العرب ويرغم أعداءه أنفسهم على الإعجاب به، حيث يقول العقيد تروملي في شأنه في كتابه (ص 133): " في هذه الغزوة (يعني النكبة التي أصيبت بها فرقة فرنسيّة تحت قيادة الجنرال جوليفي بعين البيضاء يوم 30سبتمبر 1864م) التي لا يسعنا إلاّ أن نمجّد فيها جنرالا فرنسيا ، فنحن مضطرّون إلى الإعتراف لقائد المتمرّدين هذا بالقيمة العسكريّة و فطرته الحربيّة غير المألوفة ومهارته في الاستفادة من أخطاءنا...لا يمكن إنكار هذا الرجل ذا 45 سنة رغم عدم توفّر جميع دواعي النّجاح خاصّة كمدرّب للرّجال: صلابة جسديّة، شجاعة كبيرة، لمحة العين ،جرأة ، و بتّ(فصل). كما نضيف أنّ هذه المحاسن كانت تغذّيها لدى هذا المحترم سليل الجليل الشريف سيدي الشيخ ، تعصّب لا يقبل أي تواطئ " جوليان المرجع نفسه ص617 : أعطاه نفس التقدير. السي لعلى توفي سنة 1314هـ/1896م و دفن داخل قبّة سيدي الحاج الدين مثل أبناء أخيه سيدي سليمان و سيدي محمد اللذان استشهدا في ميدان الشّرف .

تواصلت التحضيرات دون توقف([227]) ، وقع التجمع بسبب بعض التعطيلات بعد أيام أي في 25 شوال 1280هـ ،في هذا اليوم و اليومين التابعين له نظمت مراسيم المبايعة على المصحف(القرآن) والياقوتة (قصيدة سيدي الشيخ) للوفاء للسي سليمان من أجل القتال تحت أوامره و طرد الكافر ولو كلّف ذلك تقديم النّفس وأرض السلف الصالح. وكعادة الإسلام عيّن قاضي الجهاد([228]) لجعل المعركة تسير وفق حدود الشريعة في حالة الحرب، باتفاق مشترك كلّف السي الفضيل بهذه المهمّة، ثمّ شرع أمام السي سليمان ومستشاري الحرب لديه وشيوخ القبائل في إستعراض المهارى والفرسان للتظاهرومناسبة لمعرفة حالة كل راحلة لإلغاء مالا يصلح منهاللقتال. وفي 28 شوال 1280هـ /الأربعاء 6 أفريل 1864 م قدرت هذه المجموعة الحربية من طرف الرواة بـ 7500 فارس وألف ومائتي(1200) مهري([229]) وسارت في اتجاه جريفيل، لم يضبط المسار المتبع،كل ما يمكن قوله أن طريقين معروضان أمامهم ، طريق بريزينة ،ثنية التمر ،عين القصور وجريفيل، طريق قصير(80كلم) لكنّه صعب على المهارى،وإلا فطريق آخر بريزينة، القرار مخيليف ،عين الطيبات، جريفيل. حقّا عرّسوا (باتوا) قرب عين الطيّبات حين توالت الأحداث بصفة أسرع مما كان منتظرا.

سبق أن قلنا أن تخطيط أولاد سيد الشيخ كان الإستلاء على جريفيل ثم مواصلة الجهاد في حالة الانتصار نحو الشمال في اتجاه سعيدة ، مخطط الفرنسيين كان مختلفا تماما حسب ما جاء في وثائقهم و خاصّة تاريخ هذه المقاومة حسب تروملي (ص1 إلى 15 مI) . فقد أعلم بوران بجيش السي سليمان، دون شك من طرف قائد بريزينة([230]) وبما أنّه كان يريد البقاء لفرنسا. بوران

[227] –الغريب أن هذه التحضيرات لم تتفطّن إليها القيادة الفرنسيّة رغم مصالح الإستخبارات خاصّة بعد حادث السي سليمان مع الملازم بوران الذي في غياب قائد الدائرة كولومب كانت بيده جميع السلطة. نستثني هذا المقطع من رسالة موجّهة إلى الجنرال قائد شعبة معسكر يظهر فيها غياب ضميره ووقاحته وأكاذيبه حيث ثبت قائلا " خلاصة القول ، أيّها الجنرال ذهب السي سليمان دون أن أجد له أقل مبرر لخيانته " " هذه الرسالة المؤرّخة في 19 فبراير 1864م منقولة من الكتاب المذكور سابقا للامارتينير و لاكروا ص826.

[228] –قاضي الجهاد أو قاضي الحرب حسب قانون الجهاد الإسلامي يجب عليه أن يسوّي المخاصمات التي قد تقع بين المجاهدين ، ويسهر على التقسيم العادل للغنائم كما يسهر أيضا على حمايةأهل الذمّة(كالرهبان والقساوسة) والشيوخ والنساء والأطفال و المرضى والمعوقين من الأعداء، و حسن معاملة الأسرى ومنع تخريب أو تنجيس أماكن العبادة (كالكنائس)والمزروعات أو الحيوانات النافعة. نفس القاضي يطبّق حكم حد الموت على من تولّى يوم الزحف.

[229] – القيادة الفرنسية تعطي رقما أقل "قريبا من الألف " حسب تروملي (Iص6) هذا العدد مغلوط علنًا لأنّ أولاد سيد الشيخ يعرفون القوات الفرنسيّة ولا يمكن أن يواجهوا بعد شهرين من الإعداد على رأس كتيبة ذات عدد غير مدروس (بدل الاستهزاء بقوّة العدو!).

[230] – بريزينة التي زعيمها الروحي هو سيدي الحاج أبو حفص الابن الأكبر لسيدي الشيخ ، تقع على جانب واد سقر (الواد الأحمر :لانّ لفظ سقر كلمة مشوّهة من البربريّة أزقار =أحمر) كان للسي حمزة فيها برج منيع ما زالت أطلاله بارزة إلى اليوم، كانت الواحة محاطة بثلاث قرى (قصور): خلاف و القصبة مواليان لأولاد سيد الشيخ، وفم الباب أكبر من الأولين يحتوي على فرقتين: الخلافة موالين للسي سليمان والقوادر كانوا موالين لفرنسا قائدها هو الجيلالي بن عبد القادر، كان مخبرا نشيطا للمصالح الفرنسية، كان تحت تصرّفه ر جل مشّاء مشهور بسرعته مشيا على الأقدام لإيصال البريد الموجّه للسلطات الفرنسيّة بجريفيل، يقال أنّه كان يقطع المسافة بين بريزينة و جريفيل في ثمانية ساعات (أي حوالي 10كلم في الساعة).

الّذي في غياب رئيس الدائرة كانت له كل الصلاحيات ، كان يرجو أن يقطف انتصارا، فأُعْلِمَ الموقع العسكري بسعيدة والأغواط عن طريق البرق النظري(الذي آثاره مازالت باقية في أعلى جبل بودرقة– 2800 متر فوق البحر– الذي يطلّ على جميح الناحيّة ويساعد على الإتصال المباشر أوبالتحويل مع الأغواط والخيثر وسعيدة ومعسكر وتيارت إلخ).

فاتفق على أن يتركوا المتمرّدين يصعدون نحو الشمال ثم الانقضاض عليهم في مركز مثلث، تكون على قممه الثلاث مجموعات مبعوثة من جريفيل؛ وتوقفت احداها في عين لقرمي على سفح جبل كسال، وأخرى مبعوثة من تيارت تحت أوامر العقيد بوبريط وتوقفت في عين بوبكر في جنوب قصر ستيتين، وفرقة مبعوثة من الأغواط من طرف الجنرال يوسف وتوقّفت في عين تيمندرت؛ المسافات التي تفصل بين هذه النقاط الثلاثة كانت متقاربة (من 18 إلى 20كلم).

كان أولاد سيد الشيخ يجهلون هذا الفخ الذي بني لهم، فلمّا وصلوا ليلة الخميس 29 شوال 1280هـ إلى طيبات لم يكن شوّافوهم([231])قد فتّشو الأماكن. لم يناموا بعد، حين جاء الحراس بإثنين من السبايس وصلا إلى نواحي المبيت، لما هدّدوهما بالقتل انتهيا بالإعتراف أنّهما كلّفا من طرف بوران لإيصال رسالة إلى العقيد بوبريط الذي خيّم في عين بوبكر، وأن النيران التي رأياها من بعيد هي التي أغرتهما فأضلّتهما الطريق، لقد أَعْلَمَا أولاد سيد الشيخ بمضمون المخطّط الفرنسي، لما أخبروا بوجود عدوّ ، لم يشكّوا بوجوده، تشاوروا ثم قرّروا حمل عمليتهم صوب عين بوبكر التي تبعد بحوالي 18كلم جوّا عن طيبات.فأطفأوا النيران بسرعة وقاموا بصلاة الإستخارة ([232]) ورفعوا المخيّم وساروا في جنح الليل في اتجاه عين بوبكر حيث فرقة بوبريط تنام ملء جفنها دون أن تحسب أن الموت يهرول نحوها في فجر يوم الخميس 1 ذو القعدة، أعلن مزمار الطوارئ ! لكن فات الأوان.

هجوم أولاد سيد الشيخ كان كالصاعقة، لم يجد صيادو إفريقيا وجنودهم ومعاونوهم من الأهالي الوقت حتّى لإرتداء ثيابهم وحمل سلاحهم من شدّة الهلع ، أصحاب المدافع لم تبق لهم أيّة صلاحيّة للنّجدة. السي سليمان اتجه نحو خيمة العقيد وقتله عن قرب ؛ لكن فارس تابع له كرّ في حينها وقتل السي سليمان ([233])بدوره . عند طلوع الشمس كانت الفرق قد تفكّكت، ولم تبق

---

[231] –الشوافون :جمع شوّاف وهم طلائع الجيش.

[232] الإستخارة :سي سليمان كان يحمل (حصنا) تميمة كواقيّة من الرصاص، سأل السي الفضيل هل يكون جهاده مقبولا وهو محمي بهذه التميمة؟ فأشار له بالنفي، ونصحه بأن يتوكّل على الله ،هو مالك الحياة والموت، وتوضّأ وصلّى الإستخارة قبل أن يمتطي فرسه، هذا الحدث نقل إلينا، فلربّما اهتمّ به بعض علماء الإجتماع.

[233]– يوم 17 أفريل 1864م حملت جثّته محروسة بالقرشي بن الشّيخ و فارس آخر قويدر بن شعبان ثم دفنت في سيدي الحاج الدّين.احتفظ بسيفه بعناية تامّة، ثمّ سلّم من طرف زاويّة سيد الشيخ إلى الرئيس هواري بومدين عند مجيئه إلى جريفيل سنة 1972م ليوضع في متحف الجيش بالجزائر العاصمة.

إلاّ مجموعة صغيرة شجاعة من المشاة شكلوا مربّعا على تل صغير، وماتوا يقاومون بحزم، لكنّ هذا العش الصغير المقاوم اختزل بفضل "ضرع الجمال" الذي كان عبارة عن انطلاق المهاري في اتجاه العدو واللجوء وراء الحيوانات(الجمال) حيّة وميّتة ، للإقتراب منه شيئا فشيئا دون خطر ورميه بصفة أقرب.

انتصار أولاد سيد الشيخ هذا على الجيش الفرنسي حرّك الجزائر من طرف ألى آخر، لقد أرجع للجزائريين ثقتهم في أنفسهم والأمل في الحرّية. من الصحراء إلى التبطري، في القبائل وفي التل الوهراني ولع الناس بهذه العملية الإنتصاريّة. قبائل وفي أغلب الأحيان جهات كاملة لم تتأخّر عن الدّخول في التمرّد: جبل عمور(أفلو) ، بلاد فليتة، الظّهرة، وجزء من أولاد سيدي عيسى وأولاد نايل(الجلفة) وأولاد الشايب (بوغاري) وجزء من الأحرار(سوقر) Trézel، ومجمل المقان والزنافرة (طاقين والشلالة) كلّهم حملوا السلاح وساندوا مباشرة أو بصفة غير مباشرة أولاد سيد الشيخ، بعد ستة سنوات سمع بالقبائل مستجيبين لنداء الشيخ الحداد و المقراني "ضربة تجربة أصبحت ضربة خبير".

السلطات الفرنسيّة اضطرّت مرغمة إلى إخبار الجرائد كشفا يوميّا للعمليّات، البرلمان الفرنسي عاب على السياسة المتّبعة من طرف السلطة العسكريّة في الجزائر ووبّخ الحكومة التي لم تبالِ بتحذيراته ومناقشاته وانتخاباته وأحكامه، ممّا أوغر صدر حكومة بيليسي العامّة .عَلِمَ بيليسي لكن متأخّرا بأنّ التعفّن الذي كان يريد أن يحدثه لكي يضرب العرب بقوّة وبكلّ ارتياح إلى الأبد قد تحوّل إلى حرب شعواء بدأت تتعمّم أكثر فأكثر، مات تاركا القيادة العليا لنائبه الجنرال مارتمبراي Martimprey الذي أسرع إلىأخذ تدابيره الخاصّة لكي يضعف الثورة بسرعة حسب رأيه،حرّك جنرالاته: يوسف نحو جبل عمّور وليبرت Liebert نحو سرسو، و دوليني Deligny و مارتينو نحو جريفيل، ولاباست Lapasset نحو جبل نادرو و ويمبفين Wimpfen نحو جنوب الحدود الجزائريّة المغربيّة.

نبأ استشهاد السي سليمان أحدث بعض الخلط، لكن شيوخ القبائل اجتمعوا بسرعة وأعلنوا السي محمد "سلطانا " وهو الإبن الثالث للسي حمزة. منعوا البكاء على موت السي سليمان وفي ميدان المعركة الذي مازالت الجثث متناثرة عليه. نظّموا الفنطازيّة على شرف السي محمد، النصر الذي أحرزه أولاد سيد الشيخ احتفل به كنصر لتفعيل كل الجزائريين وقد خلّده الكثيرمن الشعراء.

محمد بلخير شهد بنفسه الوقيعة، وكان أحسن صدى للأفراح والأحزان لنهضة المقاومة هذه ضدّ الإحتلال الفرنسي، واستحضر فيما بعد الإنتصار الباهرعلى ثلاث فرق عسكريّة فرنسيّة آتيّة من كل من جريفيل والأغواط وتيارت في قصيدة طويلة نذكر منها هذا المقطع:

1-احنا([1])مجاهدين([2])مانا قول([3]) ضعيف * تبعنا ما قال ربّ في القرآن([4])

2-واحنا فزناعلىالعرب جيّد وشريف([5]) * بتوانس([6])نضربوا على شوفة([7])عيان

3-زويجة([8]) كبسون([9])وكوابيس([10])رديف([11]) كي يخلي([12])يضرب المجاهد باليطغان

4- واحنا بنا تهترف الناس تهنريف * شوايعنا([13])من الجزائر([14])للسودان([15])

---

[1] –احنا تشويها للضمير نحن ولقد كرّر هذا اللفظ كثيرا في أوائل الأبيات ليعطي لشعره جرسا مملوءا بالفخر الذي تحرّكه نشوة الإنتصار.

[2] – مقاتلين بالإيمان وبالجهاد حتّى نتميّز في الحروب الأخرى التي كانوا يقومون بها في الصحراء خاصّة الغزو للسلب والثأر والنقر (المجابهة بين القبائل) والغارة والمدقة (هجوم للحصول على مكان الماء) و الطيحة (هجوم عقابي لا يرحم حيوانات ولا نساء ولا أطفال)، أما الحرب فهي كلمة عامّة شاملة.

جماعة طريقة سيدي الشيخ منذ البداية كانت تلعب دور المركز الديني و الرباط الحربي حتّى إكتسبت لقب " زاويّة الجهاد "؛ تحت هذا العنوان كان المنضمون لها حاضرين في كل مكان من تراب المغرب العربي الذي يكون فيه الإسلام مهدّدا من طرف النصارى، حسب المناقب (حياة سيد الشيخ) برواية التواتي (مخطوط) كان يملك كل مقدم تنسخه منه، كانت فرقه حاضرة برفقة مقاتلي " القصر الكبير " حيث سحقوا نهائيّا البرتغاليين تحت راية السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (سنة 1578م) ثم فيما بعد بجانب الأتراك في مناسبتين في تحرّكهم لإجلاء الإسبان من وهران (من سنة 1708م إلى 1791م) وفي القرن المواليأسمع مقاتلو الطريقة الناس بهم بمناسبة المعركة التي شنّها الأمير عبد القادر في تافنة سنة1837م وبمقرّ الزاوية التجانية التي كانت موالية لفرنسا بعين ماضي سنة 1839 ، حيثما كان الأمير ينقل تحرّكه كان رجال طريقة أولاد سيد الشيخ بجانبه بكتلها المحاربة و إيمانها المتّقد، سياسة الأمير غير الحاذقة حرمته بفضاعة من أن يساندوه سنة 1843م، أي سنتان قبل أن يُقْبَضَ على فرقته (يوم 14 ماي 1845م).

[3] –قول : كلمة من أصل تركي معناها جماعة أو حشد أو طائفة. فحرف الكاف قد ينطق قافا ويمكن الرجوع إلى الكتب اللغويّة المذكورة سابقا، و الشاعر محمد بلخير الذي قضى شبابه في التل ينطق الغين جيدا، في حين لا يميّز في الجنوب الوهراني مع القاف، فمثلا كلمة غير تنطق قير .

[4]– يقصد بها سور وآيات كثيرة من القرآن الكريم منها النساء "لا يستوي القاعدون" (95) والمائدة " وجاهدوا في سبيله لعلّكم تفلحون " (35) والتوبة " يا أيها النبي جاهد الكفار..."(73).

[5] –الجيّد: جمعه أجواد في الجزائر هذا اللفظ له معناه الخاص، يشير إلى القبائل الأخرى غير الشرفة (أي الذي من سلالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم) (من كتاب لمحمّد صوالح: الدّروس العليا للعربيّة المنطوقة – بالجزائر 1913م ص5و6 موجز وية أخطاء).

[6] توانس: مفرد تونسية وهي بندقيّة قادمة من تونس و مشتراة نقدا من غرداية، بما أن المزابيّين تجار مهرة كانوا يستوردون البنادق من تونس ويبيعونها بثمن غال لأولاد سيدي الشيخ و الشعابنة .

[7]– شوفة : رؤية العين أي على مرمى البصر، في رواية أخرى (على راية العين).

[8]– زويجة :بندقيّة ذات أنبوبين .

[9] –كبسون: كلمة فرنسية معربّة Capsule

[10]– كوابيس: (جمع كلمة كابوس) و هو المسدّس بلغة الجنوب الوهراني، يجب التفريق بينه وبين هذه الكلمة في قسنطينة وتونس،لا يظهر لي أن الكلمة أجنبيّة حيث أنها تقترب من معنى اللغة الفصحى الذي يعني الضيق و الشدّة أو يد العربة التي تشبه هذا السلاح في الشكل.

[11] –رديف : زوج الشيء خاصّة الخلخال ، حلقة من فضّة أو الذهب المسبوك الذي يتحلّى به النساء فوق الكعب و معنى آخر مسمار العربة و المعنى هنا يضرب بمسدسين اثنين معاً.

[12]– يخلي :(خلا) أي يفرغ سلاحه أي يضرب و يرمي.

[13] –شوايع :مفرده شيعة :الشهرة و علامة المجد و التحلّي بالنياشين

[14]– الدزاير: الجزائر العاصمة كانت تسمّى" إكيوزيوم " Icosium ثم مزغنّة

[15] –الإسم القديم للمالي الحالي عموما كل بلاد السود (الأسود) تسمّى السودان

5-واللّي ما ناف([16])على النبي ماعنده نيف * محمد صاحب الشفاعة([17])والفرقان

6- واحنا معادنا على المعاد ظريف([18]) * ويفرح بنا الهاشمي شارح([19])

7-علّم الناس بومور([20])الفرايض والتعريف * الصلاة والزكا([21])وشهررمضان

8-و احنا نفرحوا منين([22])يكون الضيف([23]) * وفوّتنا دنية الغرور باه ما كان

9-نفسي طاعت للإله وضرب السيف * بأفعال الخير يدخل ابن آدم الأمان

---

[16]– ناف :يناصر وينافح أحد و النيف أي الأنف ويقصد به الأنفة والشرف – وفي كتاب من نشر دورم Dhorme استعارة أسماء الجسم بالعبرية (باريس 1932) توجد معاني كثيرة متقاربة مع العربيّة لأنهما أختان من حيث الأصل.

[17]– الشفاعة –ما خصّ به الله الرسول صلّى الله عليه و سلّم وهو تفضّل منه للعصاة نعرف الحديث " شفاعتي لأهل الكبائر" – الفرقان: أحد أسماء القرآن الكريم.

[18]– ظريف : مهذّب ، بشوش، أنيق ومتحضّر لا يحتمل معنى الجاهل أو غليظ القول .

[19] – شارح:اسم فاعل لشرح أي أوضح و عقب، يلاحظ أن لغة الهلاليين عند القبائل الصحراويّة رغم احتكاكها بالبربرية والفرنسية أثناء الإحتلال لم يطرأ عليها أيّ تغيير ولا تلف يذكر بما أن بدو الجزيرة العربية يفهمونها جيّدا .ومعنى آخر محلّي قطع وأوسع و بضّع (قد يكون من معنى التشريح).

[20]– إدغام لكلمة بأمور.

[21]– الزكا أي الزكاة (الركن الثالث من أركان الإسلام)انظر إلى كتابنا ترجمة القرآن و شرحها المجلّد I ص401 و بالرجوع إلى ملحقة تحت عنوان الزكاة (بالفرنسية طبعا).

[22]– منين :مشوّهة لكلمة من أين ، ومعناها المحلّي عندما أو حينما لها نفس المعنى المحلّي للفظ "كيف" عند لغة الحضر المغاربيين.

[23] –ضيف: الكرم مع الشجاعة و الفصاحة ، تعتبر ميزة خاصّة عند العنصر العربي قبل و بعد الإسلام حيث يظهر خاصة كما عند المثالي حاتم الطائي سواء كان يعرفه أو لا يعرفه و هي عادات يحافظ عليها طبيعيا جميع سكان المغرب العربي لعلامة النفس الشريفة وكما يقول المثل "الجود من الموجود " ويمكننا أن نملأ صفحات وصفحات بالأمثال والكلمات الجميلة والحكايات المتعلقة بحسن الضيافة.

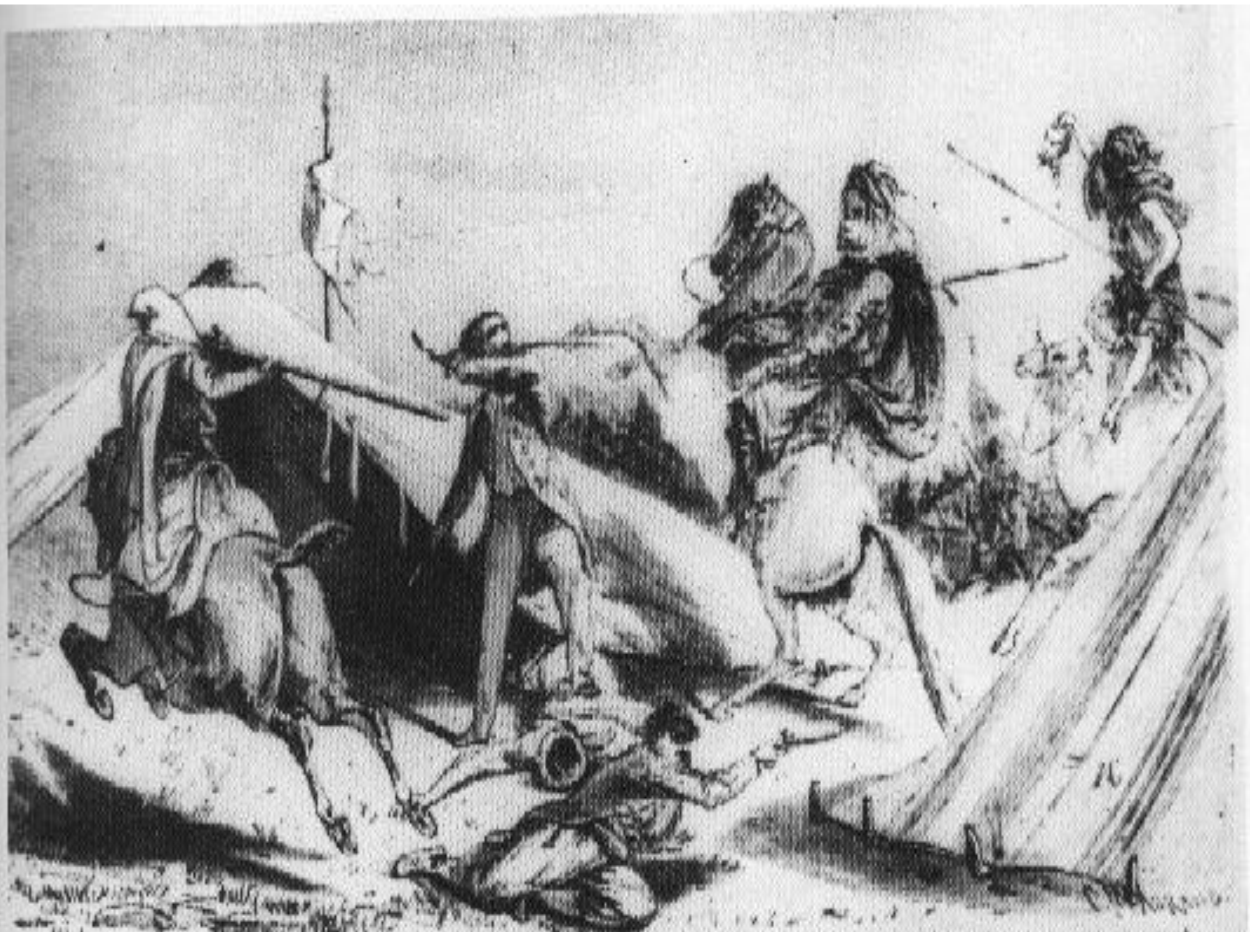

Troubles du sud de la province d'Oran. — Attaque du camp français par les nomades [illegible]. Mort du colonel Beauprêtre. (Dessin de M. [illegible])

Première bataille et première victoire des Ouled Sidi Cheikh sous les ordres de Sid Slimân b. Hamza

أول معركة وأول انتصار لأولاد سيدي الشيخ تحت قيادة السي سليمان بن حمزة في عين بوبكر قرب ستيتن بعد أن قُتِلَ بوبريط ، وقُتِلَ السي سليمان نفسه من طرف أحد جنود بوبريط . وذلك في أفريل **1864**م

Portrait du colonel Beauprêtre.

العقيد بوبريط

3 – السي محمد بن حمزة
أفريل 1864م – فبراير 1865م

كما سبق أن ذكرنا أن دويّ انتصار السي سليمان كان معتبرا "كل الجزائر ارتجّت لفقدان تلك التجريدة([1])العسكريّة" التمرّد أخذ يتّسع بصفة غير منتظرة من جبل عمورانتقل إلى التيطري، بلاد فليتة والظّهرة ،واصل أولاد سيد الشيخ مسيرتهم نحو التل الوهراني على نشوة أول نجاح([2]).

السي محمد بن حمزة القائد الجديد لأولاد سيد الشيخ مسيّرا في الإتجاه القويم من طرف عمّة السي لعلى، وقاد بكل صلابة فرقه بكثيرمن الحيويّة والذكاء بطريقة أقل حدّة من أخيه السي سليمان، أظهر السلطان الشاب(لم يتجاوزمن عمره 16 سنة) نفس الحزم ونفس الشموخ وأكثر حقدا من أخيه السي سليمان، كان يعيش في الزاويّة بصفة دائمة([3]). لقد ترك إلى الآن لأولاد سيدي الشيخ ذكرى بطل أسطوري وهو في أعينهم أكثر شجاعة واجتذابامن بين قادتهم التاريخيين، بتقواه وشهامته كماأهليته وفضله و بشاشته.

ما إن أعلن عنه سلطانا في وسط ميدان المعركة، مسؤول القتال ضد العدوّ الغازي حتّى اجتمعت إليه ثانيّة و حالفته لنصرته في قضيته المقدسة قبائل:أولاد زياد والشاوية وأولاد منصور والحساسنة وقبائل جبل عمور وبوغاري،وبفرح شديد اقتنعوا وشرعوا بشغف إعلانه كذلك، وهذا مقتطف من ذلك:" اعلموا أن واجبا مقدّسا قد استوجب علينا لا بدّ أن نحيي سنة الرسول معًا،التي انطفأت بفعل الكفرة. إذا بقينا جامدين فلن نجد أي حجّة نقدّمها يوم ننادى أمام قضاء الله ، الإسلام قول وفعل"([4]).

لم يستطع الفرنسيون أن يبقوا بلا حراك أمام هذه الهزيمة المحرقة، الجنرال مارتيمبري Martimprey كلّف بتنظيم الهجوم المضاد، فرقتان أرسلتا إلى جريفيل تحت أوامر دوليني ومارتينو،وأخرى وجّهت من طرف يوسف إلى سرسو،مارتيمبري قاد بنفسه العمليات ضد الفليتة . السي محمد هاجم فرقة الجنرال مارتينو بنجاح ثم صعد نحو الشمال حتى استولى على فرندة(يوم 10 جويلية1864م) هذه الإنتفاضة مسّت عمالة الجزائر العاصمة، الفليتة بالأعمى موسى، وأولاد شعيب ببوغاري تحرّكوا بدورهم (سبتمبر 1864م) في قرى المعمّرين ومزارع الأوربيين فعمّت الفوضى المتبوعة "بالهروب

---

[1] –لفظ التجريدة detachement تستعملها السلطات الفرنسيّة لتخفي نكبتها ،في حقيقة الأمر يتعلّق بثلاث فرق آتية من جريفيل و تيارت و الأغواط ، وكل منها تحتوي على فرق منتظمة و"القوم" التي تقدمها القبائل الموالية لفرنسا (أو المزانات).

[2] –أ.جوليان A.julien ص620 – فلامند flammandص208 دولامارتينير ص846 – تروملي ص16 .

[3] –دولامارتينير ص847 و849 (إذن هو صلب و حازم من ناحيّة الدين والوطن).

[4] –نفس المرجع ص847

لمن استطاع الهروب"، ممّا أدخل الفرحة الكبرى على عرب الهضاب العليا فشرعوا في تقتيل "الرومي" الأحرار أنفسهم انقسموا وأولاد خالد حملوا السلاح أما أولاد عدّة فبقوا موالين لفرنسا.

جيش السي محمد كان يتكوّن خاصّة من الفرسان والمهارى أكثر تسلّحا نظرا للأسلحة المأخوذة من العدوّ، كان أكثر تحرّكا من الجيش الفرنسي، كانت فرقه تجد في القتال رياضة شريفة خاصّة الرزيقات والقراريج وأولاد زياد وخاصّة سعدون وأولاد شعيب من بوغاري تحت قيادة الشهير بوديسة وأولاد مومن و آخرون ... كانوا يقولون –كما يذكر محمد بلخير – " إذا قالوا الجهاد عادة" أي عندنا وجد الجيش الفرنسي نفسه معاقا من ناحيّة التخطيط، كيف يمكن لمجموعات الهندسة العسكريّة، والرماة والجنود والمدافع والفرسان وصيّادي إفريقيا ألاّ يصمدوا أمام جيش الجنوب الجزائري الكثير التحرّك والمشهور بهجماته المباغتة .

لذلك أرغم الجنرال دوليني القبائل بالقوّة على تقديم رجال القوم، ولكي يرغمهم على ذلك استعمل القياد ولاغوات التل إلى أقصى حد لأنها قبائل طائعة ،بدأ يتنامى فيها الإحجام، خدّام الإستعمار كانت فرصتهم لإظهار حقيقة ولائهم ووفائهم في تقديم الخدمات، قدّور الصحراوي ولد عدّة صاحب الذكر المخزن، أغا الأحرار، وبلحضري أغا فرندة وولد قاضى أغا الدواير وهي قبائل كانت معينة للإسبان قبل الإحتلال الفرنسي وقاتلت الأمير عبد القادر بكل ضراوة قبل استسلامه: الجيش الفرنسي بفضل المزانات (وهو لفظ استهزاء واستحقار عربي يعني Maqueraux) استطاعت أن تخفف من فيالقها وهندستها ومدفعيّتها. خيانة القياد والباشاوات والأغاوات جعلت من الحرب التي خاضها أولاد السي حمزة باسم الإسلام والجزائر ضد المغتصب الفرنسي(الإمبريالي) حربا بين العرب المؤمنين والمواطنين ضد العرب الخونة المرتدّين.

بعد الإتصارات المذكورة أراد السي محمد بن حمزة لمجموعاته أن تستريح قليلا فانسحب أولا إلى الجنوب على سلسلة تسمرت(حسب لامارتينير ص 855) غير بعيد عن الأبيض. ثم اندفع نحو الواد الغربي(كان يسمّى سابقا واد الخُبَّيْز).أنزل سمالته(جماعته) غير بعيد عن قرية البنود المزوّدة بالآبار وبعض النخيل، بالضبط في المكان المسمّى قارة سيدي الشيخ. كان يرى أن المجموعات الفرنسيّة لا تغامر بنفسها لتصل إلى تلك الناحيّة من الصحراء (على بعد 200كلم من البيّض) . الجنرال دولينيي أقام مركزه العام في جريفيل وأحجم عن استعمال الفرق الفرنسيّة، بدأ يجنّد وينظّم القوم التي سلّمتها له القبائل (2880 منها 800 سلّمها له قدّورالصحراوي وحده). في بداية سنة 1865م كانت ثورة أولاد سيد الشيخ في أوجها معنويّا وعسكريّا. بقي التل هائجا رغم التقتيل الذي قام به الجنرال مارقريت، لكن على عكس ما توقّعه السي محمد بن حمزة تجدّدت المعارك في فبراير 1865م.

– معركة يوم قارة سيدي الشيخ –
(1281هـ/فبراير 1865م)

ظنّا منه أنه لن يناوشه أحد ، سمح السي محمد لفرقه أن تتفرّق و تباعد بين خيامها على طول الواد الغربي وواد الناموس ، في يوم 4 فبراير 1865م على الساعة 10 صباحا فيلق المزانات تحت قيادة الجنرال دوليني مسبوقا بأنذل "قوم" آنذاك، وصل قدّور الصحراوي قرب مخيّم السي محمّد، كان الهجوم من السرعة التي جعلت منها معركة منقطعة النظير في هذه الثورة([1]). كل الذين حضروا ، تروملي أوّلهم ، اعترفوا أنّ العمليّة من أوّلها كانت ملحميّة.

الباشاغا السي العربي بن الدين(المتوفى سنة 1962م) وصف لي المعركة كما يلي:" أخبرني السي الدين أخو السي محمد بن حمزة في مذاكرة معه : كنا نخيّم في قارة سيد الشيخ، كان سني 12 عاما تقريبا، كان في السمالة 12 فارسا، فجأة جلب انتباهنا سحابة من غبار رأينا بعدها أعدادا من الفرسان متّجهة بسرعة نحو المخيّم ، فُضُولُنَا تحوّل بسرعة إلى حيرة، حين رأينا العبيد يَجْرُونَ نحو الخيل لوضع سروجها عليها، امتطى السي محمد فرسه والتحق به الفرسان الأحد عشر، نظر إلى العدو الذي كان يغطي الأفق كأنه جحفل من الجراد، بعد لحظة من الصمت رمى بصره إلى السمالة:فإذا النساء كن هاربات مذعورات يجرين على الرمال بصعوبة حاملات أولادهنّ، منتحبات، والكلاب تنبح. ضبط السي محمد سلاحه، السي الفضيل فقيهنا المفتي متحرز من أي اقتحام اقترب منه قائلا "ياسيدي قال الرسول " يندم من يقاتل عدو أقوى منه"، "هذا صحيح"، أجاب السي محمد،" لكن ألا ترى هؤلاء النساء الهاربات الباكيات؟ألا يغضب منّي الرسول إذا تركتهنّ لكي أنجو بنفسي؟ هل تجيب في مكاني امام الله يوم يسألني عن الفرار الذي تنصحني به؟ إن تفعل فهيا نذهب !. "لا أستطيع أن أتحمّل هذا يا سيّدي.إنّ إلقاء النفس إلى الهلاك(الإنتحار) مسموح به في مثل هذه الظروف".

بينما كان الخدّام يضعون الخيام والأمتعة على الجمال، حَرَسُ السي محمد أخفوا السلاح وامتطوا خيولهم؛ كانوا يتكوّنون من 11 فارسا تركوا بطولتهم أسطوريّة، فهم أهل لأن نذكّر بأسمائهم، فهم حسب الكثير من الرواة :

1- قويدر بن الشيخ بن كحل الكرش من قبيلة الرزيقات (فرع الزغم). 2-اخوه خالد بن كحل الكرش.3-محمد بن خالد من نفس القبيلة. 4-محمد بن عمارة بن حميدة (نفس القبيلة). 5-قويدر بن الشبعات (نفس القبيلة). 6-بلخادم بن بوسماحة (نفس القبيلة).7-العربي بن عمير من قبيلة القراريج. 8-اخوه محمد بن عمير. 9-الحاج محمد مسنن الراس (من قبيلة الزريقات)

[1] –حسب شهادة الضباط الفرنسيين كان ذلك أجمل معركة و قعت في الجزائر، مقابلة القواة الفرنسيّة إلى العرب، العقيد تروملي أعطى وصفا معتبرا –ارجع إلى الكتاب لامارتينير ص856 التقييد 1.

10-الفقيه سي الفضيل (من المسيلة :قاضي الجهاد).11-أبو حفص بن الدين من فرع الأكابر لسيدي الشيخ .

العدو لم يلبث أن اقترب اكثر من السمالة وأوشك على الهجوم عليها.السي محمد توجه نحو "القوم" محاطا بحرسه، كانوا يحتقرون جرأته.كانوا يظنون أنه أراد أن يطلب الأمان. كل الفرسان توقفوا وانتظروا وصوله. كل زعيم "للقوم" صرخ بكل قوة قائلا:" يا السي محمد استسلم، واجعل نفسك تحت حمايتي، سلّم نفسك لي!".

بخطى وئيدة، رفعت راية سيد الشيخ مجابهة الموت. كانوا ينظرون إلى القوم المزانات باحتقار وتحد. حامل اللواء بدأ يشدو نشيد الحرب الخاص بالطّريقة على نمط << أيّاي >> قائلا:

"يا إلي هنا حضّار * يا إلي هنا حضّار * صلّوا على محمّد.

يا الشيخ سيد الشيخ * يا الشيخ سيد الشيخ * ساعة البلا تنعرنا.

كان سيدنا في القوم *كان سيدنا في القوم * ما نخاف ما نذمّم.

يا أبّا القوم مزان * يا أبا القوم مزان * يا سرّة ما تقضيشي. الله أكبر (3مرات)

ما إن انتهى النشيد الذي كان يستعمل لبداية الهجوم – أضاف الراوي العربي بن الدّين(الذي تتشابه روايته مع رواية تروملي الذي كان يحمل الكرّاس اليومي للجيش). السي محمد انتصب على سرجه وبعد أن ألقى نظرة سريعة على رفاقه قال بصوت مدوّ:(الله أكبر، أين أنتم يا أبطال؟([1]) وأطلق العنان لفرسه على العدوّ وسط رفاقه ،كان يظهر أكبر بكثير من عادته بدأوا يفرغون أسلحتهم وأخلطوا صفوف العدو. قتلوا الكثير ثم خرجوا سالمين. كنا نصفق لهم، قاموا بكرتين ثم ثالثة([2]).

ضجيج ضربات البنادق جلب أسماع فرسان أولاد سيدي الشيخ الذين كانوا يخيمون قرب البنود ،رأيتهم يقبلون من كل جهة نحو ميدان المعركة. تحوّل القتال إلى عنف غريب، أصيب السي محمد بجروح فسقط السلاح من يده، أسرع إلى إقالة عثرته أحد أبطال هذه المقاومة، الشهير قويدر بوكرش بن كحل الكرش وأخذه نحو المخيّم بينما تواصلت المعركة بلا هوادة و بضراوة وولع.

(مجموعة لا بأس بها من القراريج وصلت: متبوعة عن قرب بفرقة معتبرة من الرزيقات وهم ينادون:" أين أنتم يا أبطال ... اليوم يجب أن نموت جميعا بما أن السي محمد يحتضر").

ثمّ وصل بعد ذلك أولاد زياد والطرافي وآخرون أيضا... "انصبّوا على قوم أولاد عدّة الذين تراجعوا مذعورين في وسط سحابة مهوّلة من الغبار"، الجنرال دولينيي كان يراقب مع ضبّاط

[1] -هذه العبارة الحربيّة مازالت تستعمل عند أولاد سيد الشّيخ أثناء الفنطازية (العلفة). .

[2] -(القوميّة) الأعداء امتنعوا في الأوّل من إطلاق النّار على السّي محمد ،كانوا يأنفون من قتل واحد من سلالة أولاد سيد الشّيخ رغم أنّهم خدم للكفار ، و باعتبار جدّهم أبي بكر الصدّيق كان ذلك عندهم قضيّة ضمير .

فرنسيّين آخرين على تلال محيطة، وقائع المعركة دون أن يتدخّلوا. لما رأوا أولاد عدّة و أتباعهم فارّين نحوهم بعثوا لهم ساعيًا – دون شك – لكي يأمرهم بالرجوع إلى القتال مهما كان الثمن فرجعوا فارين مع المجموعات ومرغمين على النزال مما جعل المعركة داميّة أكثر ممّا مضى.

العقيد تروملي يروي المجابهة هكذا :" لاغا الأحرار كان يبحث شخصيات (قائد المتمّردين)، كان ظمآنا من دمه، ابنه والشاب بلحضري بجانبه يريدان مثله حياة السي محمد ولد حمزة. لقد استعصى عليهما الشاب السيد،فقد هجم عليهم وجرح بلحضري الذي كان يدورحوله كالوحش، لم يستطع تعبئه ببندقية و مسدسيه الفارغين، فشرع يدافع عن نفسه بمؤخرة البندقية ضد خصومه المصممين على فتله، كان يصفهم بالكلاب والخونة للقضية المقدسة.كان يشتمهم مواجهة بكل الشتائم ويدعو عليهم بكل الشرور. كان سلاحه يمر حول رؤوسهم كما تدور رحى الموت.

المقابلة كانت غير متكافئة جدا ليطول العراك أكثر: فضرب برصاصة كسرت كتفه وأخرى في الرأس وثالثة بصفة أقرب اخترقت صدره. سقط مخضبا بالدم تحت بطن فرسه، لكن فرسانه استطاعوا أن يحملوه خارج ميدان المعركة وهو مصاب إصابات قاتلة.

عادت المقابلة حينها بمقاييس غريبة وغير مألوفة للغاية في معركة بين العرب أنفسهم: مؤيدون للرجل الصالح مُقْسِمِين بالله أن يثأروا له، أصبحت المعركة حامية الوطيس، ثم انهمرت الدماء بغزارة، توغل المتمردون بلا أمل وسط المهاجمين يوجد شيء غامض تحت هذه الرمال بقيت خرساء تحت أرجل الخيول التي تدحرج هذه الزوبعة البشرية...

الخيول غمرتها رائحة البارود و ضجيج المعركة، التصقت بفرسانها: العيون نارية والمناخر مفتحة والأذان منصتبة ومحذرة تتقاسم معهم الحمية والفوران.أحشائها تقذف وتزمجر في جنباتها .

جثث الجانبين اختلطت عند مرور الزوبعة: السروج خلت (فرغت من فرسانها) والخيول ضلّت تائهة مشدوهة دون فرسانها حول ميدان المعركة.كان لا بد من إدخال كل احتياطي " القوم" الذين أرجعوا هجمات رجال السي محمد بجهد جهيد.

كان من الصعب جدا أن نتثبت من أية بندقية أطلقت الرصاصة التي أتت على النهاية المجيدة للسي محمد ولد حمزة، كل ما نعرفه أن ابن الحاج قدور وابن سي أحمد ولد القاضي تنازعا فيما بينهما حول من كان له شرف إرسال الضربة القاضية ([1]). لقد انتهت المعركة آخر النهار وقعت خسائر بشرية جسيمة من الطرفين كما أن الطرفين ادّعَيَا النصر([2])

[1]– نروملي في المرجع المذكور II من 491–691. "هذا القتل لا يمكن أن يعزى لأي من هذين الشخصين اللذين سبق ذكرهما"، هذا ما كتبه دولامارتينيير و دولا كروا في المرجع المذكور ص856 مستندين الى التقرير المفصل الذي وضعه الرقيب (قبطان) (بونصارد) Pansard " من مكتب العرب بجريفيل " ،جرح السي محمد بن حمزة جرحا قاتلا من طرف فارس عادي من الأحرار فرع التماينة(أولاد زواي) التي كان ينتمي اليها".

استشهد سي محمد متأثر بجراحه يوم 22 فبراير 1865م.و بعد وفاته مباشرة عيّن أخوه سي أحمد بن حمزة سلطانا. هذه المعركة الذائعة الصيت هي واحدة من أكبرالحركات الجزائرية ضد فرنسا ولقد رواها تروملي مفصلة. وهذا ما كتبه:"هجم الحاج قدور ولد عدة بشراسة على المتمردين..."كان ابن حضري، الابن الأكبر لأحمد ولد القاضي لاغا فرندة يتابعون عن كثب قائد الأحرار ،لكن سي محمد ولد حمزة وفّر لهم نصف الطريق حيث وقف على ركاباتة وألقى ببرانيسه على كتفه اليمنى ورفع بندقيته عالياوانطلق بفرسه (الحيوان الشريف)، الذي كان يسرع بالقفزات صوب سحابة المهاجمين المتدحرجة . مكان اللقاء والنقطة التي تواجدت فيها القوى المتواجهة يسمى "وديان الزبّوج" (تحيط بقارة سيدي الشيخ) .إننا نشم رائحة الحديد الخاصة بالفرسان العرب ،رائحة البارود سرعان ما صعدت الى رؤوس الفرسان والحيوانات:طلقات البنادق تتلاشى في هذه الفضاءات اللامتناهية...

إنّ سي محمد ولد حمزة –كما قلنا– بشجاعته الرائعة في سنة 16 و مع ثقته بها تمنحه من قوة هو سيد بيت سيدي الشيخ ،القوة الدينية المرتبطة مع الغضب القائم الذي أصعده له من القلب إلى الرأس خيانة (كما يسميها) قدور ولد عدة الذي لم يستح أن يجعل نفسه عونا للنصارى ويجرف بفرسانه– وهم البُزَاة الجارحة –أرضا مملوءة بتذكارالوليّ الصالح ،أكثر الأولياء تكريما في الصحراء، إن الشاب الساطع الجليل المحنق بالغضب والذي نفذ صبره من أن يقتصّ من جريمة عدوه، تصدررأس الحملة متبوعا بأولاد سيدي الشيخ و فرسانه الأوفياء وأنصب على المهاجمين بلا هوادة فقتل منهم الكثير ببندقيته. حسب الرواية الشفهية المحلية، كما رواه المشاركون أنفسهم في المعركة: أن السي محمد بن حمزة لم يتلق إلا جرحا بذراعه اليمنى، فرسه جرحت جرحا قاتلا، حيث أن المكان الذي سقطت فيه سمي "أنزاه العودة".

إن أبا جدي من أمي وهو قويدر بن كحل الكرش، الذي كان من حرسه وقد اكتسى في هذا اليوم بالمجد ترك لناعن هذه المعركة الرواية التالية: "كنت أقاتل بالقرب من السي محمد، كنت أبحث عن قدورالصحراوي لأقتله،لكنه معروف بالجبن حيث كان يختبئ بين العديد من مناضليه. رصاصة

وحسب الرواية الشفهية المحلية لم يكن مجروحا إلا بيده: فأتوا بالمجبر من أصل فيقيقي، لكنه لم يتمكن من معالجته، فاستشهد خمسة عشر يوما بعد المعركة.

[2]– الجنرال دوليني لم تعجبه نتائج المعركة .انسحب مع قواد عساكره الى البنود ليستجمع ما بقي من " القوم" و بعد ثلاثة أيام قفل راجعا. شخصية مرموقة في جريفيل هو جلول بن الوافي ، يمتلك أخبارا كثيرة حول هذه الأحداث ، أكد لي أنه حسب ما سمع أن موت السي محمد لم تحل مشكلة الجنرال دوليني، لأنه تمنى لو يقبض عليه حيا، حتى يناقشه قصد اتفاق سلام ، كما أنه أغضبه كثيرا الصحراوي الذي كان يكرهه حين جاء يخبره أنه قتل السي محمد :" حسنا" قال له " قتلته وأنت مختف وراء الخيول أثناء المعركة: لقد شاهدت شجاعتك بمنظاري الطويل"، ثم أضاف مستهزئا قائلا : " و لكي نجازيك على شجاعتك لننصّبك – خليفة الصحراء – "

إنّ صلفه ونميمته وظلمه وتجاوزاته لم تعد تحتملها السلطات الفرنسيّة التي بعد بضعة سنوات قبضت عليه وسجنته في نواحي قسنطينة بواد العثمانيّة حيث مات مسلوب الشّرف في تاريخ غير مضبوط .

أصابت ذراع السي محمد الأيمن وقتلت فرسه برصاصة أخرى، ما إن رأيته سقط عن سرجه حتى أسرعت نحوه لرفعه عن الأرض وحملته أمامي وأخذته إلى خيمته ورجعت إلى مكان المعركة. وجدت اثنين من "القومية" تَلّيِّيْنِ يتنازعان سرجه المطرز بالذهب، فقتلتهما كليهما...

في المساء بعد المعركة صليت المغرب ثم أردت أن أخرج السبحة لأذكر الله فلم أجدها وتذكرت لما أنهضت السي محمد قد تكون سقطت من عنقي. انشغلت بها لأنني كنت أهتم بها فنزع السي محمد سبحته من عنقه وأهداها لي قائلا:" يا أبي قويدر، لا تحزن لفقدان سبحتك وخذ سبحتي أهديها لك !".

و بعد قراءة (الجلالة) رجعت إلى ميدان المعركة المملوء بالجثث آملا في أن أنقذ الجرحى. رأيت "القومية" يهربون هروبا لا يوصف، فدفعت فرسي واستطعت أن ألحق بالمتأخرين. سأل أحدهم الآخر "هل تعلم أين طريق معسكر؟" فأجبته " لا داعي بل خذ طريق جهنم" وقتلتهما الاثنين معا. لما أظلم الليل رجعت إلى المخيم و حكيت ذلك للسي محمد. فقال لي مبتسما " يا أبي قويدر حفظك الله، ستكون دائما بطلا في الأيام العظيمة!".

طبيب من فقيق أتى به ليعالجه فلم يستطع إنقاذه و في 22 فبراير1865م/1281هـ لقي السي محمد ربه شهيد الإيمان و الوطن. نقل جثمانه إلى سيدي الحاج الدين حيث دفن داخل القبّة. و قبل نقله أقسم الجميع أن يثأروا له. إن طبعه الشريف وسلالته السامية وتضحيته في المعركة، كل ذلك جعل منه بطلا مثاليا؛ فكان موته قد أحس بها جميع أفراد طريقة سيدي الشيخ. لقد بكاه الرجال والنساء.ومازلنا حتى اليوم نذكر بسالته ومثل حياته ومماته للدفاع عن الإسلام والوطن.

كان محمد بلخير يفكر فيه حين نظم بعض أجمل أشعاره التي نذكرمنها هذا المقطع:

1- هذوا أولاد حمزة الأبلج عالي على النجوم مقامه

2- سقام من بغى يتعوج قتال كل سم بسمه

3- واتى الشنا ثراية حمزة هي الواكدين يوم الحزّة

4- زلّ الكلام و الشكر قضى في الفارس المحبوب

في عين تموشنت وغليزان و بلعباس نظم مهرجان الفروسية فرحا و هم يهتفون "جاءت المحمدية " أي السلام .نظم الشعراء والشاعرات في الوسط والغرب الأناشيد والترانيم والأشعار لتخليد هذه الوقائع المسلحة الرفيعة. ان الجزائري يسترجع عزته وهويته. إن استلاب الملكية وتسخير الجزائريين لخدمة الفرنسيين والشتائم والإهانات تركت المكان للإبتهاج الذي احتفل به في الجزائر الوسط والغرب، المدن الكبرى وحدها (العاصمة – وهران–مستغانم–تلمسان) بقيت في

ترقب ظاهر.الحضر (سكان المدينة) و "المزانات" الطائعين لفرنسا أُرهِقوا بالسخط والسباب بينما اعترف للقرى والبوادي الاحترام والتكريم لمجاهديها البواسل في سبيل الإيمان و الوطن. الشاعر محمد بلخير عبر فيما بعد عن تيقظ الوطنية هذا وعن هذه الساعات المجيدة في قصيدة شهيرة نقتطع منها هذا المقطع القصير:

1-احنا أهل العلام([1]) العالي *** واحنا مضادين حسودك([2])

2 - احنا أهل السلاح الغالي *** مركوبنا خيول([3]) سبايك([4234])

3. واحنا مجدّين([5])البالي *** واحنا اللي تبعنا جدّك([6])

4. واحنا ملحقين التالي([7]) *** واحنا مدمرين التايك([8])

5. واحنا مؤمنين الفالي([9]) *** بفزوع و الطبول تهلك

6. واحنا أهل الزقا([10]) ومشالي([11]) *** و نذعروا اللي يتزدّك

7. احنا نقار ضد الجهل([12]) *** و تخبّلوا عليه السالك([13])

([1]) علم أو راية سيدي الشيخ كانت حمراء وخضراء تحمل شعار :" بسم الله الذي لايضر مع إسمه شيء في الأرض ولا في السماء " (هذه العبارة موجودة في أذ كار الشاذلية) أنظر دعاء النور لأبي العباس المرسي المنقول في هامش كتاب " لطائف المنن" للشعراني القاهرة 1357هـ المجلد 2 ص 51 كان رمزه عبارة عن دائرتين مشتركتين في المركز مطرزتين بخيط الذهب يقطعهما سيف مستقيم في طرفيه سبحة وصفيحة نعال الفرس والعدد 8 رقم الطريقة الصوفية.

([2]) حسدوك : الذين يحسدون السي محمد الذي أعلن سلطانا في نفس يوم هزيمة بوبريط

([3]) خيول :جمع جمع خيل

([4])سبايك : جمع سبيكة من فضة أوذهب أو حديد

([5])مجدّين : أي مجددين الذين يرجعون التجديد والشباب لكل شيء قد بلي يعني تجديد الجهاد في سبيل الله الذي قد كان مات معناه ولم يعد يفكر فيه احد قال أيضا :" نحن الذين جعلنا الجهاد شيئا عصريا "

([6]) يعني به دائما السي محمد بن حمزة الذي جده سيد الشيخ وهو الأب الروحي للطريقة ، وحسب رأي آخر فإن الضمير "ك" يعود في الحالة الأولى والثانية إلى سيد الشيخ الذي يعتبر أتباعه من خلاله لإقتفاء أثار جده أبي بكر الصديق رضي الله عنه

([7])نحن الذين ندافع عن جرحانا والمتأخرين منا لنمكنهم من اللحوق بالركب والمجموعات المقاتلة الكبرى

([8])التايك : المقدام المغامر من التايكة المجازفة والتهور

([9]) مومنين : من الأمانة تضمن الأمان للناس الذين يرعون أغنامهم في الفلاة ، نؤمنهم ضد السراق

([10]) الزقا : الصراخ ، ومعنى آخر أهل الزقا أي المعتركين

([11]) مشالي : جمع مشلية وهي الزمرة بقيادة عريف

([12]) الجهل : عدم المعرفة والوثنية والكفر وهنا يقصد بها : النصارى والقبائل المنضمة إليها

([13]) أي حرب المستعمر الذي يريد غزو الصحراء تحول لهم صعـبا بعدما كانوا يظنونه سهلا

السي لعلى الرجل الثاني لقادة أولاد سيدي الشيخ يحث العرب على الجهاد (فهو أخو السي حمزة)

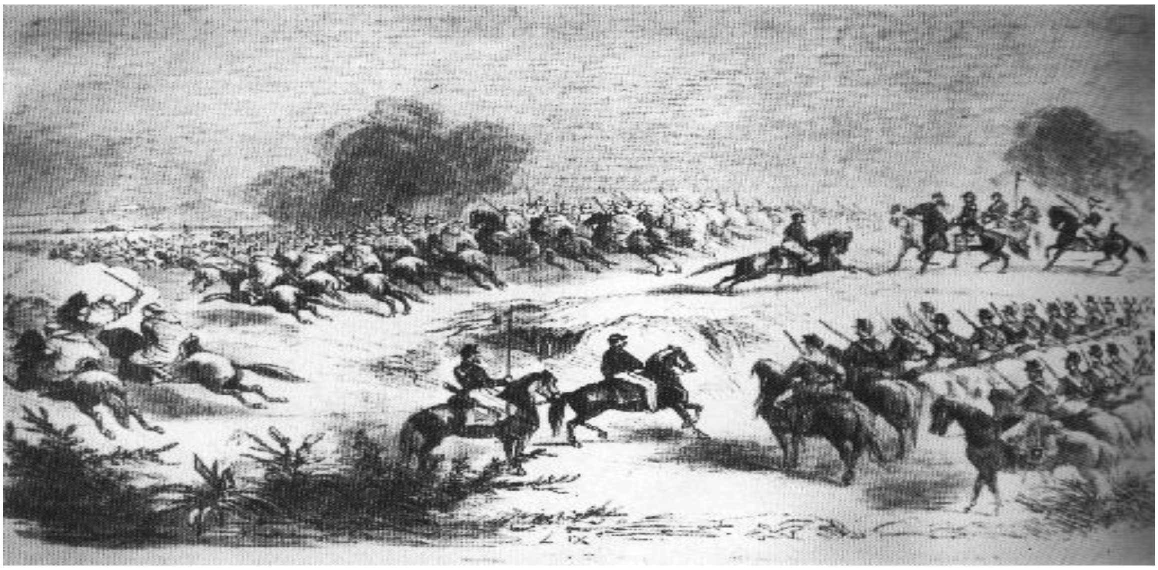

معركة قارة سيدي الشيخ الشهيرة في الواد الغربي : اسشتشهد فيها السي محمد بن حمزة ؛ معركة بين أولاد سيدي الشيخ و المزانات عرب التل الموالين لفرنسا. يلاحظ في الصورة الفرق الفرنسية تحت قيادة العقيد دوليني تتفرّج في الخلف على المعركة بين الأهالي .

4 - السي أحمد بن حمزة

شوال 1281 هـ.رجب 1284 هـ

.فبراير 1865م إلى أكتوبر 1868م.

في يوم وفاة سي محمد أُعْلن عن أخيه السي أحمد زعيما (للتمرد) للمقاومة. كان من نفس الأب(السي حمزة) ونفس الأم (رقية بنت بلحرمة المدعوة مبروكة أم المجاهدين) وكذلك أخوته أبوبكر وسليمان ومحمد، أما اخوته الآخرون قدور والدين وبحوص فكانت أمهاتهم أخريات، وكان يدعى "أبوخريص" لأنه كان يحمل خرصا ذهبيا في أذنه اليسرى كواق من الأمراض.

القبائل التي كانت ملتفّة حوله آنذاك كانت كالتالي:

. الأغواط، الرزيقات، أولاد مومن، قراريج.

. أولاد زياد، أولاد عبد الكريم، الدراقة.

. الرزاينة.

. فرع من رحمن(من عمالة الجزائرالعاصمة).

. فرع من أولاد شعايب (من عمالة الجزائر العاصمة)

. فرع من الأحرار(أولاد خالد)

. فرع من عكرمة.

. أهل ستيتن.

. أهل أوياكل (بعض الخيام.)

. القبائل الأخرى (أولاد عيسى، الشعابنة، المخادمة) كانت تحت إدارة السي لعلى الذي جاء مسرعا من نواحي ورقلة حيث واجه خيبة أمل معتبرة حين عمل على أن يكون المستشار والمرشد لإبن أخيه لكي يصبح بالفعل روح التمرد (و ذلك بحاسي بوروبة بالضبط كما ذكره لامارتينير صفحة 885).

كان السي احمد صغيرالسن. لم يتجاوزالرابعة عشرة من عمره. كان ذا طبع متقلب،عنيفا متهورا عنيدا ذا ورع عاطفي. لكنه كان مثل إخوته ذا شجاعة لا تقهر. لم يتأخر أولاد سيد الشيخ في الصعود نحو الشمال الشرقي بعد استشهاد السي محمد الذي أقسم الجمع أن يجعلوا السلطات الفرنسية تدفع ثمن قتله غاليا. وصلوا إلى دائرة جيرفييل(البيض) في أبريل 1865م ونجحوا في قطع

كل الاتصالات بينها وبين القصور (القرى) و القبائل التي بقيت طائعة لفرنسا وبذلك لم تصبح فرنسا تدير الجنوب الوهراني إلا في بعض المواقع.

بعد بعض المشادات التي ليست لها أهمية كبرى (كمعركة الشلالة القبلية يوم 7 أفريل 1865م)استجاب السي احمد لرسالة سلام من الحكومة العامة التي وصلت عن طريق الجنرال الرائد لقسمة وهران مع التحفظات التي ظهرت للسلطات الفرنسية أنها مغال فيها،مع أن هذه الأخيرة سئمت من الصراع وحالة الحضر المستمرة التي فرضهاعليها في الصحراء كما في التل، السي أحمد أفهمه أنه كان مستعدا للسلام مع فرنسا لكن بشرط أن تنسحب من مقاطعته و تعترف له باستقلاليته كسلطان. كان يريد أن يتعامل معها ندًّا لِنَدٍّ وليس(كحليف) .

كان من الصعب على الحكومة الفرنسية أن تقبل مثل هذه الشروط و تروملي علّق على التحفظات واقتراحات السي أحمد، فكتب أنه كان بإمكانه على الأقل أن يدلل على طلباته، فإنه كان دائما عند فرنسا يعتبر متمرّدا تحت تصرف وإدارة عمه السي لعلى(دولامارتين ص 863 . وتروملي ص 289 . 291) ردّت فرنسا عن هذه الشروط بالرفض القاطع. الرفض الذي سيكلفها ثمنا غاليا.

معركة ابن حطّاب :

ذو القعدة 1283 هـ/16مارس 1866 م

اغتاظ السي أحمد لهذا الرفض فاقترب من جريفيل. وخيّم في عين العراك (على بعد 45 كلم من جريفيل) بعد أن جمع قواته قرّر أن يتقدم إلى شمال ليعاقب بعض القبائل التي خضعت لفرنسا. في 15 مارس 1866م وصل إلى المرازيق (فرع من أولاد زياد). في الزويرق(على بعد 20 كلم من جريفيل) وأمرهم أن ينضمّوا إلى صفوفه. في نفس اليوم تقدم العقيد كولومب قائد دائرة جريفيل، حين أعلمَ بتحركات السي أحمد، على رأس كتيبة الجند الثاني2eme Zouaves ،في خنيق أزير لكي يعزِّزَ ويدعم حراسة قافلة المؤونة التي كانت آتية من سعيدة.

لماعلم أن "المتمردين" يقيمون بالزويرق قرّر أن يهاجمهم على رأس القوى التي كانت تحت تصرفه (1825 مشاة و120مدفعي و450 فارس).

بدأت الفرقة في البحث إذن عن أولاد سيدي الشيخ في وسط هذا السهب (القعدة) المرتفع قليلا والمملوء بالأحجار والحلفاء. فجأة وصل فارس من الأهالي العميلة للجيش الفرنسي مشرعا ومشيرا بسبابته إلى ناحية الشمال الشرقي وهو يصرخ : " هَا رَاهُمْ! ها راهم " .

واندلعت المعركة بعدها بقليل. تروملي الذي يتحيّز دائما في وصفه للمعركة، قدم تفاصيل مسهبة لهذا الحدث حيث يقول:"كان مشاتنا منتظمين كالآتي: فوج الجند الثاني للرماة، كتيبة الفرسان السابعة والثمانون كانت منتظمة على شكل سرايا وعلى بعد 200 متر في الجانب الأيمن للمشاة .... و فرقة المشاة الخفيفة انتشرت في الجانب الأيسر... "القادة بدأوا يمرون بين مجموعاتهم لإصدار الأوامر والتعليمات"

"قال لهم السي أحمد:"تذكروا يامجاهدي الإيمان، أن قبل عامين، قَتَلَ أخي السي محمد . رحمه الله . في المكان الذي سنقاتل فيه الآن، مائة من النصارى من أحسن مطارديهم(واستعمل العبارة "مائة صرصور" وهي تحريف لكلمة chasseurs الفرنسية أي مطارد ([1])..")

"كانت الرايات ذات الأشرطة الحريرية الحمراء و الصفراء و الخضراء ترفرف دالّة على حُمَّى القتال ونفاذ صبرالتي أُصيب بها حَامِلُو الرايات. الخيل المزبدّة كانت محكومة من طرف فرسانها بعناء كبير.

"أمام جبهات مجموعات (قوم) العدو يمكن رؤية "المرابط" الشاب السي أحمد ولد حمزة قائد المتمردين ووارث القوة الدينية المتصلة بسلالة سيدي الشيخ، سلطان الصالحين في جنوبنا الجزائري. إن هذا المراهق، هذا المتمرد صاحب الخمسة عشرعاما ركب فرسه السوداء المجهزة. كان ملفوفا في برانيسه البيضاء، سبحته في عنقه، كان يظهر هادئا في وسط هذا التحرك المحموم الذي كان يحيط به. كان يتصف بهيبة القائد الديني، ويجول بنظره في هؤلاء الرجال الذين ربما سيموتون من أجل قضيته[2].

"لكن الأبواق بدأت تدق لتعلن عن إطلاق النار للفوج الثاني،ولانتشارالرماة. فجأة اندلعت طلقات البنادق المصمّة للآذان لضخامتها..المدفع اسمع صوته في نغم الموت هذا...

"بارتجاج البرونز لم يردّ العدو بعد لكنه بدأ يتجمع... اخترقت القذائف مجموعات مشاته الملتحمة راسمة أخدودا داميا، ارتفعت صيحات الفرح أربع مرات منطلقة من خط رماتنا:"إصابة" أجاب المغاربة(وهم مرتزقة "زَغْدُو" من الجنوب المغربي) بصيحات النحس والويلات...

"فجأة إنطلق الأعداء من مشاة وفرسان مرسلين أصوات وصرخات ليست من نسق أصوات البشر[2].

"فرسان أولاد سيدي الشيخ وجدوا الفرصة سانحة أمام فرساننا الذين لم يتحركوا، انفصلت عن كتيبتها وانطلقت خطا في اتجاه شاقولي(مائل) مكتسحة بكل بسالة المكان يمين فرساننا لكي

- [1]-كان السي أحمد يشير إلى معركة ابن حطاب التي وقعت يوم 26 ماي 1864 بين فرقة كان يقودها الجنرال مارتينو، و بين فرسان (قوم) السي محمد بن حمزة. حسب تروملي: إن هذه المشادة كلفت فرنسا 77 قتيلا و 35 جريحا.

[2]-قضيتة التي هي قضية الإسلام و الجزائر

- [2]-عبارة " الله أكبر " التي تسبق الهجوم عادة.

تتجنب نيران الرماة... وتتجه بكل قوة نحو سرايانا التي حاولت حينها مواجهة ذلك الجانب لتتمكن من استقبال المهاجمين لكنها لم تجد الوقت الكافي لذلك حيث أن الاعصار كان يسير نحوهم بسرعة مذهلة. إنها مجموعة حيوية من 500 فارس تنقضّ في بضع ثواني بشراسة لا تقهر على فرساننا الذين لم يكونوا ينتظرونها... سادت الفوضى في فرساننا وتبعثروا يمين الفيلق ممّا أدّى إلى إضعاف النيران وإعاقة التحركات.

"اخترق رجال أولاد سيدي الشيخ هذه الكتلة المذعورة ،و أنجزوا مهمتهم بالدماء و المجازر، لم يبق للبندقية دور في هذا الهرج، بل المسدس والخنجرهما اللذان لهما أن يأخذا الكلمة...

"إن الضباط حاولوا أن يظهروا معجزاتهم ذات القيمة الرفيعة، و ذكروا جنودهم بالشعور بالواجب والشرف، فكانوا يتداولون على ترغيبهم تارة وترهيبهم تارة أخرى، لكن دون جدوى. فإن ضربات السيوف المنصبّة على ظهورهم لم يروا لها مثيلا من عدوهم...

"دموع السخط و اليأس ملأت عيون الضباط الذين رأوا من خلال هذه الملحمة المشؤومة العار الذي دنّس كل ماضيهم البطولي الذي ذبل و ضاع...

"انتهز أولاد سيدي الشيخ الفرصة في هذا الجو المضطرب للإستحواذ على صناديق الذخيرة. هذه الخسارة جعلت المدافع الفرنسية تخرص. ثم بدأ إذن فقدان النظام والاندحار الدامي فلم يستطع العقيد كولومب وهو قائد الفرقة المرافقة للمؤونة أن يفعل أي شيء. ما تبقى من الأفواج الفرنسية هرب صارخا " الهروب لمن استطاع !" في جلبة وضوضاء رهيبتين.وعندما خلت الخيول من ركابها المطاردين الفرنسيين جرت في كل مكان وهي تحمحم مخبولة. أما مشاة زغدو المغاربة فقد تابعوا الهاربين وقضوا عليهم فكانوا يتدحرجون تحت أرجلهم. في ارتجافات سكرات الموت الفظيعة. مشاة آخرون وفرسان أولاد سيدي الشيخ أسرعوا نحوالعربات المحملة بالمؤونة فأخذوا ما فيها. كانوا يقتسمون صناديق علب المصبرات والذخيرة و الأسلحة والبغال وهم يتصارخون. و توقف القتال لغياب المقاتلين الفرنسيين.

"و بسرعة فائقة لحق العقيد كولومب ضباطه الإثني عشر الأحياء وهرب نحو حصن جريفيل على بعد 30 كلم تقريبا من ميدان المعركة. انتصار أولاد سيدي الشيخ كان مؤزرا (17 مارس 1866).

"قرر العقيد كولومب أن يثأر لهذه الهزيمة فبدأ فور رجوعه إلى جريفيل يستجمع قوّته ويجمع أفواجه ووسائل النقل واتجه منذ 21 مارس نحو الجنوب الغربي إلى المركز الذي سحب السي أحمد إليه قواته. و وقعت عدة معارك.

كانت نشوة النصر تغمر الجزائريين فكانوا يفتشون بفرح الرياضيين عن أفواج العدو وأتباعهم من الأهالي ويوفرون عنهم في كل معركة نصف مسافة الطريق قبل أن يرجعوهم القهقرى. هذا ما وقع

في " المناورات " (31 مارس) و في "المحروق" (14 أفريل) و في قارة القافول (23 أفريل)،والفرحة الكبيرة تغمر عرب الصحراء والتل.

بلخير في مقطوعة سنودها فيما بعد:"كان العرب يتحدثون عنا في وهران بالأساطير فيقولون: " فلان فعل كذا و فلا ن فعل كذا"...

السي أحمد بن حمزة على رأس الهيئة القتالية أحجم عن مواصلة حملته نحو الشرق الجزائري. قرر أن يخيّم مع جيشه وراء الواد الغربي [1] و واصل إلى تافيلالت لأسباب لا صلة لها بالتراجع العسكري. إنما هذا التنقل نحو الغرب كان لأسباب اقتصادية محضة.

إن سنة 1283هـ / 1866 م اشتهرت في الجزائر ثم في الجنوب المغربي بإشاعة مرعبة استمرت سنتين بعد ذلك: تزعم أن آلاف العائلات تموت جوعا في الجزائر. لم ينج منها إلا المستعمرون الذين كانت لديهم مؤونة مشبعة.

المؤرخون لمقاومة الجنوب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي لا يولون اهتماما للعوامل الاقتصادية وتأثيرها على الشعوب المقاومة التي نالت منها فترة المصيبة هذه ومن عزائمهم الحربية: "سنين الشر". لا قمح ولا تمر. المواشي هزلت لقلة العشب ولم توفر لهم اللحوم بل بدأت تموت شيئا فشيئا. فقد زاد هذا " الشر" لشر الاحتلال الفرنسي. أو كما يقال: "المصيبة لا تأتي واحدة أبدا "

والمصيبة الأخرى غدر أولاد سيدي الشيخ من طرف فرع الأصاغر تحت قيادة متهور بلا إيمان ولا شرع، هو سليمان بن قدور الذي كان يبحث جهارا كيف يقاطع أبناء عمومته. انقطاع هو في الحقيقة احياء لنعرات ومنافسة منذ عدة قرون جعلت الفرعين يتضادان. المدعو سليمان لم يكن يفوّت أية فرصة لنهب وقتل الموالين لأولاد سيدي الشيخ الشراقة. و لذلك فقد غزا في نفس السنة في " ضاية مولى الجامع " مخيماتهم دون أن يستثني الشيوخ و لا النساء ولا الأطفال ولا الحيوانات.

كانت أغلب القبائل الموالية لفرنسا نادمة آنذاك علىعدم مشاركتها في المقاومة. فالفراغ الذي تركه اولاد سيدي الشيخ في المنطقة برحيلهم منها مع "اخويتهم" لم يستطيعوا تحمله مقارنة بمصائب الحرب. فشرع أحد الشعراء بقي في دائرة جريفيل حيث لم تكن لديه وسائل للإلتحاق بالمجاهدين، وهو سيدي الشلالي له قرابة بأولاد سيدي الشيخ من ناحية سيدي بوسماحة، عبّر عن حزنه و أسفه الشديدين:

- [1] -دو لامارتينيير ص 872.

- يا طالب وين زوانا -

1. شيّبني وطن السينية[1] أرض خالية | لا حدّ يجاوبني والا اعطاني اخبار | يا طالب وين زوانا
2. هلكني ذا المغدود[2] راه ديما يدور | تحسب ظهره دكانه | يا طالب وين زوانا
3. ثرايه حمزة كاملة أولاد عزّ | بهم نتمنى في القبايل الشايعة
4. سقامين العلفة على أقوام الخيام | مناعين الحنّانة[3]
5. راكبين زرق قمارة عياد منمّزة | يلغوا زغدارة و ناسهم جابدين
6. لباسين الحرير و الشابير بالذهب | و الدير أصفر زوانة[4]
7. همكوا العدو بين هذي و ذيك | قالوا في طي الزهوانة[5]
8. غيّب سلطان الصحراء علينا أبطى | هزّ غطاه و خلانا
9. يبس حتى الشعّال فوق راس لجبال | و يبس حطَب القطرانة
10. لا ترسة مبنية نجوع كي ضارية[6] | لا مورد للضامية
11. بقات أرسام الديار راني نبكي غيرأنايا | يا طالب وين زوانـا
12. اتلفت يا مشتاق واشد فوق الجحاف | فيها عارم[7] خترانـة
13. يتلاطم مروي كالمزن العقـور | د فّق ماه و زهّـانا
14. يتلاطم عطوش مع مروت الصحور | كي يبوش زيد قدح في معنانا
15. يتلاطم يا صور في الهناء و الفروح | و نـواقش دونانة
16. لا قمري نقاق على حايط الزقاق | غـالب كل اللحانة
17. قادر ربي لحنين يجمع بيننـا | يـا طالب وين زوانا

قصيدة مطوّلة منها هذه الأبيات مختلفة في الألفاظ والترتيب والروايات عن المرحومة فاطمة بنت الحاج حمزة و قويدر بن حمية وغيرهما، كان الله لهم.

(بالطبع فإن الانتهازيين بتخلفهم عن هذه الحرب مدّعين أنهم كانوا أحذر من غيرهم بل وصل بهم الأمر إلى الاستهزاء بالمجاهدين. الغادرون ومروّجو الاشاعات الفرنسيون كانوا أكثر حدة حيث روّجوا: " أنّ ذلك كان ثورة بسيطة ضد النظام المستتب، وليس جهادا مقدسا لأن الله يعاقب

([1]) السينية –إسم المنطقة مرور الرزانية غير بعيد عن مشرية قرب خط السكة الحديدية حيث كانت موجودة بئر في أعلاها مروحة لضخ ماء البئر كانوا يسمونها السينية.
([2]) المغدود : الجمل المريض المصلب الظهر لا يستطيع أن يأخذه إلى أي مكان
([3]) منعين الحنّانة:المدافعين عن الجمال والإبل.
([4]) أزوانة : نسبة إلى إنتمائهم لزاوية أولاد سيد الشيخ.
([5]) الزهاونة : زهوان منطقة جنوب حمادة قير ، المقصود أنهم مقيمون في هذا المكان.
([6]) كي ضارية : أي كما كانت من قبل .
([7]) عارم : أنثى الصقر، يستعملها الشعراء للتعبير عن المرأة الجميلة.

العصيان المتهور. وأنهم يجدون عناء كبيرا في إيجاد المؤونة. وأنهم لا يجدون أي شيء يأكلونه هم وعائلاتهم فلا يجدون ما يضعون تحت أضراسهم إلا شجر العنّاب أو الجراد. وأكثر هؤلاء المستهزئين جفاوة كان قاضي جريفيل عطا الله الذي أكّد قائلا:"إن هؤلاء ليست لهم أية صفة لكي يقوموا بالجهاد. والخليفة (؟ !) لم يندب لهم أي سلطة لكي يجاهدوا. أنهم تحت وقع سخط لأنهم فضّلوا الفوضى والجوع عن الهدوء والاستقرار والرفاهية تحت حكومة تريد السلم والخير للسكان. والدليل أنّ هؤلاء المساعدين على زرع الفوضى كانوا يعيشون في بلادهم من قبل في امن تامٍّ وكانوا هم أنفسهم يركبون خيلا ذات السروج المذهبة ويرتدون ثيابا فاخرة ويعيشون في الرفاهية. واليوم؟ لنتكلم عنهم! إنهم يهيمون في البؤس والخوف إنهم يتعاطون التسول بين البرابر الشرهين ولا يجدون حتى التبن لخيولهم. أقولها لكم: لإنهم متبوعون بالسخط "([1])

هذه الانتقادات والاستهزاءات وصلت إلى أولاد سيد الشيخ.

بلخير تكفل في قصيدة ليصور فيها لوحة أجمل من الواقع لحياة أولاد سيدي الشيخ في الأرض الأجنبية عنهم، بعد أن ذكّر بالانتصارات التي حقّقوها وخاصة في ابن حطاب وهذا مقتطف منها:

- اللي باغي الجنة يضاد الكافر –

1. رانا في قير مع الرايس متومنين وبرابر بنا زاهية و عربان
2. و زدنا شور السهلي قبال مزاوقين   منّه عمّر سيدي وراح مضمان([4])
3. إذا قلتوا مرّوا نبرّموا بعد حين   ما زال نجوكم في خيار الأوطان
4. ما زال تولّوا علف المحال عوين   ما كم بجهاد ولا بعزّ كي كان
5. حسبت أربعين علام جاونا سايرين   من اللوحة حتى لواد سقوان
6. بفضل ابن يامنة([2]) فزوعنا زاكيين   ياسر والاّ قليل نخوّضوا الميدان
7. سيدي أحمد بن حمزة تعاونه يامعين   تجعل فضله فوق الفضايل يبان
8. سيدي أحمد بن حمزة مكافة القاصدين   من وسط مراحه ما يروح جيعان
9. دايم قيطونه وخزاين مفرشين   من نار المشوي ما يزل دخان

([1]) هذه الرواية يعود الفضل في وجودها إلى القائد حموّ بن الحاج محمد صدّيقي في ستيتن (توفي في جريفيل سنة 1950) ثم أضاف:" بلخير فضح أقوال وانتقادات القاضي عطا الله في قصيدة مشهورة ،عندماعلم بها وقرأها و تأملها بعض الوقت. ثم باع أملاكه كلها وانتقل إلى المدينة المنورة حيث مكث ليكفّر عن ذنوبه بحياة روحية حتى مات.

هذه النهاية التي تؤثر الرجوع إلى الله لا يمكن تصديقها بسرعة. بل يظهر لنا أنّ القاضي عطا الله لما أصبح ممقوتا من طرف الناس بسبب قصيدة بلخير ولمّا خاف أن يغتال طلب من السلطات الفرنسية الرحيل إلى إقامة أخرى فقبلت له ذلك فسقط في بئر النسيان.فهذا أقرب للتصديق. أصله من ستيتن من قبيلة بني زروال(الرجوع إلى ديوان بلخير) .

([2]) إبن يامنة هوالرسول صلى الله عليه وسلم .

10. و قهاوجية عند الوجاق متحزمين   بآتاي وسكر في قلوب كيسان([3])
11. أهل المعرفة على الخبر جالسين([4]) يكتب ويصيفط في بروات الامان
12. أهل عياد التنشاش للبلاد واجدين   وأهل كوابيس مردفة ويطغان
13. وأهل سروج القيمة([5]) من الذهب شاقلين   وركاب صفر يعشى على اللومان([6])
14. وأهل التحراك اللي عيادها طايقين   فرسان العلفة نظار شبان
15. وأهل الراي المقدود وأهل دنيا ودين   ماذا من خصلة في اولاد ديّان
16. وأحنا بنا ناس التل متعاودين   في غيبنا يذكرونا فلان وفلان
17. عمومية على الشنا متعاندين   كل واحد منهم كي هلال رمضان
18. قل:ل"عطاالله"واش كلفه ياحزين   لاه تعاشي مالا لداهم قران
19. تذّم فينا واحنا عليك مفضلين   عسل الشهدة ماجاء عباه قطران
20. الدنيا دونية أيامها فانيين   غرت بيك القهوة و صرّ لتمان
21. احنا بنا ناس المدن متحاجيين   و المسلم من قلبه يبات فرحان
22. انظر لكتبتك تلقى أقوال متخالفين   خير أنت والا كلاب رحمان[235]

([3])سبق ذكر الشاي

([4]) يعني يتلقون البريد ويقرأون مافيه ثم يجيبون بالرسالات لأصحابها.كما يمكن فهم أنّهم كانوا يتدارسون العلوم في مجالسهم ...

(5) المسيلة مدينة بين العاصمة وقسنطينة مشهورة بنوعية السرج الرفيعة المصنوعة فيها.

(6)لومان :نجم (constellation).

[235] و هذا شرح للقصيدة المترجم من الفرنسية بعنوان: [اللي باغي الجنة يضاد الكافرين]

1. إنّنا في "قير" نتمتع بالأمان بفضل قائدنا، البرابر والعرب فارحون بقدومنا.
2. وصلنا حتى "للسهلي"مقابلين"مزاوقين"(في"السهلي" ملأ سيّده قربة وذهب مرتويا) وهذا رمز لإظهار أن سيدي أحمد ورجاله ارتووا في هذا المكان كما ارتوى سيدي الشيخ منه أي تلقى في منطقة "السهلي" جنوب "بوذنيب" مبادىء الصوفية من شيخه سيدي عبد الرحمان السهلي).
3. قلتم :" مشوا ولن يعودا" ، بل سنرجع و تلتقي بكم في هذا الوطن العزيز.
4. و سنعود ونشبع خيولنا علفاأمّا أنتم فلن تنالوا شرف الجهاد ستبقون مجرّدين من أي عزّ.
5. عددت اربعين راية انضمت إلينا. سقناهم من "اللوحة"الى ضاية "زهوان".
6. بمرافقة ولد يامنة أفواجنا دائما كثيرة العدد.وحتى بدون كثرة سنزرع الرعب في ميادين المعركة.
7. دعاء: يارب أعِن سيدي أحمد بن حمزة واجعل نصره يتجاوزكل نصر.
8. سيدي أحمد بن حمزة يغدق على من يزوره. فلا أحد يغادرخيمته جائعا.
9. وخيامه المختلفة الأشكال مفروشة للضيوف كما أن نار الشواء لا تنطفئ
10. واصحاب القهوة واقفين حَذّو الموقد يوزعون الشاي في كؤوس يوجد في قيعانها السكر([3]).
11. يجلس حوله كتّابه يستطلعون البريد يكتبون ويبعثون الرسائل .
12. فرسانه على خيولهم الجامحة مستعدون دائما عن المواشي والجمال.
يحملون المسدسات، والحقائب المطروزة والخناجر.
13. أولاد سيدي الشيخ يملكون سروج المسيلة المثقلة بالذهب المطروز (المسيلة مدينة بين العاصمة وقسنطينة مشهورة بنوعية السروج الرفيعة المصنوعة فيها)
ركابهم من نحاس أصفر لمّاع مثل (النجوم) نجم اللومان.
14. يركبون فوق خيل السبق المطواعة بخبرة الفوارس و هم مازالوا شبانا.
15. لديهم الرأي السديد وهم رجال الدنيا والآخرة.وخصال أولاد سيدي بن الدين.
16. سكان التل يفتخرون بنا في أحاديثهم يذكروننا بأسمائنا.

مهما يقُل بلخير فإن أخوية أولاد سيدي الشيخ لم تكن آنذاك في حالة مشرقة لأسباب داخلية وخارجية والعصبية التقليدية والإشاعات.

قبل كل شيء حدثٌ خطير كان لا بد أن يحدث ليفسد وحدتها التي كانت الجوسسة الفرنسية وإشعاعاتها تسعى ضدها ليل نهار.

كان من بين أقارب سيدي أحمد أحد الوجهاء أصله من قبيلة أولاد عبد الكريم، متهما بعمالته للعد.وقد وجدوا فعلا عند تفتيشه رسائل مشبوهة مخبوءة في عمامته صادرة عن محمد بن الحاج أحمد، قائد فرقة من قبيلته بقيت تحت طواعية فرنسا في جريفيل. تلك الرسائل دلّت دلالة قاطعة على خيانته. أمَر السي أحمد بقتله في الحال.

كان هذا عاملا لإرتداد 220 خيمة من أولاد عبد الكريم كانوا يسيرون تحت رايته، وتبعهم حلفاؤهم الرزاينة، أولاد امعلّة، بني مطهر. زد على ذلك عاملا آخر ذا نتائج أثقل: الجوع الذي أدىّ إلى ارتداد العمور، أولاد جرير، بني قيل، وطبعا أولاد صرور الذين أسرعوا مع احميان إلى الانضواء تحت لواء فرع الأصاغر الذي أصبح خادما سريا للإحتلال الفرنسي جنوب الجزائر. هذه القبائل إذن اتصلت بقائد هذا الفرع الأخير، وهو الشيخ بن الطيب الذي أولى القيادة إلى أحد أبناء إخوته وهو سليمان بن قدور. كما سبق أن قلنا فإنه كان مهتما بفرسه بالطبع. كان عمره آنذاك 26 سنة انتهز الفرصة ليتكلم عنه الناس و لم يتردد في الدخول في النزاع كمنافس حسود لابن عمومته من فرع الأكابر فثار ضده. كما أن القبائل لم تجد نفسها ملتفة حول قائد واحد السي أحمد، بل حول قائدين متضادين هما السي أحمد(أكابر) والسي سليمان (أصاغر) .

وهكذا عاشت أخوية أولاد سيدي الشيخ في الجنوب الجزائري المغربي وضعية صعبة بين الرياح والأعاصير لكنّها تحس أنها في عقر دارها.

في ناحية الواد الغربي وبواد الناموس وجميع الناحية الحالية للجنوب الجزائري المغربي كانت تعتبر أرضا بلا مولى:الإتفاق المغربي الفرنسي لتحديد الحدود (وجدة 1845) جاء في مادته رقم 4 أن المنطقة ما بين " ثاكيات الساسي" وقورارة تعتبر "بلاد السّبى). فكان أولاد سيدي الشيخ يرون أنه يمكنهم بذلك أن يحتلوا الجنوب المغربي بدون أن يطلبوا موافقة ذلك من أحد إلا مع الموافقة طبعا طوعا أو كرها من طرف القبائل التي كانت قاطنة بها. يمكن القول أنه أثناء كل فترة النزاع مع

---

17. سيدي حمزة جميل مثل هلال رمضان وقد خلف من يكمل إنجازه كي يقضي على المستعمر
18. قل لعطا الله : "من كلفك بذم من ليس لهم مثال، أيها الملعون؟"
19.فهل يقارن العسل الخالص بالقطران المرّ؟.
20. هذه الدنيا دنيئة وفانية. وتركت نفسك يستحوذ عليها الفساد و الرشوة لكي تنعم بخمسة" صولدي" في جيبك.
21.سكان المدن متعجبين من انتصارنا.المسلم الحق يقضي ليله في فرح عندما يذكرنا
22. أرجع إلى كتابتك لكي تكتشف الآراء المتناقضة.فكلاب الحي خير منك!

فرنسا كانت منطقة ما بين الحدود الجزائرية المغربية (قير، حمادة، الضرا) تعتبر من طرفهم ملجأ بكامل الحقوق.

برابر زناتة بهذه الناحية (آيت حمو، آيت داود، آيت باعمران، آيت أوشاون، آيت تاغروش، آيت زغدو، آيت عطّا، آيت خباش، آيت مولاّ)، والقبائل العربية المجاورة (أولاد جرير، دوي منيع، بني قيل، الأنقاد، مهاية) كانت كلها تميل إلى فرع الأصاغر لاستعدادها للنهب بدل المبدأ الديني أو الوطني. فكانت تتحمّل بصعوبة جيرانها.

بدل أن ينظروا إلى المتمرّدين كإخوان لهم في الدين يحاربون من أجل إيمانهم واستقلالهم، كان الشلوح والعرب الرحّل يعتبرونهم ضيوفا مضايقين لهم، غير لائقين، غير مرغوب فيهم، يأكلون أعشابهم ويجفّفون غدرانهم وآبارهم. لذلك كانوا في كل مناسبة لا يتخلفون عن القيام بأعمال النهب الليلي بلا حياء لصالحهم. وكرد فعل كان أولاد سيدي الشيخ يقومون بهجمات مضادّة موجّهة ضد القرى. الرواة أخبرونا حتى بِاخْتِطَاف النساء البنات البربريات خاصة من آيت داود فلم يُرْجَعْنَ لأهلهن إلا بشروط مهينة. يمكن القول أن أولاد سيدي الشيخ الذين تراجعوا إلى هذه المناطق عرفوا بؤسا مدقعا. لم يكونوا مرتاحين بين القبائل البربرية المغربية غير المِضْيَافَة.

في شهر مارس 1867 لم تستطع القبائل المؤازرة لهم أن تحتمل النزاع الذي قسّم فرعي أولاد سيدي الشيخ، ففرضوا عليهم اتحادا قويا وتنظيما محكما ضدّ الخونة، أملا في انتصار يمكّنهم من العودة إلى ديارهم "خيار الأوطان" على حد تعبير بلخير.

السي أحمد وسليمان بن قدور قَبِلا طوعا وكرها أن يوحدا حركتهما واستطاعا أن يجعلا قبائل أخرى ذات شهرة حربية جيدة تهتم بقضيتهما. وهكذا تكون ائتلافا سرعان ما أخذ اتجاهه نحو جريفيل . وتعبيرا عن فرحته الفائقة نظم بلخير القصيدة الموالية:

1. ساروا رعيان الخيل   ناويين الجهاد   شوف سيادي ما داروا   ساروا يا ضيمي[1] ساروا
2 . صدوا رعيان الخيل   ما يريدوا ذليل   وتكلم عقب الليل   حس طبل النحاس
3. غوايط بَتْوَلْوِيل   طابعين الزعيل[2]   يفطن من كان هبيل   بالزقا والهواس
4. أهل علامات تميل   للمحال دليل   وراهم فزوع تهيل   تاركين النعاس
5. ثراية بوكميل   ما يريبوا ذليل   تحجبهم يا جليل   ما يشوفو الباس
6. فازوعلىكل قبيل   بيت حرمةوصيل   ذلّوامن كان رجيل   في بلاد البلاص[3]
7. داروا همة وشليل   فوق سرتي طويل   تحسب نوارعطيل   كي ألوان اللباس

---

(1) ضيمي: فرحتي.
(2) الزعيل : الرحل المتنقل.
(3) البلاص: ساحات بوسط المدن الجزائرية.

8. صدوا من قير مكلفين إلى أرض الحماد شاو الليل و تباركه
9. سيدي أحمد وسليمان قاصدين البلاد ويح التل و جناره([4])
10. ثراية سيدي الشيخ راحت على وساد([5]) زل من القلب غياره([6])
11. من غير سيادي ما نريد حتى سياد خرجوا للجهل نقارة
12. و من سعد سيادي ما نريد حتى سعاد كل سماحي([7])بنواره
13. مصابيح الظلمة بيت حرمة و زاد بوهم سعد اللي زاره ساروا يا ضيمي ساروا
14. كالشرقي كالغربي([8]) بغاوا دين النبي تحفظهم يارب بجاه عالي المقام
15. سربة سيدي العربي اولاد الأصحابي وثراية حمزة واقفين في ذا العلام
16. أهل السيف الغربي وسابق العايبي إذا عاد يشابي يفك صرع اللجام
17. ربّ تقبل طلبي وبعّد مصايبي وتوفي ما في قلبي حلال ما هو حرام واحمد من دار ديارُه
18. من تونس للجعافرة لانقاد من غربي فاس اخباره
19. ثراية حمزة واقفين فوق الأعياد دبلون غلب عيّاره
20. أهل سروج القيمة على سراتى أعياد وبرانيس ملف اخضاروا
21. أهل طعام ومونة على الباد للباد([9]) كل وثاق و قصّاره
22. خوجات وقضاة حافظين الأوراد كل امام و حذاره
23. جاو معاه طراشين في كل حزّة اوكاد عُمُّر أغواطي ما باروا
24. لحّاقين اللي طاح في نهار الطراد ما نهرب شي إذا داروا
25. و ناس أهل الميعاد بيت حرمة وزاد عيسى هو و احراره
26. و طيفيل أولاد زياد أهل الشنا والعناد كسروا صاع اللي جاروا
27. و كرّومي وارزيني عظام حرمة اجواد لا عقد إلا بأنظاره
28. راني نشكر في جانب الطرافي اوتاد أهل كحيل و تكراره
29. عييت نعدّ على الراس طال العداد تحجب يا رب عرشي و كباره ساروا ياضيمي ساروا
30. راني نشكر و نزيد في الزوا والعبيد أهل اقفاطين اجريد طابعين السلاح
31. ماذا من بطل وكيد كيف ولد الجديد في الصول يشد باليد ما يهيب لجراح

---

(4)جناره : أي جنرلاته (كبار الضباط الفرنسيين) أوالحاكم العام .gouverneur général
(5)راحت على وساد : أي متّحدون.
(6)ذهبت الأحقاد.
(7)أي من سلالة أبي سماحة جد سيدي الشيخ.
(8)يقصد أولاد سيدي الشيخ الشراقة و الغرابة.
(9) الباد : أي البادي أي الفقير يعني أنهم يطعمون الفقراء.

32. يوم اللي رايت أولاد بوداوية سعيد ولد الشلالي في بطال حزّة ملاح

33 . أهل مصمريمشي على طراف الحديد من لسعات الشبير طاير بلا جناح

34خيمةيحوص الحاج فارحةفرح عيد من يقرض بين سلاسل الذهب لاسماح([10])

35. بين سيادي لاكيد لا نكر لا جحيد يامن فيك التوحيد قدّهم للصلاح والفال على بشّاره

36. إذا قلتو هربوا شوار رحمة بعاد جنينير خلينا داره.

37. رانا في دار العز للهنا والرقاد و رعاينّا ينزاروا

38. انتم قلتو عشتو بالنبق و الجراد فمّ مزانات بجاره

39. لا ذيتوا حمل الفاكيا لحمل الرشاد الكذب أهله يصفاروا

40. ماكم لا بالجنة لا يعيش لعباد راكم في الذل وعاره(و ناره)

41. احنا اللي مذكورين في نهارالطراد أهل الضرب و تحكاره

42. اللي عاشوا منا على الحرم و الزناد والميت ذاك خباره

43. محمد قال على أولاد سيده و زاد ما يندم في تفاخره

44. أولاد خليفةْ سيدنا شفيع لعباد صهرالرسول و جاره ساروا ياضيمي ساروا

لكن ماكانوا يجهلونه هو أن المسمى سليمان وعمه الشيخ بن الطيب كانت لهما علاقات سرية مع السلطات الفرنسية. كانت القيادة الفرنسية تريد بإغرائهما وإشباع بعض أطماعهما أن تقصي فرع الأكابرالذي رأته مستعصيا بحقده ضد فرنسا كلما أرادت إذعانه. كانت قد وعدت أن تعيّن سليمان آغا جريفيل إذا ما دخل في حرب ضدّ أولاد سيدي الشيخ الشراقة. لم يكن المجاهدون متفطنين في مسيرتهم هذه للفخ الذي نصب لهم ولا لفشل الإئتلاف بينهم.

وبسبب المناورات السرية الفرنسية والمكر والخداع الذي كان يقوم به الطرفان فالحرب كانت ستغير مجراها ووسائلها واتجاهها وهدفها.

لما اختزل فرع أولاد سيدي حمزة تكوينه في أوثق أتباعه قرّر مواصلة المعركة. المعركة المعلنة ضد فرنسا لأسباب سامية أصبحت حربا بين العرب فقط، حرب وضعت قبائل جزائرية مضادة لفرنسا، مقابلة لقبائل جزائرية موالية لفرنسا. ثم إن أول الضربات المسلحة لأولاد سيدي الشيخ كانت هجمات عقوبية موجهة ضد المزانات، حسب تعبيرهم هم أنفسهم: ضد "الماكرو les maquereaux المناضلين مع فرنسا" .

(10) لا يوجد تسامح مع من يريد أن يكسّر السلسلة الذهبية لسلالة أولاد سيدي الشيخ.

سيدي أحمد هجم من جراء ذلك على الخائن الأكثر شهرة محمد بن الحاج أحمد قائد أولاد عبد الكريم الذي هرب مع من والاه إلى جريفيل. ثم صعد نحو الشمال حيث كسر قبيلة مهاية في عين ابن خليل. ثم نظّم هجمات دامية ضدّ الطرافى بالمشرية.

أثناء هذه المعارك القتالية، قُتِل له الكثير من رجاله، خاصة ابن عمه وصهره السي معمر بن الجديد: مقاتل ذو شجاعة نادرة. لكن لما خاب أمله وتثبّطت همته بهذا الانقلاب في الوضعية وعندما قلّ زاده قرّر الرجوع إلى مخيمه السابق بالمنطقة المحايدة في الجنوب الجزائري المغربي. الشاعر بلخير، لم ينظم أحسن من القصيدة التي سنقدم أهم ما جاء فيها وذلك قبيل وفاة سيدي أحمد:

يا فارس لله عِد علي

1-يوم اللي يحضى الضيق علي   راني نشور التاليين نعيد
2- أنا شاو القوم في المشيلة   ومعاي الأغواط عقد مزرّد
3-وأنا تحت علام بوعسرية([0])   مير شيوخ بلادنا سيد أحمد
4-طواع العصاة ليه رعية   في وهران بشوايعه تتعاود
5-ستر الله ماجابت السنية ([1])   نستفخر بسلامته ونحمد
6- دير عليه حجاب يامولايَ   من عين الكارهه والحاسد
7- في شاو زماني ضنات رقية([2])   لياش اللي قالت امراة تولد
8- الخصلة والدين هدي هي   واصحاب الكفار باش تميعد
9- والشكر يواتي البوبكرية   وثراية حمزة البطل الواكد
10-هم اللي داروا ميات مزية   وخرجوا للكفار ضد حقايد
11-هم اللي هجروا بالإسلامية   وبلا بهم واش نشكر سيد
12-خلوها شيعة على الذرية   وادوا على الطايقين الزايد
13-خلطناهم كافر و شاشية   تخلاط غنم كابة للمورد
14-حكيناهم كيف حك القلية   فينا كان كبيرهم يتزاهد
15- وادينا على الروم كذا من سعية   وحصُن بلجاماتها تتقوّد
16-لو دامت تبقى لسيد رقية   لو كان الرسول فيها خالد
17-في عاشوراء جبت ذي القصيدة   ناظم الكلمة إسمه محمد

([0])بوعسرية كنية كانت تطلق على سيدي أحمد بن حمزة ومعناها " صاحب السعد" وكان حقا كذلك
(1) السنّية: التي تحافظ على السنة فلا تخرج من خيمتها.
(2) رقية بنت بلحرمة المدعوة مبروكة أم السي سليمان و السي محمد و السي أحمد ابن السي حمزة. كما كانت تكنى أيضا أم المجاهدين.

18-بعد ورا ميتين وألفية في الخمسة وثمانين مقيد

19- ارحمني أنا والديا والصف لي راه كامل قاعد

20-ارحم بالجميع الإسلامية بجاه المدني الطاهر الأمجد[236]

في يوم 17 ديسمبر1867 تسلم سليمان رتبة آغا جريفيل و شرع مباشرة في معاداة القبائل المشتبه في بقاء ولائها لفرع الأكابر . و لو لم تُظْهِرْ ذلك. واحة بريزينة في الجنوب، و قبائل أخرى شمال جريفيل تلقّت نفس الإحساس ونفس الابتزاز. ولكي تفرضه على الناس كانت السلطات الفرنسية تقوم لصالحه بالعوامل النفيسة ضدّ فرع الأكابر. لكن الشعراء لطّخوا مساعيها في الطين بالقصائد الهجائية التي بقيت ملتصقة في الذاكرة الشعبية. وصل بهم الأمر إلى أن يتهموه بأنه لا ينتمي حقيقة إلى سلالة أولاد سيدي الشيخ بل إنه ولد غير شرعي. فكان ردّ فعله همجيا.

لما كثر نهمه وإثاراته ما كان على السلطات الفرنسية إلا أن أقالته ودعته إلى الإقامة الجبرية في "ملاتة" غير بعيد عن وهران. الإقامة التي فرّ منها لكي يلجأ إلى تافيلالت بضع سنوات حيث عاد إلى نشاطاته كقاطع طريق. وعندما بالغ في شروره لم يتحمل البرابر في المنطقة ذلك، فنصبوا له كمينا مع جماعته وقضوا عليهم حول صحن كسكسي دعوهم إليه (زلافة طعام) .

كانت تلك هي الحال سنة 1285 هـ/1868م لما توفي السي أحمد[1] بمرض الكوليرا في الجنوب الجزائري المغربي حيث استقر المجاهدون مكتفين بتنظيم هجمات ضدّ القبائل التي بقيت موالية لفرنسا أو بالهجوم على المجموعات الفرنسية التي كانت خرجاتها في الحملات التطهيرية قليلة جدا.

---

[236] شرح الابيات: 1.عندما تجري المعارك و نتلقى ضغط العدو أكون في الخلف لكي أحمل الجرحى الزاحفين.
2.لكن عندما يجب الهجوم اكون مع أوائل فرسان اللقاء مصحوبا بأغواط وهم السرية النخبة.
3.نحن حاليا تحت راية السعد التي باركها سيدي أحمد أمير قادة اوطاننا.
4 طوّع المتمردين حتى أصبحوا له أتباعافصارالناس في وهران تحتفل بنصره.
5 يحفظ الله ابن السنية فهو صاحب الخصال الحميدة فأرجو أن يبقى لنا سالما
6.أسأل الله أن يحفظه من عيون الحاسدين و الكارهين له.
7. رقية أنجبت ولدا بطلا معلوما، لم تستطع النساء حتى أن يتمنّين انجاب من يتفوّق عليه.
8.لقد اجتمعت فيه الأخلاق الحسنة و الإلتزام الديني فماذا عسى أن يقول فيه جمع الكفار.
9.المدح لا يليق إلا بسلالة أبو بكر وذرية حمزة البطل الراسخ.
10. هم الذين مزاياهم لا تعد و نظّموا جيوش المعركة الجزائرية (ضد الغزاة)
11. فبدونهم: أين هم القادة الذين يمكن أن أثني عليهم ؟ إلخ...

-1 - توفي في أكتوبر 1285 هــ / 1868 م . الذين أعلمونا و المراجع المكتوبة التي في حوزتنا لم تحدّد مكان دفنه " دفن في تافيلالت " لكن أين بالتحديد ؟إن قير مقاطعة واسعة ذات المواضع الصغيرة الكثيرة.أم في بوذنيب؟
مهما يكن من أمر، فإن الأخبار سرت على أنه مات مسموما بإيعاز من القيادة الفرنسية. العقيد ترومليت الذي لم يستبعد هذا الإفتراض أضاف أنه سمّم من طرف الذين كان في موته فوائد ومصالح لهم " (ص 362.)
مات بالكوليرا أو مسموما المهم أنه مات من أجل الإسلام و الجزائر، فلم يستسلم و لم يسلم نفسه لــ "الاموريسيار" أو أي كان، كما فعل البعض من المقاومين غيره لكي يتمّوا حياتهم في القصور التي شيدتها لهم فرنسا بعد استسلامهم .
و لهذا السبب نفسه لم يُسمَّ حتى شارع باسم السي أحمد أو أحد غيره من أولاد سيدي الشيخ في حين شيّدت تماثيل خيالية لغيره في وسط أحسن ساحات الجزائر العاصمة. يجب على الأجيال المستقبلية الجزائرية الأكثر ثقافة والأكثرعدالة، أن تُرجعَ لكل واحد ما يستحقه من تمجيد تاريخي.

إن موت السي أحمد قد أحسّ بها المقاومون بألم شديد. حيث ألقتهم في أحضان اليأس وزادت في بؤسهم المادي.

قائدهم اختفى وتركهم بلا زاد في أرض غريبة بين عدوان البربر الذين أصبحوا أكثر تكبرا وأكثر تشددا من ذي قبل.

وحتى خارج العداوة، فإن الصحراء المغربية لا يمكن أن تنسيهم صحراءهم .

الحنين إلى الوطن كان يشغلهم في أعماقهم. لكن هذه الوضعية المزرية لم تغير من إيمانهم ولا من تعلقهم بوليهم سيدي الشيخ الذي كانوا يمجدونه في حماسهم الروحي. كان بالنسبة لهم رمز الاستقلال والوطن والدين والعرق ومسقط الرأس : جبال كسال و واد زرقون وواد صقّر والواد الغربي وسهول دنيا وضاية البقرة و ستيتن والفرش و بوزولاي وكثبان العناقر والقرى والواحات المألوفة من بريزينة والأبيض والغاسول وغيرها ...كانوا يحسون أنهم كثيرون وبعيدون عن المناظر التي كانت مهدا لطفولتهم و شبابهم وأنه يجب الرجوع إليها وإختيار قائد جديد بسرعة مهما كلفهم ذلك من ثمن.

5 – سيدي قدّور بن حمزة

(1868 . 1897م)

سبق أن قلنا أن وفاة سيدي أحمد بن حمزة في جنوب تافيلالت زادت من حدّة البؤس المعنوي والمادي للجزائريين المحاربين من أجل دينهم و وطنهم وشرفهم .

كان عليهم أن يختاروا بين السي الأعلى المحارب الفذّ عم المرحوم وبين أخي المرحوم وهو السي قدور بن حمزة. السن(علوُّ الولادة) والانجازات الحربية كان كل ذلك لصالح السي الأعلى.

بساطة طبيعية هي كون السي قدور بن حمزة له أم سوداء وذلك ليس في صالحه لكن رغم ذلك فإن أغلبية المقاومين كانوا متمسكين بأسرة السي حمزة مما منعهم من إبعاد ابنه. اختير إذن السي قدور وأعلن القائد الأعلى للحرب، وجعلوا فيه كل ثقتهم لوضع حدّ لحالة أصبحت مزرية.

ما إن أخذ زمام قيادة الثورة حتى ثبت أمامه هدفين:

1. محاربة فرنسا و القبائل الموالية لها.
2. مهاجمة سليمان بن قدور عميل الامبريالية الفرنسية.

هذا الأخير بعد مغامراته في الجزائر ومهاراته في المغرب عيِّن، كما سبق ذكره آغا جريفيل. خيانته نقضت الإئتلاف.

طيلة مدّة وظيفته القصيرة، صدر منه شرّ كثير في جريفيل نفسها وفي دائرتها عبر القبائل المحيطة بها. إنّ تدخلاته المتبجحة و دسائسه عرّضت للخطرو للشبهة العلاقات التي كانت تربط بين فرع الأكابر والسي قدور من جهة و بين القبائل الطائعة وغير الطائعة من جهة أخرى . لقد تهجّم بالقدح ضدّ رئيس الأخوية (الطريقة) مما استدعى ردّا سريع. كانت السلطات الفرنسية مبتهجة بهذه الحملة المسعورة التي شنّها سليمان لأنه لا يوجد أحسن منها للزيادة في التفرقة التي تخدم مصالحه.الحرب بين العرب بدأت تأخذ مجرى الفتنة المضرّة بالمجاهدين .

قوات السي قدور والسي الأعلى كانت تضم الأغواط والشعابنة وأولاد خالد والجزء الوطني من الأحرار وقبائل أصلها من ضواحي العاصمة و اولاد مومن والطرافي وأولاد زياد الذين فيهم فرع أولاد سعدون الباسل وأهل ستيتن والأنقاد وطبعا مجموع اولاد سيدي الشيخ الشراقة.

أما قوات سليمان فتحتوي على أولاد سيدي الشيخ الغرابة وحميان والرزاينة والعمور وعكرمة وأولاد عبد الكريم واولاد صرور وبني مطهر والمهاية.

أما قبائل الجنوب الجزائري المغربي (أولاد جرير وبني قيل) فلم تكن مواقفهم مستقرة؛ تارة كانوا يحاربون في صفوف السي قدور وتارة في صفوف سليمان.

لم يكن لديهم مبدأ روحي. إن ما كان مُهِمًّا في نظرهم كما في نظر اولاد عيسى هو قطعان الغنم والإبل والمراعي. في جريفيل عرفت السلطات الفرنسية آنذاك حالة سلم غير منتظرة. لم تكن تبعث بالضباط المؤطرين للتسيير وإرشاد مناضليهم في المعارك واكتفت بتكاليف الملاحظين بالمعاينة (المخبرين) وبتحرير عرض حال الاشتباكات.

بوران Burin الذي كان دائما في جريفيل، برتبة (قبطان) رقيب بفضل حُماته في الحكومة العامة، كان يعمل على تطبيق مبدأ تحطيم " الأنذال بالأنذال " متهكما و مضيفا : "كلما قلّ عددهم كان ذلك أفضل. "

قبائل أخوية أولاد سيدي الشيخ لم يبق لهم الاحساس بقتال التواجد الفرنسي ولكن اندفعوا في حرب قبلية بما فيها من روح العصبية وتحدياتها وسبابها وثرثرتها ومبارزاتها واناشيدها وعروضها. أحد المحدّثين من بريزينة وهو المقدّم الحاج محمد ابن كابار. الذي توفي في نفحات قدسية سنة 1940م . نقل لي هذا الحدث المبين قائلا: " إن النزاعات التي نشبت بين سي قدور بن حمزة و مناضليه من جهة و بين سليمان واتباعه من جهة أخرى لم يكن مقبولة عند جميع العرب. قبل المعركة نظّم " مقاديم " سيدي الشيخ لقاء بين سيدي قدور وسليمان في زاوية الأبيض لكي يحاولوا الإصلاح ولكي يذكروهم أن الجهاد ضد فرنسا كان أَلْيَق وأكبر درجة من حرب تشتيتية بين المسلمين. سليمان لم يوافق على هذا الرأي مضيفا أن له حسابات شخصية يصفِّيها أولا مع فرع الأكابر. السي قدور عرض عليه مبارزة فردية قائلا: " لماذا نقتل المسلمين بالمسلمين ، لننظمْ أنا وأنت مبارزة على الفرس فإمّا تقتلني ويجتمع حولك المجاهدون وإمّا أقتلك ويسير الجميع معي ضد الكفّار!" أجابه:"أتريد أن تمزح ؟ إنك تقول ذلك لأنك تعلم أنك أحسن منّي في الرمي، وأنك في أول هجوم تقضي عليّ ! لنترك الأمور كما هي ! الاشتباكات أكثر حسما من العراك الذي لا يحلّ الشيء الكثير! لا بد من منتصر ومنهزم أحسن من قاتل ومقتول . " !

زيادة على جريمة كسر وحدة المحاربين من أجل الإيمان والوطن ، أضيفت جريمة أخرى من طرف سليمان نفسه الذي كان أثناء هذه الأحداث مطلع شؤم وسخط في أخوية أولاد سيدي الشيخ. حيث بواسطة سلطان المغرب اتصل به الإنجليز الذين كانوا متنبهين إلى هذه المعركة في الجنوب الجزائري المغربي ضد عدوتهم فرنسا آنذاك. أرادوا أن يزوّدوا بالسلاح والأموال أولاد سيدي الشيخ. لكن سليمان أعلم القيادة الفرنسية بنوايا الإنجليز. فأسرعت الحكومة الفرنسية إلى التدخل حيال سلطان المغرب والحكومة الإنجليزية لتعبر لهم عن عدم رضاها بالتدخل في شؤون الآخرين. تجدر بنا الإشارة أن هذه المعلومة تحصلنا عليها من طرف الأستاذ التونسي عبد الجليل التميمي مدير جريدة " التاريخ المغاربي " وكذلك من طرف الباحث الشاب الكندي م.جونسون M. Johnson. كان

أيضا متبقيا في خدمة فرنسا مخبرون وجواسيس آخرون مثل شخص من أصل تلّي اسمه " السكّة " "Saqâ" الذي قتله السي قدور بن حمزة لما تيقّن من غدره .

كان أول انشغالات السي قدور بن حمزة هو إعادة لُحْمَة أخوية أولاد سيدي الشيخ وتجميع كل قوى البلاد حولها قبل الدخول في القتال ضد فرنسا. فبعث بالرسل إلى الأرباع في الأغواط و إلى أولاد نايل في الجلفة وإلى الأحرار في سوقر(Trezel سابقا) وإلى أخوية التيجانية في عين ماضي.

في هذا التسلسل للأفكار، يجدر بنا أن نتفحّص حدثا يستحق الفحص ألا وهو: دور الأخويات الدينية الأخرى. نستعجل القول أنها لم تكن عديمة فحسب، بل كانت في أغلب الأحيان مشؤومة. فأخوية التيجانية بصفة خاصة كانت دائما موجّهة ضدّ الجزائريين الذين كانوا يحاولون الكفاح من أجل إستقلال البلاد.

كانت دائما قوّة معنوية في خدمة فرنسا وأعلنت قبل ذلك محاربتها ضد الأمير عبد القادر.

جعلت منها فرنسا حصنا لمآربها السياسية التوسّعية في الجزائر وبعد ذلك في الهقار والمالي وفي جميع إفريقيا السوداء. أثناء مقاومة أولاد سيدي الشيخ لم تحمل السلاح ظاهرا ضدهم ،لكن حركتها الخفية الموالية لفرنسا في القربالبربرية والعربية البربرية ببوسمغون والشلالة وأربوات إلخ ، لم تكن خفية.

ابتداء من يناير 1869 تشاور السي قدور مع عمه السي الاعلي ليضعا مخططا للتنفيذ يتمكنان من خلاله أن يصلحا من الوضعية التي كانت تنحط أكثر فأكثر. كما عملا على أن يتفاهما مع جميع شيوخ القبائل والتصالح معهم والعمل بكل ما في وسعهما لتحقيق الوحدة معهم.كان لابد من التحالف مع هؤلاء ومع أولائك، و لهذا الغرض بالذات عقد إجتماع في زاوية القنادسة من خلاله استطاع السي قدور والسي الاعلي أن يحصلا على الدعم من طرف قبيلة من فرع الأصاغر لأولاد سيدي الشيخ.

ومن جهته فإن شيخ التيجانية سيدي البشير بعد أن الإتصال به و بعد نقاش طويل استطاعوا أن يقنعوه أن الإعانة المقدّمة إلى فرنسا مباشرة أو بصفة غير مباشرة ضد المسلمين الذين يحاربون ضد فرنسا، تعتبر عملا مؤدّيا إلى الكفر والإدانة إلى الأبد. لذلك وعدهم السي البشير بمؤازرتهم ([1]). استكمل السي قدور و السي الاعلي والسي البشير التجاني مخطط الهجوم ضد فرنسا. كان لابد من نقل التحرك جنوب الجزائر العاصمة مرورا بعين ماضي التي أصبحت فيما بعد موقعا معززا بالقيادة ومن ثم ذهبت ثلاث مجموعات من المجاهدين بعد تحطيم المستعمرات الفرنسية متجهين

---

[1] دو لا مارتينيير ص 879.

نحو الأغواط والجلفة وابوسعادة. كان لابد من وضع كل شيء في تحرك للقضاء على وجود الجيش الفرنسي في الجنوب الجزائري .

هذا المخطط الشجاع كان يمكن أن ينجح. المناخ المعنوي في هذه المناطق كان مواتيا، وابتهاج المقاتلين كان في نفس حيوية القوة الدينية للزاويتين، زاوية أولاد سيدي الشيخ والزاوية التيجانية(مركز عين ماضي)، متحالفين ومصمّمين على قتال الكافر وعقاب أتباعه. كان لابد أن ينجح لولا معطيات جديدة مصيرية اعترضت بصفة محتومة مشؤومة .

هذه المعطيات الحاسمة الجديدة كانت اختراع بندقية شاصبو Le fusil Chassepot ذات الرمية السريعة التي كانت تُعَبَّأُ عن طريق المِغْلاَق (la culasse)، بينما المقاتلون المسلمون كانوا لايزالون يستعملون بندقية الكبسولة (fusil à capsule) وأحيانا بندقية السلكس(silex). إن بندقية شاصبو هذه التي جهز بها المستعمرون الفرنسيون لأوّل مرّة خلّفت الدمار في صفوف المقاومين الجزائريين الذين لم يكونوا قد عرفوها من ذي قبل. كما استعملت فيما بعد في تكسير أيّ اندفاع من قبل أولاد سيدي الشيخ، كما استطاعت فرنسا أن تفرض بها احتلالها الكامل في الجنوب الجزائري.

وللرجوع إلى الحملة نفسها، نقول أن جزء من القوات المقاتلة لسيدي قدور وجّهت نحو الشط الشرقي كما إتفق. واغلبية الجيش اتجه نحو جبل عمور.

بعد أن عاقبوا آغا آفلو المسمي "الدين"، و جعلوا فرسان (قوم) آغا الأرباع المسمى "الأخضر"، وحطّموا القرى الطائعة لفرنسا في تاجرونة وقرن الستاوتية، فإنّ جيش أولاد سيدي الشيخ وصلوا إلى عين ماضي. زعيماهم السي الأعلى والسي قدور استقبلا من طرف الزاوية نفسها بكل حفاوة وشرف.

اعلان الإئتلاف بين الزاويتين ضد فرنسا كان بمثابة انذهال لدىالقيادة الفرنسية في (31 جانفي 1869م) كتب الجنرال صونيس Sonis [1]:"إن جنر غدر رجال زاوية عين ماضي كان بالنسبة لنا أمرا خطيرا ... ما إن دخلنا إلى معسكرنا مع السرايا وجيش الأرباع (قوم)، حتى جمعت الضباط لإعلامهم بمّا جدّ من أمر، طلبت منهم أن يفعلوا كلما بوسعهم لمواجهة ذلك ... وفي المقابل كان السي قدور والسي الأعلى نشوانين بانتصارهما ... المؤمنون لم يشكّوا أبدا في دفاع الله عنهم"

" ليلة 31 جانفي إلى أول فبراير كانت ملأها القلق ... في دخول الليل وصل إلى المخيّم مبعوث ذو ثقة من قبل سيدي أحمد التيجيني ... إن هذا الوليّ الذكي كان يلعب دورين في آن

[1] – بونارد Baunard ، الجنرال دو صونيس 1890 – ص 269 – 283 .

واحد كان يبحث عن ضمان الأمن من أي جانب دارت الغنائم" ... " إن قوة أولاد سيدي الشيخ كانت تحتوي علي حوالي ثلاثة آلاف فارس و ألف من المشاة ... الجيش الفرنسي كان عدده ثلاث كتائب إفريقية، وأجزاء كثيرة من الرماة الجزائريين، وأجزاء كثيرة من المدفعية، قطار العدّة ، الإسعاف، و كثير من سرايا المطاردين الإفريقيين وفرسانهم (Spahis). مجموعة هامة من الأرباع على رأسهم الآغا الأخضر مع فعالية الأسلحة الجديدة وخاصّة بندقية شاصبو Chassepot أُعْطِيَ الأمر للجميع للقتال مشيا " .

بهذا التكوين الذي ذكره الجنرال صونيس فإن الجيش الفرنسي كان حصنا وقلعة، ماشيا ببطء نحو ميدان المعركة من أجل قتال دفاعي." الجميع كان مسلحا ببنادق "شاصبو" التي كانت مجهولة لدى أولاد سيدي الشيخ. ففي الساعة التاسعة ونصف صباحا . حسب دو صونيس . بدأت المواجهة على هضبة مملوءة أحجار، ومغطاّة بالحلفاء، المعروفة تحت اسم القارة الغشوة "؛ و كتب أحد الشهود الفرنسيين [1]: " مجموعة من الفرسان العرب اندفعت نحو مربّعنا بحماسة كبرى. استقبلت من طرف بنادق الشاصبو وعلب رصاصها المتطاير، أخذت تدور حول هذا الجدار الساحق الذي لم تستطع الاقتراب منه أكثر للتمكن من أن يصيبنا رصاصُها "

" نيراننا لم تتوقف و قد أحدثت الخراب في هذه الكتلة المختلطة التي تتقدم في (رقعة) مساحة شاسعة أكثر فأكثر. إنه حصاد للعرب بحقّ ! فرسانهم أسرعوا

" فرسانهم اندفعوا نحونا، فرادى وجماعات، تقدموا حسب شجاعتهم لإطلاق نيرانهم ثم الإلتحاق بالمجموعة، لكن لا أحد منهم استطاع أن يقترب أكثر من 200 متر من صفوفنا دون أن يتدحرج في الغبار، سلاحنا ذو الرمي البعيد جعل المعركة لعبا صبيانيا، الرشاش والرصاص حفر أخاديد مخيفة في هذه السرايا البربرية، المشبعة بالشجاعة والإقدام . السلاح الجديد الذي كان يظهر لهم كأنه لا يعبأ ترك في نفوسهم عجبا وحيّرهم وأرعبهم " .

كانت المعركة قاتلة على أولاد سيدي الشيخ. في حين أن من الجانب الفرنسي لم يسجل إلاّ ثمانية ضباط مجروحون بدون أي قتيل حسب تقرير الجنرال دوصونيس ،حول هذا الحدث الذي عرضته الجرائد الجزائرية و جرائد العاصمة في شكل رائع من جانبها.

لقد دفع ثمنها عدد كبير من المقاتلين الأكثر إقداما (سبعون من أشهر وأكثر القبائل ثقة، قبيلتا الرزيقات والقراريج)، ومئات الجرحى بين خفيف وخطير.

الإخباريون العسكريون الفرنسيون سموها "معركة أم الدبداب". أما عند العرب فهي معروفة "بنهار قارة الغشوة" .

---

[1] – ترومليت Trumelet ص 394 ، انظر عند فرناد هو Fernard Hue في كتابه تاريخ أول المطاردين (الصيادين) بإفريقيا – و نفس المدر السابق ص 273-274 .

إستغل الجنرال دوصونيس انتصاره متقدّما إلي بريزينة ثم قرّر أن يخيّم في سيدي الحاج الدين.ورجع بعدها إلى الأغواط يوم 12 فبراير .

العقيد قائد ساحة جريفيل رأى أنه ليس من الحذر المشاركة في المعارك. لكنّه بالمقابل أمرخادمه لاغا سليمان ليحمل مع رجال (قوم) الغرابة وحميان والرزاينة وقبائل مزانات أخرى، على بني عمومته. انتهز الفرصة ليعطي الحرية لهم للسيطرة حسب ميولاته التي هي من طبعه: النهب والقتل.مرّ على الأبيض حيث دمّر وخرّب ثم وجّه رجاله نحو الخيام المعزولة السلاح بلا دفاع في "المرّة" [1] واد قير الذي غزاه على مزاجه وجمع منه الغنائم من القمح معتبرة: ألفان من الجمال، وجميع قطعان الأغنام بدون أن يحافظ على النساء ولا الأطفال (15 فبراير1869م). التيجانيون كان عليهم أن يساندوا أولاد سيدي الشيخ. الجنرال صونيس ندم أنه لم يبعث بهم إلى "كايان Cayenne " .

التيجاني البشير أُرْسِلَ للإقامة الجبرية إلى مدينة "بوردو" حيث سيبدأ بالنسبة إليه النظر في تزويجه بجاسوسة أصبحت تسمى أوريلي تيجاني Aurelie.

السي قدور و السي الأعلى أمام هذا الإخفاق وجها مجموعاتهما نحو الشمال الغربي للإلتقاء بالوحدة العسكرية التي كانت تقوم بالعمليات في منطقة مرحوم والشط الشرقي. بعد الإتصال أخذوا طريق العودة إلى واد قير في مخيّمهم. دمار مثل هذا بعد آمال كبيرة خيّب المريدين: يحاربون في سبيل قضايا نبيلة، في سبيل الله و الوطن، ثم يصابون بمثل هذه الخيبة !. كل ذلك ظهر لهم غير معقول، إن"المكتوب" قد تجاوز إدراكهم!.

الشاعر محمد بلخير الذي سجل جميع الأحداث لم ينل ذلك من إقدامه شيئا، وقد أفرد لهذه الضربة الخاسرة قصيدة طويلة نذكر منها المقتطف التالي:

مقتطف من : نهار القارة الغشوة

1 أولاد حمزة قاع الطيور و الحبار أولاد الروم
2 راكبين الخيل ذكور غالیین اعیاد السوم
3 كم من فارس قندور يقلب القوم على القوم
4 زوجة القيامَ الحور في الجهاد المعلوم
5 خيمة البركة و النور والعلام اللي محروم
6 زُورْ كان بغيت تزور عن من جاهم مظيوم
7 نرتجى و الفلك يدور كي اللي راقد في النوم

[1] – المرّة : اسم لمكان

8 بين معزوز و محقور لا تقول الحال يدوم ما تدوم الا للواحد الهادي
9 ما تدوم الدنيا حالها تفكير ما تدوم شي للرحال و البلدي
10 واش درنا بمزانات وسراسير ما يحلّ القتل إلاّ مع الضدّي
11 "ديدو" يخرج ونحوه فزع غزير بين طرافي واغواط وزيادي
12 فوق من هذا الغاشي حساب كثير كل كانت في يد سيدنا تهدي
13 نهار القارة الغشواء نهار كبير كاملين ثلث ضربات في عودي
14 ضرب ناطح من الرقبة لحد الدير ثاقل بالجراح بالايمنى يردي
15 كامل الخصلة يجري بلا شابير ما كذبت شي كل نهار بشهودي
16 كي تتسمّى لي هربة نعود نسير في حرم زينين الخيل معادي
17 في فضل ربّ و فضايل البشير و في فضل مرّار الطيب العادي
18 كيف كان الحال يكون ما الدوام إلا لله
19 بين كاف وحرف النون ما يشارك حد معه إلخ..

ما يجب معرفته من هذه القصيدة الطويلة و التي سنعود إليها في ديوان بلخير، هو من جهة التمجيد والتعظيم حتّى في الشدّة والمصيبة – لأولاد سيدي الشيخ – في عينيه كما في أعين المقاتلين. سيدي الشيخ يرمز إلى الدين والوطن والشرف ومسقط الرأس و من جهة أخرى تنبعث من هذه القصيدة فلسفة الحياة. فلسفة خاصة بجميع الشعراء الصحراويين في تلك الفترة مثل: سيد الشلالي و يوسف الشعنبي ،فلسفة أساسها التفاؤل .

إن المشهد الذي تقدمه لنا الحياة غني في ميدان التعليم. حياة زائلة، ووجودها تداول فيها، بين الأحزان و الأفراح. لاشيء يبقى لارخاء ولا شدّة ، ولا صداقة ولا محبّة، ولا رفعة ولا ازدراء. الكون نفسه لا يمنح أي سبب للتعلق به، جموده يدل على عدم عقله وعدم شعوره. لكن هذا الجمود المملوء باللامبالاة يشير إلى حدّ تعتبر الروح البشرية المتتالية غريبة عن هذا الكون. لذلك يجدر بها ألاّ تتعلق إلاّ بما هو دائم مثلها وخالد ألا وهو الله الذي له الحكم المطلق والمستقل في خلقه. خلقه الذي تظهر فيه الحكمة منتشرة والمنطق مملوء بالتناقضات، لكي تفهم اللاعقلانية في هذا الوجود في الظاهر.لا يجب أن ننسى الباطن الذي يغطّيه حجاب والذي يظهر معطيات خادعة. العالم يظهر غير حسن الصنعة لأننا لا نضعه ضمن النسق الكوني لكن نضعه حسب (موازيننا) درجاتنا الضئيلة جدّا.نحن لا نعبأ بالحقيقة، و لا بالحياة تحت نهارها الحقيقي لأننا بين لامتناهيين .

هذه الفكرة التي ترجع أصولها إلى القرآن و إلى الصوفية تنعكس في هذه القصيدة، و ذلك ما يتميز به الشعراء الصحراويون. ما يظهر للإنسان شرا ، يكون في أغلب الأحيان خيرا. الهزيمة يمكن أن تكون نصرا، و النصر قد يكون هزيمة. الله وحده هو الذي يعلم سرّ العالم الذي يخفي على الإنسان: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [البقرة216] لكي نفهم العالم الدنيوي لابد أن نكون مرشحين لإيجاد منطق للامعقول ومعنى للمستحيل (وبما ان الجهاد في سبيل الله فهو سبحانه الذي يسيره كيف يشاء وهو ليس لديه مستحيل سبحانه وتعالى وهو يعلم معقبات الامور كلها).

هذه الهزيمة أحدثت بين القادة مجادلات حادّة وعنيفة لقد ألقى بعضهم أسبابها على البعض الآخر. وقع إذن إنشقاق بين السي الأعلى وابن أخيه السي قدور أو بالأحرى انقسام بين القبائل. جزء كبير من بينها لجأت تحت لواء سي الأعلى.

لكن الأغلبية تبعت السي قدور لحزمه كما لإنتمائه لعائلة السي حمزة .

ومن الناحية الأخرى فإن القيادة الفرنسية سجلت تكتّما وعدم الإبتهاج وعدم التسرّع عند قبائل الأحرار ورجال (قوم) الأغواط لمشاركتهم في المعركة ضدّ أولاد سيدي الشيخ. هزيمتهم هذه أحس بها جميع الجنوب الجزائري كالحداد.(1)

فعلا لقد أُبْعِدَ المقاومون في الجنوب المغربي ،لكن لم يُوضَعُوا خارج المعركة، كما أن العرب الذين أرغموا على الإنصياع للسلطات الفرنسية كما في انتظار رجوع أولاد سيدي الشيخ بحملة ثأرية. حيث كانوا يقولون: "ما هذه إلاّ جولة ستكون بعدها جولات".

" و الجولة أعيدت بسرعة "، ليس ضدّ المجموعات الفرنسية و لكن ضدّ أتباعها من العرب وخاصة المتشدّق سليمان الذي رجع إلى جريفيل في حملة صارخة بالسباب والتباهي. كان يقول :" أتمنّى ألا يضع السي قدور رجليه أبدا في هذه المنطقة بعد هذا الدرس! في حالة ما إذا أراد أن يثأر لمجموعته (المحلّة)، فسأشعل نيرانا كبيرة يعلمه دخانها موضع مخيّمي، حتي لا يستطيع أن يبرر جبنه بقوله: " لم أكن أعرف أين كان سليمان يخيّم".

غزواته وانتصار فرنسا في القارة الغشوة ألهمت أحد شعرائه المأجورين من أولاد سرور بقصيدة ذات هجاء لاذع، لا نملك منها إلاّ ثلاثة أبيات. صاحبها المسمي لبّوخ كان أعور وجسورا في المعركة. كانت قبيلته متحالفة مع سليمان يقول:

1 عارفين بجيحيص[2] غرور والإبل ليهم ما سابت

2 بالعليّم هارب قدور والشنابل قاع ابياضت

3 البويريد نثل مصرور يحل فيه منين تشابت

المعنى : نحن نعرف جيدا أن سلالة 'يحوص الصغير' (وهو جد فرع الأكابر) مغرورون، وأن إبلهم لا تمر بحرّية[3] . قدور كان هاربا بعلمه الصغير في يده وأما عبيده فقد ابيضّوا من شدّة الرعب. أما باروده القليل فقد ابتلّ في قطعة القماش التي وضعه فيها. كان لا يزال يحلّ صرّة البارود عندما نشبت المعركة .

كان هذا الكلام الموجه إلى قائد حربي لا يطاق سمعه. كما يقول المثل: "جابه مشارب المكاحل (البنادق) ولا تجابه أفواه العرب ". بعبارة أخرى. إن الجراح التي يسببها الرصاص أقل ضررا من استهزاءات العرب.

السي قدور وأتباعه أصبحت لديهم حساسية خاصة نحو كلام سليمان ونحو هجاء الشاعر لبّوخ. كما أنهم قرروا رفع التحدّي بدون تأجيل.

يوم 17 أفريل 1871، السي قدور غادر واد قير، و مشي على رأس سراياه في اتجاه جريفيل. لقد فاجأ مخيّم سليمان في " المالحة" غير بعيد عن 'توسمولين'.

كان ذلك يوم العيد حيث عادة يتسامح الناس عن كل شيء. لقد تجاوزه واستولى عليه بلا مقاومة .

مدافعوه هربوا وسليمان على رأسهم. لقد رفع التحدّي. ترك سليمان الخيام والنساء والأطفال وأحجم نهائيا عن الإستهزاء.

هذا الرد السريع ثأر لغزوة "المرّة " التي هجم بها على مخيم السي قدور، ألهم الشاعر محمد بلخير قصيدة عارض فيها هجاءهم بنفس البحر ونفس القافية :

1 عارفين بجيحيص الطيور و الإبل منهم ما منعت

2 غير تاق العقد المنصور دارت أم الخور و حبست

3 راه أهلكنا واحد في الغُور غير بعوينة و يكوّت

4 فك راسك من راس الثور بالقوال اللي تشمت

5 بين إنس و سردوك و بقور و بين حلوف دوي ثابت

[2] – بجيحيص : تصغير لاسم أبوحفص وهو لفظ استعمله الشاعر استهزاء بأولاد سيدي الشيخ فرع الأكابر(سيدي الحاج بحوص) 1 – من كتاب دولامارتيني 881-889 ــ وابنّارد : الجنرال دو ونيس ــ طبعة باريس 1890ــ ص 283.

[3] لم يكن السراق يأخدون إلا الإبل التي يعرفون أن اصحابها ضعفاء لايستطعون استرجاعها .

6 غير مدّ العربي القندور جاب بولحية يتكلفت

7 يا اخّي قايدهم مستور غير قدّيمة و تقسمت

8 ما تواتي تراس شبور غير بنعالة و يسحّت

9 سعيت كرشه وسعيت مصور بينهم زاهي تتكفّت

10 ياخيّ و ميعاد صرور خلت الشواي وهربت [237]

شاعر آخر لم نتحقق من إسمه نظم شعرا لا يقل تحقيرا بسليمان :

1 – هذا منين قلت ندير الدخان ياسليمان و الناس فالوسع يتقردّوا

2 – ناقوس مع عطف يتلجى هو نان دوبان خلاّوها وفود وصدّوا[238]

بعد هذا الهجوم العقابي الموجه ضّد سليمان والقبائل مثل أولاد صرور، صعد السي قدور نحو الشمال الغربي وقام بعدة معارك .

واحدة من هذه المعارك عرفت بإسم "يوم ماقورة" تقابلت فيها أخوية أولاد سيدي الشيخ ضد مجموعات الرجال (القوم) الملتفة حول لاغا سبدو الذي انضمّ إليه سليمان على رأس حميان والرزاينة، وكانت من جهة أخرى تسانده المجموعات الفرنسية تحت أوامر الجنرال دو ميلويز . مجموعات الأهالي التي في خدمة فرنسا والمجموعات الفرنسية سحقت من طرف السي قدور في سهل "ماقورة " لهذا الأغاليك (المنطقة).

عرب الناحية الوهرانية المتمسكون بدينهم ووطنهم ابتهجوا فرحا.وكالعادة حرّك هذا الإنتصار قريحة عدة شعراء، منهم شاعر مجهول صاحب قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات التي إستطعنا أن نحلّ رموزها جزئيا :

---

[237] المعنى : 1 . تعرفون أن تحيحيص (كما سميتموه) نسله كالعقبان و أنّ إبلهم لم تمنع من أيديهم.

2. عندما ظهرت سريتنا المنصورة استدارت الجمال و توقفت .

3. لقد " أَهْلَكْنَا " (لا يقصد المعنى و إنما يستهزئ به)، أحد العور ...

4. إن رأسك يشبه رأس الثور ...

5. إنك لم تفرق حتى بين الإنس(ذي القيمة) و بين السردوك ... مثلك

6. العربي هو بطل القراريج أسقط أبا لحية (أي زعيم الغرابة) على الأرض في أول جولة

7.إنّ قائدكم يشبه في لباسه الحلفاء اليابسة المبعثرة .

8.لا يمكن أن يضاهى الرجل صاحب الفرس والممتاز بمن يلبس نعالا ويمشي متخفّيا.

9. لم تغنم أيها الشاعر إلاّ أمعاء الذبائح فذهبت فرحا بها (أي البقايا أو الفتات)

10. إن أمر أولاد صرور غريب تركوا عند هروبهم شوائهم ...

[238] – المعنى: 1هذا النصر ردّ على حذلقتك يا سليمان الذي كنت تقول أنك تبرر مكان مخيمك بالدخان لكن الناس الجبناء عندما يكونون بعيدين عن المعركة يظهرون شجاعتهم ...

2 -إن صلصلة حلي نسائكم كانت تنبعث من التلال و كأنها تطلب العفو لما تركتَها وجمالها أنت وأصحابك وذهبتم هاربين .

يوم ماقورة

1 يا الفارس ما تغدى* تشوف لعراش وين * خبّرني ياودّي على المجاهدين

2 من عند عرب لحباب *ردّلي وجاب * لو كان يجي رقاب* شهورهم قاصدين

3 ليهم باغي نغدى* رفاقتي واجدين * ظاهر ماهي جحدة *إلى إليهم عازمين

4 ملح اشباح الخطرة* اعيادهم مصمرة * وكي بلغوا زعدارة *وناسهم لابسين

5 بستهم مفقودة * الأخيام الجد * هذيك العادة *على الرهيف متزايدين

6 ثراية حمزة * على قراها فايزة *وفي يوم الحزّة* يجبدوا على النايضين

7 هم صد الكفار*كان ماتوا إسلام * في قصّة ما قورة * تسوّل الحاضرين

8 البارود والغبرة *ضحاوا متخلطين * ومزانات والكفار*في الذل والهم غايسين

9 طبل وتفيروعساكر* وسراسيرهاربين*صف الهيه هياشر* وصف هنا صبارين

10 دهيك بين هاذوا وذوك و رجالنا غالبين والفرنج الملعونين يديهم متكامرين

11 و العلام معزوز بالعرب و الزوا والعبيد ترستهم مبنية تدمّر الحاسدين

12 عشّي واد الفعلول وواد سبدو لينا مراح والعاصي طاع ناسهم سايرين

بعد هذا الإنتصار واصل أولاد سيدي الشيخ حملتهم ضدّ القبائل الطائعة لفرنسا، السي الاعلى هجم على زناسن في نواحي تلمسان. السي قدور اقصى بني مطهر في الشط الشرقي ثم وجّه هجوما قتاليا ضد أولاد سيد الشيخ الغرابة الذين غاضته خيانتهم.

لما تلقت فرنسا هذا الدمار سنة 1870، أمرت حكومتها التي أقيمت في "بوردو" بتكثيف سياسة استعمال الأهالي ضد "المتمردين" (؟!) الجزائريين: سباهي(أوسبايس)، الرماة، المخزن والقومية.

الهزيمة الفرنسية أقلقت عملاءها الجزائريين الذي يخشون الثارات إذا ما غادرت فرنسا الجزائر.كان قدورالصحراوي وبلحضري وولد قاضي وسليمان وأقاربهم وأتباعهم قد اندفعوا في إشاعة مبالغ فيها لصالح فرنسا (أنها ستقوم بحرب إبادة) لكنّ أخوّية أولاد سيدي الشيخ والقادرية والرحمانية لم يبالوا بها كما لم يبال بها المقراني وأتباعه في القبائل والسي قدور والسي الأعلى في الناحية الوهرانية.

السي قدور قام بمعركة عنيفة يوم 3 أوت 1871 ضد أولاد سيد الشيخ الغرابة .

وأثناء الإشتباك الدامي هرب زعيمهم آنذاك معمر بن الشيخ وقتل أخواه الإثنان الحاج العربي وسليمان ابنا الشيخ. الغرابة فرّوا لكنهم أقسموا أن يثأروا.

في شهر ديسمبر1871، التحق بخيامه "بالخرواعة" جنوب غرب الأبيض سيدي الشيخ مع ما غَنِمَهُ من بعثاته الجريئة.

بعث دون حذر إلى قورارة قافلة محروسة بجزء كبير من قواته لتُزَوِّدَه بالتمر. الفرصة للهجوم على "سمالته" المجرّدة من المدافعين لم تُفَوَّت.

جمعت السلطات الفرنسية بسرعة كل"الأنذال" الذين حضروا لكي توجّه ضربة قاضية لزعيم المقاومة. لقد اختاروا أعداءه الشخصيين من بين زعماء القبائل الطائعة و خاصة زعيم فرع الأصاغر معمر بن الشيخ الذي سبق أن تكلمنا عنه قبل قليل. وجُمِعَ لهذه العملية أولاد سيدي الشيخ الغرابة وحميان والأحرار وعلى رأسهم قدورالصحراوي، ومهاية وطرافي تحت إمرة قيادة دائرة جريفيل، قبائل الضاية تحت إمرة العقيد لاتوليك la toullec ورجال (قوم) الأغواط ورجال سبدو. تحرُّك واسع لمجموع "القومية" أُضبِط ودُفِعَ به في اتجاه مخيم السي قدور ومدعم عن بعد بفيلق قاند Gand.

لما أعلم السي قدوربما عزمت عليه القيادة الفرنسية، قررّ الإبتعاد عن الخروعة والتخييم على "قعدة المنقوب" علي بعد 40 كلم جنوب "البنود" غير بعيد عن نفس المكان الذي قام فيه السي محمد بن حمزة بمعركة ضد فيلق و"قوم" الجنرال دوليني (في4 فبراير1865) .

في 23 ديسمبر1871 هجمت على السي قدور قوات معتبرة. كانت المواجهة رهيبة فوجئ السي قدور والسي الأعلى بالمهاجمين فواجهوهم بقوّة يائسة. قتل لهم 150 فارسا – و ذلك كل ما بقي له من قوة – .السي قدور نفسه و السي الأعلى إضطرا للتراجع محميين من طرف الشجعان أولاد سعدون فرع من أولاد زياد حيث أن 80 فارسا من هذا الفرع العظيم من أولاد زياد دفعوا حياتهم ثمنا لهذه الحماية. معمر بن الشيخ وقدور الصحراوي وسليمان انقضوا بشراسة غير معهودة على النساء والشيوخ. لقد أخذوا سمالة السي قدور(1200 خيمة) كما أخذوا رايتين وخاتم السي قدور(طابعه). كانت معركة لصالح " أنذال" العرب حيث ان العقيد قائد Gand لم يصل ألاّ بعد ثلاثة أيام مع مجموعاته الى ميدان المعركة (25 ديسمبر1871) لكي يتلقى هناك الولاء من طرف عدد كبير من فروع القبائل .

زوجة السي قدور: يمينة بنت خليل واثنان من أبنائه محمد وحمزة (أبي) وأمّه[1] كانوا من بين الأسرى. سجنوا في معسكر وفرندة وتريزل (سوقر)، سجناء أخرون أرسلوا الى ناحية القسنطينة وتبسة. قال ترومليت Trumelet معترفا: ان الإنتصار في هذا اليوم الجميل في "المنقوب" يرجع

---

[1] – مباركة بنت يعيش من أل مالي أنهت حياتها كأمة عند أولاد عيسي بن عباس إحدى قبيلة بمعسكر .

فضله كاملا مرة أخرى الى "قومنا" ... معمر بن الشيخ مع فيالقه أخذ منه الجزء الأوفر. لقد إستوفى ثأره"[2]

السي قدور والسي الأعلى محطَّمان، لكن غير مثبطَيْ الهمّة، إلتجآ في تابلكوزة حيث لم يتأخر وطنيون مخلصون من الإلتحاق بهما.

أراد زعماء "القوم" المنتصرون أن يفرضوا بكبرياء على السلطات الفرسية "مكافآت" مفرطة "مكافآت" تتمثل في ارتكاب تجاوزات وازعاجات ضد المهزومين. لما أتعبوها، ذكّرت السلطات الفرنسية هؤلاء أولئك أن فرنسا هي التي تقرّر وليس أتباعها. واستدعت قدور ولد عدّة الى الرجوع الى بيته وأن يهدأ في قبيلته (الأحرار). كما أمرت سليمان ومعمر أن لايكونوا طمّاعين بل متواضعين.

لما خيبت القيادة الفرنسية طمع معمر بن الشيخ بأن رفضت له أن يكون آغا جريفيل في مكان ابن عمه سليمان، غادر القطر ودخل إلى المغرب.

السي قدور بن حمزة استرجع بسهولة قواه و ظهر مرة أخرى في ناحية جريفيل، مفاجئا السلطات الفرنسية التي ظنت أنها قضت عليه نهائيا في معركة "المنقوب".

لقد اندفع في هجوم عقابيّ على القبائل الطائعة لفرنسا "بالشّراية".

فرع من أولاد سيدي الشيخ الغرابة وبني قيل انضم إلى فيالقه. بهذه القوات هجم على حميان فهزمهم. انضم الشعابنة أيضا مستجيبين للنداء الذي وجهه السي الأعلى. كبّدوا خسائر فادحة في الجنوب المغربي للقبائل البربرية الموالية لفرنسا. أخو السي قدور وهو السي الدين بن حمزة كوّن فيالق وهجم منتصرا على الدرّاقة جنوب بريزينة. أما قبائل مثليلي والأغواط وورقلة والمجانة وسعيدة و طافراوة والقبائل(البربر) فقد إنضمّوا إلي الشيخ الحداد وإلى الزاوية الرحمانية، تحركوا وأرغموا القيادة الفرنسية على مواجهة وضعية تفجيرية. و بعثت بسرعة مجموعة إلي مزاب ثم المنيعة تحت إمرة الجنرال دولاكروا. في الجنوب القسنطيني برز الولي الوطني بوشوشة الذي شجّع مقاومة أولاد سيدي الشيخ فهزّ قبائل توقرت والوادي .

ساعده افتايت عين طيبة، وقبيلة سعيد عتبة والمخادمة وشعانبة ورقلة فتحدّى الجنرال قاليفات Gallifet (يوم 8 يناير1873).

وكما كررنا لم تكن الجزائر في أي وقت من الأوقات تعد نفسها أنها احتُلّت نهائيا – وبغضّ النظر عن المأجورين وهواة النياشين والأجرة المشبوهة والإنتهازيين والسياسيين الذين كانوا يشكلون

[2] – تروملي المجلد2 ص 453 .

أقلية لا تعتبر بالنسبة للجماهير الشعبية– فإنّ الجزائريين رجالا ونساء وأطفالا وفلاحين وعّمالا ، لم يقبلوا أبدا أن يكونوا مستعمَرين مفرنَسين إلى الأبد .

عبر الزمن من أدنى البلاد إلى أقصاها عبّروا كلما واتتهم الظروف؛ ببصيص أمل، بالدموع والدماء وفراغ البطن صارخين: " الجزائرللجزائريين ".

أولاد سيدي الشيخ والمقراني والحداد وبوشوشة وغيرهم كثير هم أمثلة

و نماذج تذكر للتعبير وإظهار الإرادة الجياشة والتّعنّت والبروز التاريخي المحتّم الذي يعبّر بهذه العبارة البسيطة:" الجزائر للجزائريين". العبارة التي تناقلتها الأجيال تلميحا وتصريحا، بالشعور أو لا شعوريا جيلا بعد جيل.والتي ظهرت في التاريخ الجهوي للجزائر من خلال الحكايات والأساطير والملاحم والأمثال والحكم والأحكام مثل" ساعتهم قريبة" و" أيامهم معدودة "...

يقول الأستاذ أ. قوتييه E.Gautier المتوفي سنة 1940 في كتابه القيم "القرون السوداء في شمال إفريقيا ". أن شمال إفريقيا له ميزة إنتاج العمالقة،سواء في النمو النباتي أم في النموّ الفكري. عمالقة صالحون أو عمالقة مفسدون. لقد أنجبت الجزائر في الفترة التي نحن بصدد الكلام عنها عمالقة في ميدان البطولة مثل السي محمد بن حمزة، كما أنجبت عمالقة في ميدان الخيانة مثل لاغا قدور الصحراوي ولد عدّة. هذا الرفض للإنصياع للغزاة كان هو العلامة البارزة في تاريخه وهو الذي صنع وحدته رغم تباينه (القبلي) العرقي الذي بفضل الإسلام لم يؤثر على تجانسه الوطني. السلام الذي أعلنت السلطات العسكرية للحكومة العامة أبرز أوهاما قاسية: ولاء مؤقت، عدم الأمن الذي بدأ يعّم البلاد شيئا فشيئا، زعماء المقاومة ضّد السلطة الفرنسية يعلنون أنفسهم سلاطين هنا وهناك ممّا أسخط المدنيين والعسكريين الفرنسيين، كان لابد من وضع حدّ مهما كلف ذلك من ثمن لهذه الحركة التي لم تفهم منها العاصمة شيئا. السلطة العسكرية و "القياد" وأغواتها ومكاتبها العربية اتهموا بأنهم يتبعون نظام المجازفة والإفراط والإبتزاز. كان السخط نازلا ضّد الجيش وكارثته في سِدَان(1870) التي لم تكن لصالحه، لقد طولب باستبدال إرادته في الجزائر بإرادة مدنية.

هناك مسألة لم نتطرّق إليها إلى حد الآن وهي مسألة السجناء. لقد كانوا موجودين عند هذا الطرف وعند ذاك فوقع تبادل الأسرى. من جهة أولاد سيدي الشيخ لقد هُيِّءَ مخيّم في نواحي المنيعة. السجناء الذين هم من أصل جزائري (القومية والسبايس والرماة) كانوا يقتّلون دائما، أما الأسرى ذوو الأصل الفرنسي فكانوا يعاملون بإنسانية. وكان بإمكان القيادة الفرنسية أن تحررهم على أساس استبدال عشرة أسرى عرب مقابل أسيرواحد فرنسي. هذه النسبة في التبادل أعطيت لنا من طرف الرواة الشفهية التي أضافت لنا الحكاية التالية: "أن السي قدور في دورة إستطلاعية

في مخيم الأسرى سألهم عن طريق المترجم إذا كانوا يأكلون جيدا ؟. فأجابوا نعم نعم! لكن أين هي أحذيتنا؟ "، و أشاروا إلى أرجلهم الحافية. فقال لهم السي قدور: " في الصحراء لا نحتاج إلى الحذاء و بالتّالي لم نطلب منكم أن تأتوا !".

هكذا كان الوضع في بداية سنة 1873 عندما انتهز الفرصة الأميرال دوقايدون Lamiral de Gueydon الحاكم العام للجزائر في إجتماع عادي للمجلس الأعلى للجزائر الذي كان يضم أبرز قادة الأهالي بالجزائر وممثلي الحكومة العامة وممثلي المعمرين ليعرض عليهم الوضعية ويتحدث لهم عن سلام مرتجى مع أولاد سيدي الشيخ.

لدينا شهادة البشاغا العجوز لمنطقة "بورباكي": وهو بلقاسم فرحات (المتوفي سنة 1959) الشهادة التالية التي أخذها عن أبيه الخليفة فرحات (بالأغواط): بعد الخطبة المعتادة وعرض للمشاكل الكبيرة التي تهم المستعمرة، توصل إلى الكلام علي الهدنة قائلا: " مادام أولاد سيدي الشيخ منشقّين، فإن الأمن يكون دائما غير ثابت وتكون برامجنا معرضة للخطر. فلا بد من وضع نهاية لثورتهم". و كان متّجها مباشرة إلى قادة الأهالي ومنهم أبي فرحات لخضر خليفة الأغواط والأرباع و إلى الباشاغا ولد قاضي والبشاغا إبن قانة و الباشاغا قدورولد عدّة الصحراوي، ثم قال:"يمكنكم أيها السادة استعمال نفوذكم لكي تجعلوهم يأتون إلينا وتأخذوا منهم مصالحات بينهم وبين فرنسا. ولابدّ أن تقنعوهم أن المفاوضات يجب أن تكون لفائدة الجميع طبعا. وأن تمردهم لن يؤدي إلى أي شيء ".

أعضاء المجلس الأعلى بقوا صامتين إلاّ باشاغا الصحراوي الذي كان يجني الشرف والمصلحة من مقاومة أولاد سيدي الشيخ، فقال للحاكم العام مجيبا: "إنهم متديّنون متعصبون متطرفون ولن يقبلوا أبدا بالسلطة من فرنسا. الحرب ضد فرنسا تحوّلت عندهم إلى سبب للعيش: و إلى واجب ديني. إن كل محاولة المفاوضة معهم ستبوء بالفشل لأنهم ينظرون إلى فرنسا على أنها عدّوة "للإسلام"، ظهر الحاكم العام مغتاضا.

أبي الذي كان منضّما إلى أخوية أولاد سيدي الشيخ وكان صديقا لعائلة السي حمزة، أخذ الكلمة قائلا: "لماذا لا نقوم بمصالحة؟ من المؤكّد سيدي الحاكم العام أنكم لوعاملتم هذه العائلة ذات النبل السامي مع مراعاة ما لها من حقوق، ولو ظهرتم بمظهر المتفهّم نظرا لماضيهم ووضعهم التاريخي، فإنهم سيقبلون المفاوضة و يدخلون إلى بلدهم .وسيكون لنا السلام والهدوء.إنني متيقن من ذلك". ظهر الحاكم العام مقتنعا بهذا التصريح وقال:" السيد خليفة، أكلّفك للقيام بهذه المهمّة!".

روى مخبري:"كان في الأغواط فرع من أولاد سيدي الشيخ هم الطواهرية.

لم يريدوا المشاركة في الحرب فالتجأوا إلى الأغواط تحت حماية أبي. وما إن رجع إلى الأغواط حتى إستدعى أبي أعيان الطواهرية وعرض عليهم للذهاب إلى السي قدور والسي الأعلى، ويخبروهما من طرفه بما ترجوه فرنسا من سلام. كما يوصيهم – كواحد من المنضمين إلى أخويتهم – بأن يقبلوا التفاوض .

أسرع الطواهرية في تحمّل هذه المهّمة وهرول اثنان أو ثلاثة منهم على رأسهم المدعو بحوص بقدور،إلى سي قدور والسي الأعلى. وهكذا انطلقت المفاوضات ".

السي قدور بن حمزة كان حذرا فرفض الذهاب إلى جريفيل أو الأغواط كما اقترحوا عليه، و بعد التشاور مع السي الأعلى قرّر ارسال أخيه السي الدين لكي يستعلم عن شروط وقف القتال.

السي الدين هو سادس أبناء السي حمزة. ولد حوالي سنة 1847. كانت أمه سوداء من أبيسينيا Abyssinie، يقول عنه تروملي: "كان شخصية عديمة اللون لا معنى لها".

هذه الصفة هي التي كانت السلطات الفرنسية تتمناها، فتركت للنقيب القبطان المترجم(عقيد فيما بعد) ابن داود العناية لكي "يخدم" السي الدين، عن طريق إغراء أذواقه وأطماعه الشخصية. ابن داود هذا من أصل قبيلة صاحبة إقطاعة تقليديا في الفترة التي كان الإسبان يحتلون وهران. فكما تفعل دواوير ناحية وهران عند قدوم الفرنسيين استقبلوه بحفاوة، و جعل ابن داود من السي الدين ضيفه الخاصّ. قدم له أكلا رفيعا، وأهداه ملابس البذخ ولكي يجعله "يتحضّر" أكثر أهدى له (للزواج) يد ابنته خدوجة.

ممتلئا بهذا "الإطراء" استقبل السي الدين في وهران من طرف القائد العام للفرقة العسكرية الذي أبلغه بشروط "الأمان" المقترحة من طرف فرنسا:

أ- و قف القتال ورجوع المتمردين إلى مقاطعة الجنوب الجزائري.

ب- الإعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر بما فيها الصحراء.

ج- إدارة فرنسية بجميع ما كانت تتكون منه إمارة أولاد سيدي الشيخ لكن بصفة غير مباشرة بمساعدة "القياد" والأغوات والباشوات المعيّنين من طرف السلطة الفرنسية بعد استتباب النظام.

د- إعادة تكوين الباشا غاليك في جريفيل لصالح فرع الأكابر وتوزيع "القيادة" في هذه الملحقة وملحقة آفلو وورقلة ومثللي والمنيعة وتيميمون على أولاد سيدي الشيخ .

هـ –ارجاع أملاك عائلة السي حمزة المصادرة، و تعويض الخسائر التي لحقت بها (المواشي المأخوذة أثناء العمليات)، تعويضا على شكل دفعات خلال 10 سنوات بمكافآت سنوية

مقدرة بستين ألف فرنك للسي قدور وثلاثين ألف فرنك للسي الأعلى، على أن يعتبر ذلك اتّفاقا وليس نتيجة لهزيمة.

وأعطيت لسي قدور مدّة ثلاثة أشهر لإعلامهم بالجواب.

بعد أن تلقى هذه الشروط المزمع نقلها إلى أخيه وعمه، اقتيد لإتّصال آخر من درجة أعلى مع الحاكم العام إلى الجزائرحيث وصل يوم 4 فبراير1873. ومن هناك ذهب إلى متليلي لكي يبلغ الأمر إلى ذويه. قبل أن يغادر الجزائر، أخبروه أن هذه الشروط محترمة، وإن لم يقبلها أخوه وعمه، فإنه يمكن له هو لنفسه أن يقبلها وحده، وفي هذه الحالة فإنّ فرنسا مستعدة للتفاوض معه مباشرة و تجعل منه في المستقبل باشاغا جريفيل.

لما كانت القبائل تعيش في البؤس فإنها كانت تتطلع إلى السلام. لكن رغم أن وضعيتهم الإقتصادية كانت لا تطاق فإنها كانت تحس أنها مازالت قادرة على التحمل من أجل الدين والإستقلال. بالتالي فإن المصاعب المادية كانت تعرفها منذ بدأ جهادهم.

السي قدور والسي الأعلى رفضا قبول السيادة الفرنسية و لو بصفة غير مباشرة بسبب الضرائب والتعسّف والإهانة التي تلحقها. زيادة على ذلك لم يكن ضمن هذه الشروط أيّ بند لصالح القبائل المقاتلة. لا يمكن أن نرتاح للمصير الذي تهيّئه لهم فرنسا. كان لابد من العودة إلى المفاوضات.السي الدين استعمل كل جهوده لإقناع أخيه و عمه.

الشاعر بلخير الذي كان تأثيره عميقا نهض بأبيات جديدة بالذكر ضد كل تسوية مع " أولاد النصارى "، أعداء الله وسيدي الشيخ والوطن. ثم أنه لم تذكر أية ردّة فعل للإقتراحات المعروضة على السي الدين والتي كان يساندها.

أخبار السلام بين فرنسا أولاد سيدي الشيخ لم تتأخر في إحداث عدة ردود أفعال وأراء مختلفة. قدور ولد عدة الصحراوي قاد حملة مغرضة لكي يجهض أية مفاوضات. لقد دفع فيما بعد ثمن مناوراته غير القانونية والمخجلة: ألا وهو عزله وإيقافه وحبسه في واد العثمانية بين سطيف وقسنطينة.

زعماء فرع الأصاغر رأوا أنه من الفطنة أن يستبقوا الأحداث من أجل نهاية نافعة. لقد أسرعوا إلى السلطات العسكرية الفرنسية في معسكر وتقدم أحدهم وهو المعراج بن قدور أخوسليمان ليقدم مباشرة ولاءهم. هذا المسعى اصطدم بنهاية مزرية حيث لم يستقبلوا.

سليمان إبن قدور كان آنذاك كما سبق أن ذكرنا في القطر المغربي في تافيلالت نصب له البربر كمينا قتلوه فيه بعد أن أتعبهم لعدة سنوات بأعماله كقاطع طريق وسارق (قتل في أوت1883)

سي قدور بعد أن رفض المقترحات الفرنسية اتصل بدوي منيع لكي يعيد عداوته ضد فرنسا. كما اتصل لنفس الهدف بالشريف ابوشوشة الذي جعل الناس يتحدثون عنه في الجنوب القسنطيني. لم يكن يشك أن أخاه "المفاوض" و أتباعه كانوا يتآمرون ضده. ذلك الذي كان يعتبر تروملي شخصية لا معنى لها أرادأن تكون له أهمية بخيانة القضية التي دفع ثمنها بأرواحهم أبوه وإخوته السي سليمان والسي محمد والسي أحمد. كان يتذكر أنهم وعدوه في الجزائر في حالة عدم قبول الشروط من طرف السّي قدور والسي الأعلى أنهم يمكنهم التفاوض معه مباشرة.

في يوم 21 ماي 1873 بعث برسالة سرية إلى الحاكم العام يخبره فيها أن أخاه وعمه مازالوا متحفظين من اتخاذ قرار، لكنه هو الدين بن السي حمزة يقبل الشروط الفرنسية. في الحال أرسلوا له رخصة مرور لكي يتمكن هو وأتباعه من الرجوع إلى المقاطعة الطائعة (جريفييل)

أمام السي قدور والسي الاعلى قام بحملة " للأمان " والرجوع إلي الوطن تحت السيادة الفرنسية.هذه الحملة التي أراد بها "إقناع" الناس ب"سلام شريف" اتّسعت إلى جميع القبائل: حميان و أولاد زياد والأغواط الطائعين وغير الطائعين ،إنبث فيهم أعوان فرنسا لكي يفصلوهم عن السي قدوروالسي الاعلى و ذلك "لفائدتهم طبعا" .أنشط هؤلاء المثبطين للهمم كان القبطان محمد بن داود، كان يتحرك في ناحية مشرية وشمال جريفيل، وسليمان الأقرع كان يتحرك لدى أولاد زياد والطرافي؛ و أحمد بن علي عند أولاد عبد الكريم؛ والجيلالي بن عبد القادر في بريزينة. كما أن الطواهرية كانوا يتحركون لإقناع بعض فروع أولاد سيدي الشيخ الشراقة أنفسهم.

لقد مرّت السنوات ما بين 1874 و1877 دون حادث كبير، السي الدين بدأ يكسب نفوذا أكثر فأكثر على الجماهير الطائعة والغير طائعة على حساب عمّه السي الاعلى وأخيه السي قدور المخّيم في المنطقة المتاخمة لقورارة في مكان يسمي حاسي بوزيد.

السي الدين نقل "سمالته" غير بعيد من عين القصور على بعد 40 كلم من جريفيل .

تَشَتُّتُ قوات المتمرّدين بلغ سنة 1878 إلى حّد إنفصام أولاد سيدي الشيخ الشراقة: فأتباع السي الدين أخذوا طريق العودة إلى جريفيل وأتباع السي قدور بقوا مخيمين جوار حاسي بوزيد. قبيلة أولادسيدي الشيخ نفسُها انقسمت إلى أنصار الأمان تحت الإسم غير المعتبر"أولاد سيد الشيخ" والى أنصار حرب الإبادة، أعطوهم اسم "أولاد سيد الحاج بحوص".

السي قدور والسي الأعلى أرادا مواصلة القتال معتمدين على الشعانبة وقبائل من الساورة. لكن تحت ضغط فرنسا أمر سلطان المغرب مولاي الحسن الأول حاكمه في تافيلالت أن يمنعهم من الدخول إلى مقاطعته.يقول لامارتينيز (ص927):{ إنّ كِبَر السنّ والمرض وخيبة الأمل أثر-كل ذلك- في عزم الرجلين للتخلي عن القتال. لم يكن لديهما النشاط الكافي لتحمل الأتعاب وعناء وعوز المعارك المفتوحة}. حاولا إقناع السي الدّين على عدم ولائه لفرنسا لكن دون جدوى. لأن الرفاهية والوفرة التي يهديها له الأمان لا تقارن حسب رأيه مع الزهد وحياة الصخب والفاقة المتواصلة في الجهاد المقدّس.

مؤامراته على عمه وأخيه غاضت المعارضين الذين ل ايقهرون مثل الشاعر بلخير الذي ثار في قصيدة مشهورة حيث: بعد أن دعا على أعداء الإسلام وأعلن وفاءه لسيدي الشيخ ونهض ضدّ كل ولاء وطاعة للكفار. فقال في مقتطف من قصيدة :

كذا من شيخ في المنيعة

قوّال بلاكتب هامل   كاللّي ساري مع حمادة
و إذاكان الفقيه عاقل   ربّ عنده طريق واحدة
و إذا تختار في المسايل   مفتاح الدين في الشهادة
الصلاة و الزكا مفضل   كاللي لابس كسوة جديدة
جهاد النفس هو الطايل   وابليس عداوته شديدة
هاك أنا عندي جواب ساهل   إذا قالو الجهاد عادة
نغدى للشوف ما نجّمل   رباط الشوف كاعبادة
و النفس نهينها مسبّل   خير من المال و القيادة
الروم نفاضها تزعّل   وانا في سربة الزيادة
جوادي على الخيول صايل   الشوف الدرجة الرفيعة
إذاكان الجهاد في باب الفتان   تحضر الإيمان و السعادة
راني عند العلام الأول   نجاهد ما نريد نسعى
ماتعرف شي رفيق كان ولامكان   عودي واحد ايدي تباعه
باهلي وغريب في أوطاني   من همّ رفاقتي زفوتة
بخبرهم ما يخبروني   حيّين من القلوب موتى
ذا الناس يدوّروا الفاني   وأنا باغي الجهاد ياتى
نهدر كي قال لي لساني   ما هي شي افعايلي شماتة

قيطوني للضياف مبني   واعياد مربّطة سراتي

السلطان الكريم تاتي بالسلكان   ينطق بالحق و الشريعة

نجّمل كان دار كبّارة دخان   ما ترضى نرقد القليعة

الناس الحاضرة يقولوا دار فلان   الأقطاب يدوروا الشيعة[239]

من المؤكّد أن أنَفَتَهُ وسَخَطَهُ وتهكّمه ضد المتراجعين الإنهزاميين كان يقتسمه معه جميع الأبطال الذين لايقهرون. لكن البؤس والضجر والحملة النفسية التي يقودها عدد كبير من أعوان الدعاية لفائدة فرنسا والسي الدين قد أثرت لصالح هذا الأخير بنسبة 80 % من بين القبائل المقاتلة. لم يبق حول السي قدور والسي الاعلى في الأخير إلاّ عدد قليل من المجاهدين الخلّص الذين لايساوَمُون. يقول لامارتينيير (ص 926): "كان لهم بالأحرى 10 خيول عندما قدّموا ولاءهم".

السي قدور والسي الأعلى اللذان سلبت منهما "سمالتاهما" تقرّحا بعدم التمكن من مواصلة المعركة نظرا لإنقطاع الطرق وقلة الوسائل، بعد أن هجرتهم كل الفيالق والقبائل التي كانت تحت تصرّفهم وذهبت لتتحالف مع السي الدين، وحكمت على بلخير أنه غير عادل وأنه متعصّب. كما أنهم أخذوا يتعدون عنه شيئا فشيئا، كما أنهم قالوا عنه متهكمين: " إنه يتكلم ويغنّي ويدّعي الشجاعة الخيالية. إنّه يظهر بسالته أمام مستمعيه. أمّا اثناء المواجهات فإنه يختفي. لم يصب بجرح أبدا ولم نعلم عنه أبدا أنّه جرح أحدا من الأعداء. لم يكن أبدا مقاتلا بل كان مدّاحا فقط. سلاحه ليس البندقية والسيف لكن الأشعار والقوافي.إنّه يواصل تقاليد شعراء الجاهلية الذين ينعتهم القرآن بأنهم كذّابون"إشارة إلى سورة الشعراء: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء 224]

---

[239] الشرح:" الشاعر الذي لايستند إلى " النصوص " يضّل ، مثل المسافر الذي يهيم ليلا على هضبة عارية مملوءة بالحجارة .

" إذا كان البّحاثة في الإتجاه الصحيح، فإنه مضطر إلى معرفة أن الله سّطر للمؤمنين طريقا واحدا.

" و إذا كان لدينا الإختيار فإنه لا يمكن أن نغفل أن مفتاح الدين هو شهادة التّوحيد و العلو الإلهيين ...

" المعركة التي يجب مساندتها ضد الأشرار و خبثاء النفوس طويلة لأن عداوة الشيطان خطيرة .

" جوابي جاهز إذا تكلم الناس عن الجهاد أجيبهم:" إن هذه عادة قديمة لدي! "

" لا أعطي أية أهمية للحياة الدنيا. لقد ضحيت بروحي في سبيل الله بدل أن أبحث عن الثراء أو إسم " القيادة ".

" في الحرب أعمل رائدا متطوّعا(في المقدّمة). إن جزاء الرائد مماثل لجزاء من يعتكف على العبادة.

"عندما يندلع صوت مدافع "الرمي"، أجابهها وسط مجموعة الإصطدام .

" أحس بنفسي غريبا وسط أهلي، في هذا الزمان من عمري، وذلك راجع إلى الهموم التي ترهقني بسبب العار الذي يخيم على رفاقي في السلاح.

" لم يخبروني عن مؤامراتهم،فهم أحياء لكن قلوبهم ميّتة .

" هؤلاء الناس يطمعون في الأشياء الفانية، أما أنا فأفضل القيام بالحرب.

" آه ! كم أحببت أن أجد نفسي وسط سرية تحت قيادة زعيم معصوم، مرشح لإدخال الرعب إلى كل من يجترئ على تجاوز الحدود. أقول ما أفكر فيه فأفعالي ليست أفعال الأنذال .. وخيمتي منصوبة لإستقبال الضيوف، و خيولي المعقولة جاهزة للمعركة.

" .. سبّاقي (فرسي) يتحدّى الخيول مهما حملت من سلاح (في القتال)، إني لا أجد شجاعتي وسعادتي إلا تحت الراية.

" عندما تعرض علينا إغراءات الجهاد، فإني أعفّ عند المغنم. إن الذين حضروا المعركة يقولون فيما بعد: إن بلخير كان بطلا ! ".

" أجاهد دون أن أبحث عن غنى " (القصيدة كاملة في ديوان محمد بلخير)

حسب مخبرين آخرين خاصة المرحوم جدي من ناحية الأم ابوبكر بن قويدر قريب وصديق لبلخير (متوفي سنة 1920 في سن 80) [1].

"كان بلخير دائما محاربا أنيقا وكريما وجادّا في أشعاره .إذا لم يكن قد جرح أو جرح أثناء المواجهات ليس نتيجة لقلّة الشجاعة أو العدوانية لكن هكذا ! مكتوب ! مفارقة قدرية " سمعت سنة 1931 المرحوم أبي الذي أخذ أسيرا وكذلك أمي وأخي محمد يوم هزيمة "المنقوب" 1871 يذكر الحكاية التالية :

" لما انتشر الخبر أن أولاد سيدي الشيخ قبلوا عن طريق السي الدين التفاوض مع فرنسا لتوقيف العدوان،كنا في قلب الصحراء في حاسي بوزيد ،كان دوارنا يحتوي

على سمالة السي الأعلى وأخرى لأبي، اللتان لم تكونا تتجاوزان 20 خيمة. قلّة المؤونة والضجر دفع جميع المقاتلين إلى الإلتحاق بالسي الدين، بطل السلام والرجوع إلى جريفيل. من بين الخيام العشرين التي بقيت وفية كانت خيمة محمد بلخير. إنّه كان يعارض بصفة عنيفة كل إتفاق مع فرنسا. كان يعتبر نفسه وفيا للقضية الربانية (الجهاد) وأقرب لسيدي الشيخ من أحفاده أنفسهم، كان ينتابه شك وقلة الإحترام اتجاههم. لقد نقض العهد مع السي الدين. لقد أصبح صعب المزاج مع أبي (السي قدور) والسي الأعلى. في أول الظهيرة تقدم على فرسه أمام خيمتنا و طلب أن يتكلم مع أبي الذي إستقبله وتحرى ما يريده فقال له :

" سأذكّر العرب بواجبهم وسأعرض عليهم العار الذي يلحقهم بقبول أي سلام مع الرومي"

فأجابه أبي :"عار ! لو كانت لنا وسائل مواصلة الجهاد. إن الرسول (ص) لا ينكر على أيٍّ يهاجم من هو أقوى منه [1]. وكم بقي معنا من مقاتل ؟ يمكن أن نعدّهم عل أصابع اليد، هذا عند مقطوع اليد ! خيولنا أرهقت. وأسلحة العدو السريعة جعلتهم لايقهرون !

أجاب بلخير: " لو رجعنا إلى المعارك سنجد حتما الناس الذين يقفون معنا، سأذهب إلى المنيعة لكي أهز الشعانبة وأولاد زياد. لا بد أن نواصل المعركة والله يعيننا". لما فقد أبي الصبر سأله: " ليس لنا لا سلاح ولا خيول، وقد تخلى عنا العرب فارّين من الجوع. حتى الزرع لا نملكه. نحن نعيش من "الذانون" والتمر المدوّد (الّذي بداخله السوس). إن الحرب أمر جدّي ولكي نقوم بها لابد لنا من وسائل جدّية. السيف أصدق من الشعر[2]" .

---

[1]– أضيف أنه يربطني بالشاعر قرابة من ناحية الأم. كل الناس يعرفون ذلك في الصحراء. لكن ذلك ليس سببا كافيا لكي أزوّر الحقيقة اتّجاهه. لأنني حاولت عند رواية الأحداث أن أكون دائما موضوعيا والله شاهد على ما أقول.

[1] يشير إلي الحديث الشريف : " خاب من عاند غالبه "'. (لم أجد له أي أثر كحديث ، قد يقارب معنى الآية: " وخاب كل جبار عنيد " ، أي: هلك كل متكبر جائر حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له والله أعلم : المترجم).

[2] يشير إلي مطلع قصيدة الشاعر المشهور أبي تمام بمناسبة فتح عمورية (223 هـ ــ 838 م)، ضد البزنطيين حيث يقول:

لما رجع خائبا، غادر أبي وذهب إلى المنيعة حيث لم يجد لندائه إلى الجهاد أي صدى ،بينما كان السي قدور والسي الاعلى يضيّعان الوقت في الترقب بين المنيعة و قورارة؛ فإن مدينة جريفيل كانت تنتظم في دائرة إدارية ملحقة بعين الصفراء منصّبة كمنطقة عسكرية تحت سلطة جنرال. السي الدين أصبح آغا كما إتفق مع السلطات الفرنسية. جاءه العرب من كل جهة يقدّمون له الولاء. كل القبائل نزلت في مناطق تنقلاتها القديمة بعد أن حصلوا على "الأمان" "قيّاد" المستقبل كانوا قد عُيِّنُوا مُسْبَقًا افتراضيا. لم يكن منتظرا إلاّ دخول المتمرديّن(المقاومين) الحقيقيين إلى المقاطعة. السي قدور بن حمزة والسي الاعلى رفضا الإنصياع، واستمر هذا الغموض وهذا الرفض حتى سنة 1887 .

كُلف الجنرال توماسان Thomassin كمفتش عام للجيش، وكُلّف العقيد المترجم بالاسكا Palasca مهمة إقناعهما بقبول الأمر الواقع من أجل مصالحة مبرمة ومن أجل سلام شامل ودائم. لم يقدم أي ولاء جِدِّيٍ لفرنسا.

يمكننا القول إذن أن من1879 إلى 1887 خلال 8 سنوات تواصلت المناقشات المملّة. لا يمكننا تفصيلها معتبرين أن الأحداث البارزة وحدها هي التي ستتطرق إليها هنا. فالمحاولات المتخذة من طرف الجنرال توماسان والعقيد بالاسكا توصّلت بعد جهد جهيد إلى اتفاق مفاده: استعادة الخليفاليك القديم لصالح أولاد سيدي الشيخ الشراقة على شكل باشا غاليك(باستثناء قصور أربوات وبوسمغون والشلالة) كبنود تقريرية:

-1- احترام أملاك الحبوس .

-2- الترخيص للعبيد أن "يقبضوا الزيارة" في الصحراء و التل لفائدة سيدي الشيخ

-3- دفع في 10 سنوات كتعويض وتصليح وترميم الأملاك العقارية التي تركها السي حمزة في جريفيل ومعسكر ووهران والجزائر ومتليلي وورقلة وبريزينة والتي صادرتها السلطات الفرنسة، والأملاك التي كانت في حوزة السي قدور والسي الاعلى (نخيل ومواشي) التي ضبطت أثناء النزاع، ما يعادل ستين ألف فرنك (60000) للسي قدور وثلاثين ألف(30000) للسي الاعلى وثلاثين ألف للسي الدين.

-4- تعيين " القياد " من بين فرع الأكابر على رأس قبائل أغواط كسال(جريفيل) وقبائل الأبيض وآفلو وورقلة ومتليلي والمنيعة وبريزينة .

-5- تعيين السي الدين بصفة باشاغا على دائرة جريفيل مع اقتطاع 5 % من ضرائب البلدية لصالحه.

" السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب ".

-6- غرامة مضاعفة ثلاث مرات للضريبة السنوية ضد القبائل "المنشقّة"'.

هذا الإتفاق معروف باتفاق بريزنة (20 ماي 1883) كان يكرّس رجوع فرع الأكابر إلى مقاطعة جريفيل. السي الاعلى والسي قدور أخذتهما العزّة أن يقدما الولاء لفرنسا فلم يدخلا مع الداخلين إلى جريفيل وأحجما عن مغادرةحاسي بوزيد: مركز مخيّمهم لألاّ يضعا نفسيهما تحت تصرف السلطات الفرنسية، وعلى أن لا تكون الإتصالات مع هذه الأخيرة إلاّ بواسطة الرسائل.هذه الوضعية ظهرت مبهمة و غير صحيحة لدى قيادة دائرة جريفيل التي كتبت تقريرها السنوي عن الوضعية في الجنوب الوهراني:" السي قدور بوضعيته الحالية يوجد حيالنا في حالة استقلال يكاد يكون تامّا، و تأثيرنا عليه وعلى رجاله الذين يكوّنون حاشيته يكاد يكون منعدما – هذا ما يجب أن يقال [1].

"زعماء الأهالي" من ناحيتهم (تيارت ،فرندا، معسكر، سعدية) في خدمة الإستعمار كانوا مستفيدين سلطويا ومصلحيا من حالة الفتنة؛ فكانوا يعملون على ألاّ يقع أي سلام بين فرنسا وأولاد سيدي الشيخ[2].

بعض المنظّمين " للقوم" والمخبرين (الجواسيس) مثل آغا الأحرار قدور ولد عدّة الصحراوي انتهى بهم الأمر إلى أن أقلقوا القيادة الفرنسية التي اتخدت قرارا بإرجاع هؤلاء " المواطنين فوق العادة " إلى –أماكنهم اللائقة بهم– بمنشور ممضي من طرف الجنرال توماسين قائد دائرة وهران، نقتطف من هذا المنشور:

" ينبغي لجميع ممثلي السلطة بجميع درجاتهم الإدارية أن يفهموا قيمة الدافع الذي جعل الحكومة تلتزم بقبول(في الحقيقة بالبحث عن) رجوع أولاد سيدي الشيخ وقادتهم. هذا الدافع من أجل بعث الإرتياح لدى الإحتلال الحالي للجنوب الغربي الذي منذ عدة سنوات يفرض علينا تضحيات ثقيلة في الرجال والأموال فبإرجاع المنشقين عنّا إلى هذه المنطقة وارجاع العائلة التي لها النفوذ الديني بحيويتها الدائمة تشكل خطرا مستمرا لما يخرج الذين يمتلكونه عن سلطتنا .

" لكل قادة الأهالي الذين يريدون أن يستظلوا تحت السي الدين في الوضعية الجديدة، سنبذل جهودنا لافهامهم أن القيادة تسهر على مصلحة كل واحد ..."[1].

---

[1] – لامارتينيز ص 926.

[2] – صهرنا محمد كيوان في الجزائر العاصمة كان سنة 1908 كاتبا مترجما ببلدية فيالار المختلطة (تيسمسيلت) قال لي أنه أعلم في المنطقة أنه ذاع بين الناس أنه حتي القبض عليه كان قدور الصحراوي كثيرا ما ينظم هجومات موازية لأولاد سيدي الشيخ و يسمع صوت البارود في البوادي ثم يرجع مظهرا النصر في تيارت لكي يقول : كان هذا هجوما جديدا من عصابة السي قدور . لقد أرغمتهم علي الفرار ! " ليعطي فتات الإدارة بينما كان أولاد سيدي الشيخ في الصحراء .

[1] – لامارتينيز ص 917 .

اقتنع السي الدين بتعاطف الحاكم العام كومبون Cambon والجنرالات توماسين ودوليني ودي جونشاي Generaux Thomassin , Deligny , Du Janchay فأجهد نفسه لإعطائه تبريرا واستحقاقا. حاول جهده التأثير على أخيه و عمه ليقبلا مقابلة السلطات الفرنسية في جريفيل .هذان الأخيران واعيان بعجزهما وبعدوى الإنهزامية لدى القبائل وبالمنافسة التي تسارع إليها قادة الأهالي لخدمة فرنسا والحصول على الحظوة، كما أنهما تثبّطت هتّهما بهدم قبة سيدي الشيخ من طرف الجنرال نيقريي (1380 هـ1882) فانتهى بهما الأمر إلى التسليم. السي قدور بن حمزة اتصّل مباشرة في بريزينة بالجنرال توماسين والعقيد بالاسكا (أفريل 1884) ثم في جريفيل مع الجنرال تيتريي Tétrié (ماي 1889) والحاكم العام كومبون بالمنيعة (مارس 1892).

قبل وفاته لم يفت السلطات الفرنسية أن تعتبر من مشاعره الحقيقية في رسالة اعترض طريقها الجنرال قراند Grand يصرح فيها السي قدور لأحد مراسليه أنه لن يدنس نفسه أبدا بالاتصال بالكفرة [2].

توفي السي قدور في حاسي بوزيد سنة .1897 نقل جثمانه إلى الأبيض و دفن في قبة سيدي الشيخ. أما السي الاعلى فإنه لم يتقدم إلى القيادة الفرنسية إلاّ في جويلية 1895. توفي بعدها بقليل في يناير 1896 ودفن في قبة سيدي الحاج الدين.

***

إن ثورة فرع الأكابر لأولاد سيدي الشيخ كقوة عسكرية مضادة لفرنسا قد توقفت عمليا سنة 1880. لكن هناك قوات أخرى حركها فرع آخر من سيد الشيخ أخذت المشعل البديل. نريد أن نتكلم عن ثورة السي بوعمامة .

قبل هذه المرحلة الثانية من مقاومة أولاد سيد الشيخ في الغزو الفرنسي في الجنوب الوهراني الجزائري، يليق بنا لفائدة التاريخ أن نظهر بعض النقاط المشاعة من طرف بعض المزوّرين الذين دفعهم الحقد والحسد بدل أن يبتهجوا بتجميد عائلة السي حمزة كعمود وروح المقاومة في الجنوب الجزائري الوهراني ضد الإحتلال الفرنسي خلال حوالي 20 سنة، ذهبوا يستنكرون عليهم كونهم وضعوا السلاح.

لقد أظهرنا أحداث وطوارئ المقاومة المجيدة، مشيرين إلى بعض نماذجها الذين استشهدوا على فرسهم وسلاحهم في اليد تحت راية الإسلام والوطن. كما ذكرنا الهزائم والمصائب التي تكبدتها من جراء رجال باعوا أنفسهم للإستعمار و لم يتوقفوا طيلة هذه المقاومة من مساندته. وليس من

[2] – نفس المرجع ص 925 .

التناقض في شيء، أن نجد بعض الذين باعوا أنفسهم و تفنّنوا في ازدواجية اللعب [1] سمحوا لأنفسهم في أيامنا هذه ليقدحوا في الدور التاريخي لعائلة لم تضع السلاح إلاّ في آخر رمق، ولم تتوقّف عن القتال إلا بمرارة افتقاد المقاتلين من جرّاء الإرتداد الذي عمّ العرب.

أن تصير هذه العائلة في خدمة فرنسا بعد معاركها وبعد تقطّع كل الأسباب بها، وأن يعيّن السي الدين وعمومته " قيّاد و آغاوات وباشاوات " هذا أمر يقيني .

لكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا من استثناء وقد أعلنت كل الجزائر نفسها فرنسية، عندما يتنافس ممثلوها المنتخبون " شرف " خدمة فرنسا حتى الموت ... بالنسبة إليها عندما يعلن أحد ممثلي النخبة الجزائرية (لا داعي لذكر اسمه) في الجرائد قبل ثورة نوفمبر 1954، قائلا : " فرنسا هي أنا ! "، و عندما يعلن رئيس الجمعية العامة الجزائرية سابقا (؟) يتجرّأ أمام مؤتمر رؤساء البلديات الفرنسية سنة 1952 أنه ليس له إلا تأسّف واحد هو أنه: لم يولد بروطونيا أو بورقينيونيا (breton ou bourguignon) (بدل أن يولد جزائريا) ".

يقيني أيضا أن أثناء معركة الجزائر من أجل الإستقلال فإنّ " قيّاد " أولاد سيدي الشيخ في جريفيل والأبيض تصرّفوا كخدّام حقيقيين للإدارة الفرنسية.

هكذا كانت الوقائع، وعلى كل حال فإن التاريخ علم بطيء ويقيني وحكم نزيه يعطي للأبطال كما يعطي للخونة الحكم اللائق بهم. يجب أن نرجو من الجيل الجديد لأولاد سيدي الشيخ أن يقدم لجزائرَ ناهضةٍ وحرّةٍ ،المؤازرةَ بقلبه و فكره بعداسترسال هذه الأحداث التي تهمّ فرع الأكابر حان الوقت بكل إخلاص لإعادة أخذ هذا العرض مع نزع الظل التاريخي عن الفروع الأخرى لسلالة سيدي الشيخ.

---

[1] – أعرف الكثير من المعاندين و المتعــنّتين ضد أولاد سيدي الشيخ ، كانوا طيلة سنوات الثورة الجزائرية يعملون مخبرين نشيطين(جواسيس : حركي . بياع) لدى شرطة جريفيل يريدون اليوم بالقدح فيهم حتى يُنْسُوا الناس أعمالهم الجبانة .

سي قدور بن حمنزة

السي قدور بن حمزة آخر قائد مجاهدي أولاد السي حمزة. رفض السلام مع فرنسا. التجأ مع بعض مجموعاته في بوزيد. توفي سنة 1897م.

السجن الذي كان محمد بلخير نزيله

6 – سيدي بوعمامة بن العربي

سيدي بوعمامة بن العربي ينحدر من سيدي الشيخ عن طريق سيدي التاج.ولد حوالي عام 1840 وتوفي عام 1908 .

تفرّغ من صغره لدراسة العلوم الدينية وإلى مبادئ الصوفية التي تركت فيه أثرا عميقا. فبعد أسفار عديدة في الجنوب الوهراني والجنوب المغربي، استقر في مقرار، قرية تبعد عن العين صفراء بِ 54 كلم، أنشأ زاوية هناك سنة 1875. وكانت له منذ البداية علاقات كثيرة ليس فقط مع خدام طريقة سيدي الشيخ بالمنطقة لكن أيضا مع مراكز أخرى مثل الشعانبة ومحبّي توات وقورارة حتى تيديكلت و برابر زناتة أو صنهاجة في تافيلالت. إذا كان قد وجد سهولة لدى القبائل العربية للحدود الجزائرية المغربية (دوي منيع، بني قيل، أولاد جرير، مهاية، الأنقاد)، فإن القبائل العربية في ناحية البيّض(جريفيل سابقا) وخاصة أولاد زياد وأغواط كسال لم يولوا أية أهمّية لمشاريعه.

مع ذلك سرعان ما حصل على شهرة متنامية في الجنوب الجزائري المغربي ليس فقط لأن هذه المناطق تشجع دائما الحركات الدينية الكبيرة لكن وخاصة بسبب أصالة تعليمه.

من الناحية المذهبية أراد سي بوعمامة تأسيس طريقة متفرّعة عن الشيخية. لكنه كان أقل إقصائية حيث رفض التصوّر الروحي التقليدي الذي ينص على انتقال البركة عن طريق الوراثة.
كان السي بوعمامة يدرّس: أن الوليّ مهما كانت درجته الصوفية لا يمكنه أن يحتفظ ببركة انتقالية إلى أولاده بعد موته. كان مناهضا للنظرية القائلة بانتقال الحظوة الإلهية التي يمكن أن يستحقها الولي عند الله ينقلها لأولاده، مثل التركة وكحق لأكبر الأولاد. والإستحقاق مثل البركة بالنسبة إليه مسألة شخصية مرتبطة بالإيمان والتقوى وأعمال الخير من الكل وإلى كل واحد و ليست هبة دائمة خاصة بِنِحْلَةٍ معينة أو عائلة معينة. ليس لأحد الحق على الآخر في الحظوة الإلهية. أولاد سيدي الشيخ الذين يرون أن استحقاقات سيدي الشيخ تشكل بالنسبة لأحفاده ميراثا لا يفنى كانوا إسلاميا مخطئين إطلاقا.

خطأ مطلق حسبما ينص عليه الدين الإسلامي نفسه إذا فُهِم جيّدا :" لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسيناأو أخطأنا "(البقرة286)
"ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد، إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم و لا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار" (آل عمران 9 و10).

كان يحارب بصفة شرعية عادلة فكرة سخيفة منتشرة في أوساط الطرقية، مفادها أن من ينحدر من سلالة وليّ أو من يعطي له هدايا عريضة فإن ذلك العمل لم يكن يستفيد منه الحفيد والمعطي

بدعوات الخير فحسب، ولكن تضمن له مكانا يختاره في الجنة. كما أنه كان على حق بسم الإسلام أن يحارب هذه الضلالة المناقضة تماما للقرآن ولتعاليم سيدي الشيخ.

لا ملائكة ولا أنبياء ولا علماء ولا صوفيون يمكنهم ادّعاء أنّ لهم حقًّا في الغفران الإلهي لمن استوجبت عليه اللعنة الخالدة لأن الله واحد وعظيم وفعّال لما يريد. في النسق الكوني للخلق في مجموعه الكل مسبوق له للأزل. و كل واحد من الناس يمكنه أن يرجو أن يهديه الله إلى طريق الخير وإلى الحقيقة الباطنية، ليس بفضل أحقية الميلاد (السلالة) وإنّما بالصلاة وعمل الخير. كما كان يرى أنّ الله اختاره ليستخلف سيدي الشيخ محور الصوفية ويواصل عمله بالإسلام وللإسلام وفق الطريق الذي رسمه .

فكرة أخرى متأصّلة في تلك الفترة: مفادها إدانة جميع الاختلافات التي تفرق بين الفرق الدينية. فكل شيعة وجميع النحل وكل الطرق الصوفية تعلن مرجعيتها إلي نفس النصوص (القرآن) والسنة والفرائض، ولا تختلف إلاّ في المتشابه في العبادة. فمن أين جاءت هذه التعصبات؟ من العقيدة الإسلامية ؟ قطعا لا !

لقد جاء ذلك من إستغلال الإيمان فقط، ومن أوّليات الدين الملقّنة من طرف هذا أو ذاك و من الإستئجار بالطريق الحق. إذا كان المرء ينتمي إلى طريقة فلماذا ينظر إلى من ينتمي إلى طريقة أخرى صوفية على أنه ضال بل عدوّ؟ بدل أن ينظر إليه كأخ له؟ وتلك هي الحقيقة. الفضائل الدينية لابد أن تعمل على توحيد المسلمين لا أن تخلق أسباب فرقتهم. لابد من ترك الإختيار للمسلم أن ينتمي لهذه الطريقة أو تلك دون أن يُعْتَبَر منحرفا و مشارا إليه من طرف المنتمين إلى طريقة أخرى.

لهذه الأسباب غيّر ابوعمامة من تطبيقات طريقة سيدي الشيخ بتوسيعها. مع إحترام أصولها جعلها أكثر تفتّحا، وأقلّ إقصائية، وأكثر مؤاخاة مع الطرق الأخرى. الظروف التاريخية جعلت هذا التفتح ضروريا و استعجاليًا. ألم يكن شمال إفريقيا ومنه الجزائر مَغْزُوًا من طرف المسيحيين ؟ يمكن الإنتماء إلى طريقة أو إلى طريقات متعددة. لكن إلى الغزاة لا! جميع الطريقات مواجهةً مع الغزويجب أن تتكاتف. رمز شركتهم هو رأس الشّركة (كما يقال)[1]. كانت تستعمل في سبحة طريقة سيدي الشيخ "شِرْكَة" كرمز مميّز هو عبارة عن قطعة جلد شرك و قطعة مرجان وردي أو أحمر إشارة إلى إنتمائها لطريقة سيدي الشيخ التي أدخلت عليها إصلاحات وتجديد من طرف بوعمامة .

---

[1] – عبارة يستعملها الطرقيون (كما يستعملون عدّة عبارات أخرى كرموز أو حكم متداولة بينهم..) و معناها يدعو الى الوحدة :أي ان شَرِكَتَنَا يعني وحدتنا ، تكمن في رأس الشِّرْكَةِ أي في قطعة الشِرْكِ (جلد الحيوان) الموجودة في السبحة التي نستعملها للذكر في طريقتنا ... و الله أعلم.

لم يكن هذا العمل الأول من نوعه لأن الحقد المسيحي كان واحدا من الأسباب الداعية إلى تكوين طريقة الشيخ السنوسي (المتوفي سنة 1859). هاتان الطريقتا تنصحان اتباع الإسلام بنفس الطريقة الصلبة بما تحتويه من دفاع ذاتي ضدّ الإستعمار الأوربي المدعوم بصفة مباشرة أو غير مباشرة من طرف المسيحية الكاتوليكية منها و بروتستانتية معا .

كما يمكن القول أن النظام الصوفي الذي أنشأه و سمّاه "الطريقة الإيمانية" لم يكن إقصائيا لكنه مفتوح لجميع المسلمين دون أي تحفّظ أو تمييز لكل المدافعين عن العقيدة والإسلام المهَدَّد .

هذا التجديد الشعائري (الطقوسي)، في عدد التكرارات للعبارات التي تحتوي على الذكر عند سيدي الشيخ – وقد سبق أن أظهرنا أهمّ الأذكار –. سيدي بوعمامة أضاف :

أ. تكرار التضرع الوقائي " يالطيف ! " ألف مرّة قبل صلاة الفجر ونفسها قبل المغرب .

ب. تكرار ما أمكن لعبارة غريبة : لاإله إلاّ الله ، بوعمامة ضيف الله .

لما كان يقتسم نفس المبادئ الدينية مع السادة السونسية، قرر الإتصال بالحاج المهدي ولد باجودا مقّدم أخوية عين صالح. كان يترجىّ إمكانية الإعتماد عليه في مشاريعه لإحياء الجهاد. انتشرت طريقته بسرعة مشكّلا كتلة معتبرة من الخدّام الصوفية، في نفس الوقت الذي كان ممثلو فرع الأكابر لأولاد سيدي الشيخ مرهقين مثبَّطِين منقسمين ومُرْغَمِين علوضع السلاح عند استنفاذ جميع الأسباب. كما أن ممثّلي هذا الفرع السي الأعلى والسي قدور والسي الدين لم يفهموا شيئا من جهاده. كان السي قدور يقول:"لماذا لم يساندنا في الوقت الذي كنّا في أمسّ الحاجة للمساندة؟ هل يريد أن يحل محلنا لفائدة عائلته ويكسب شرف إعادة النهوض الثوري ؟ لماذا لم ير وجوب التشاورمعنا قصد عمل مشترك قبل أن يعلن عداءه ضدّ فرنسا؟ ألا يريد أن يجعل من مقاومة أولاد سيدي الشيخ للإحتلال الفرنسي مقاومة شخصية وليس مقاومة جماعية للأخوية ؟ إن قوّتنا كانت دائما تعتمد على أغواط كسال وأولاد زياد. في حين أن هاتين القبيلتين كانتا معارضتين لدخول بوعمامة في الساحة. قيل أن الشعانبة يساندونه لكن الشعانبة مشهورون بكونهم مقاتلين متقلّبين. حسب المظاهر فإن أبو عمامة مدعوم خاصة من طرف الشلح الذين طالما أرهقونا عندما كنا نلتجئ إليهم ! " .

لقد تقرح السي بوعمامة عندما أعلم بموقف أبناء عمومته من فرع الأكابر ومن القبائل المتصلة بها. لم يتوقف في مسعاه. الباب الذي خصصه له كتّاب التاريخ مثل ج . دوفيري H .Deveyrier والمترجم العسكري مارتان Martin، كان مملوءًا بالأحكام الموجزة و[1]المتناقضات.

---

[1] – لامارتينيز .

أ.جوليان المعروف بأنه كثير الحذر والتبصّر عادة لم يكن قريبا من الحقيقة في الفقرة الخاطفة التي تكلم فيها عن حملته. كما أخطأ في تحليل أسبابها. ليس الدخول الفرنسي إلى تونس ولا الحرب الروسية التركية–وهذا أبعد – هما اللذان أحدثا عنده وعند أتباعه حماسا دينيا، ولكن ببساطة خبر المفاوضات المزمعة بين أولاد سيدي الشيخ وفرنسا. مفاوضات استنكرها الشعانبة وقبائل الجنوب المغربي. سنحت له الفرصة لتفجير حرب دينية. انتهزها ونصب نفسه مدافعا عن العقيدة والإسلام، ولفت إليه اهتمام كل من كان معارضا لهذه المفاوضات واتخذ صورة "صاحب الساعة " ؟

ممثلو فرع الأكابر كانوا يعرفون بالتجربة تقلّب القبائل المقاتلة، خاصة بعد الهزائم التي تكبدوها. كانوا يخشون كثيرا من أن تشن السلطات العسكرية ضده قمعا عنيفا أعمى. كما أرادوا أن يحذروه من ثورة لم يحضّر لها جيّدا .

كثيرا من الرواة المحلّيين الذين عرفوا السي بوعمامة وقاتلوا في جنبه أكدوا لي أن خبر دخوله في حرب ضد فرنسا كان مفاجأة سيّئة لدى أولاد سيدي الشيخ من الفَرْعَيْنِ. واحد من رواته أخبرني أنه قبل الدخول في الحرب ذهب السي بوعمامة إلى أربوات وبعث يبحث عن الخادم الرئيسي لزاوية سيدي الشيخ كي يعلمه عن المساندة التي يمكن للعبيد أن يقدموها له. كان في الجواب مراوغة وتهرّب .

رَاوٍ آخر مسنّ، من قبيلة الشعانبة برازقة، الوقور الشيخ ابن ذهيبة حكى في سنة 1938 في الأبيض سيدي الشيخ مايلي :

"كنت ابن العشرين سنة عندما أعلن السي بوعمامة الجهاد. فحملت مثل جميع الشعانبة السلاح للقتال في صفوفه. بدأ السير منطلقين من بني ونيف نحو الشمال. توقفنا لنصلي العصر تحت إمامة السي بوعمامة. كان جيشنا معتبرا، متكوّنا في أغلبيته من برابر تافيلالت. بعدالصلاة كنا نتهيأ لنصب مخيّمنا حين جاء "شوّافونا" مسرعين ليعلمونا أن "قوما" تقترب متّجهة نحونا. أسرعنا إلى أسلحتنا وأوفدنا رجلا نحو "القوم" المعلنة. رجع بعد قليل معلنا: "السي قدور !" نظر البرابر إلى بعضهم البعض، دون أن يعرفوا أي موقف يتّخذونه.

نهض السي بوعمامة في الحال وجرى نحو السي قدور. لما وصل على مقربة من فرسه، نزع حذاءه احتراما له ووجه له التحية (السلام) و قاده إلى خيمته.

استُقْبِل حُرَّاسُه من طرف اتباع السي بوعمامة. بعد وصوله بقليل بدأ السي قدور يسأل السي بوعمامة:"من قال لك أن تباشر الجهاد من دوننا ؟ إنك لست مؤهّلا لمثل هذا العمل! راية سيدي الشيخ نحن المدافعون عنها لا أنت! وهؤلاء البربر الذين تجرّهم معك دون تجربة: هل هم

مجاهدون حقا ؟ أليسوا مجرد قطاع طرق! الحرب أمر جادّ. لماذا انتظرت حتى استنفذنا قوانا لكي تباشرها ؟ ليس هذا من الحذر من طرفك ! تهوّر حقا ! إنك تعلم جيّدا أن جميع كفار العرب كوّنوا (القوم) جيوشا لمحاربتنا ! كل التلّ خاننا ! وسلطان المغرب خان الإسلام عندما خاننا ! ألم يأمر الخاضعين له بمقاتلتنا ؟ وأنت تخون الشهادة لأن جميع المؤمنين يقولون : " لاإله إلاّ الله، محمد رسول الله " و أنت تجرّأت لقول : " لاإله إلاّ الله، و بو عمامة وليّ الله ! " هل أصبحت رسولا جديدا ؟ هذا ضلال! ".

ثم عادت المناقشة بعد العَشاء وصلاة العِشاء، واستمرت إلى ساعة متأخرة من الليل. في الغد من ذلك السي قدور غادر مخيّمنا ورجع إلى "سمالته" في حاسي بوزيد.

كانت الشمس قد إرتفعت فوق الأفق لمّا نادى السي بوعمامة مقاتليه عن طريق "البرّاج". سارعوا إلى الربوة التي كان قد أخذ عليها مكانه، وبعد صمت طويل، أعلن لهم:" أولاد سيدي الشيخ الشراقة رفضوا المشاركة في جهادنا. يعتبروننا غير منضبطين بل ضالّين. إذا واصلنا مسيرتنا إلى التل سينتهي بنا الأمر إلى أن ندخل في حرب محتّمة معهم. بينما أنا لا أريد أن أقوم بالحرب ضد المسلمين، وخاصة مع أبناء عمومتي، سنتوقّف عن مشروعنا هذا نصبر في انتظار الوقت الملائم "إن الله مع الصابرين" . استُقبِل هذا الإعلان بصمت مريب. بعد لحظة، قام رجل أسمر اللون ذو قامة طويلة لا أعرفأكان بربريا أم شعنبيا و توجه نحو الحاضرين وقال:"ياويلي ياويلي، إن هذا الرجل يريد أن ينتهي بنا إلى أن نضطرّ إلى إطالة شعرنا لنصنع منه الظفائر مثل النساء واليهود! لقد بدأنا الجهاد المقدّس، يجب علينا أن نواصله! " .فوافقه المقاتلون هاتفين:" الله أكبر !" السي بوعمامة نهض و رجع إلى خيمته مغتاظا " .

هذه الشهادة التي أكدها لنا رواة آخرون تُظْهِر لنا المنافسة التي أحدثتها هذه الثورة و المشكلة التي وجد السي بوعمامة نفسه فيها أيضا وطغت حقيقةً على الأحداث .

ورغم تردداته ورغم نداءاته للحذر إن أتباعه واصلوا حملتهم وانتهى به الأمر إلى أن يسير على رأسهم. لقد قتّلوا الإسبان الذين كانوا موجودين في الخيثر و خلف الله، و طحنوا فوج العقيد إينوسانتي يوم 19 ماي 1881 واستولوا على فرندة.

رد فعل فرنسا لم يكن بطيئا. ست فرق أرسلت لقمع التمرّد. فرق السي بوعمامة أطردت نحو الجنوب المغربي. فرقة يقودها نيقريي Negrier تقّدمت حتى الأبيض سيدي الشيخ حيث هدّمت قبّة سيدي الشيخ وجميع المحاريب (يوم 15أوت 1881).

رفات سيدي الشيخ أخرجت من القبر وحملت إلى جريفيل. لم ترجع إلى أولاد سيدي الشيخ الاّ في سنة 1883 حيث وضعت في قبّة جديدة.

هذا العمل المثير للدهشة احتدّ أكثر بإتلاف نخيل الأبيض الجميل و كان نادرا في تاريخ الجيش الفرنسي أن يقوم بمثل هذه الأعمال التخريبية. واحة بريزينة كادت أن تتلقى نفس المصير. إلاّ أن أوامر جاءت في وقتها تدعوا هذا المخرّب الممقوت لوضع حدّ لتدميره البشع.

إنّ هدم "القبة" أذهل جميع أخوية أولاد سيدي الشيخ والمنضمين إليها بل حتى الذين بقوا في ولاء فرنسا. لا نريد أن نؤكّد لهذا الخبر الذي أحدث حقدا عنيفا: فقد صُدِمَ الناسُ بهذا الهدم أكثر من إتلاف الواحة التي حاولوا مرارا فيما بعد إعادة إنشائها لكن بدون جدوى. جميع الجزائراضطربت لهدم ضريح سيدي الشيخ الممجّد مند قرون وكذا تحطيم القبب الأخرى وجميع أماكن العبادة. إن ذلك الممقوت عندما هاجم قرية بدون دفاع وهدم صروحا دينية قصد به الثأر للدمار الذي كبّده أبوعمامة في "تازينة" للمجموعات الفرنسية المقادة من طرف العقيد إنوسانتي. إن سخط المسلمين كان إجماعيا. كثيرا من الضباط الفرنسيين استنكروا مثل هذا التدنيس. الجرائد وخاصة منها لاديبش ألجيريان La depeche Algerienne تدخلت، والموقف الأوربي انقسم في الجزائر كما في فرنسا. كان الناس منهم مع ومنهم ضد نقريبي Negrier. المعمرون شنوا حملة توقيعية لكي يشتروا له سيفا من فضّة. لم يجرؤ على قبوله لما أهدي إليه.

مدّاح سيدي الشيخ محمد بلخير كان ألمه عميقا لهذا الهدم. عبّر عن ألمه في قصيدة لام فيها السي بوعمامة وأتباعه الذين اعتبرهم مسؤولين بصفة غير مباشرة عن هذا التدنيس، ووجّه نداء ارتجاجي لجميع أولاد سيدي الشيخ لجميع المؤمنين حتى يثأروا لهذه الإهانة، فقال :

الشيخ تبنى و الاّ مازال مهدوم ؟

-1- يافارس حشمتك عد لخبار واش حال القرمامي رايس القوم
-2- كانّك من عند السطان بشّار الشيخ تبنى والاّ مازال مهدوم
-3- سبابها هذا الناس اللي جات هجّار[1] بلا نوايا والوعد قضاه محتوم
-4- نُوبَتْ انْ داروا بالقبة الكفّار ودارت العسكر فرق نتاع جحموم
-5- كسّروا قنطاس الهمّة ولوقار ولابقى واحد في السادات محروم
-6- من طْيَاح القبة ما بقى عار ولابقى واحد عند السلطان مكعوم
-7- أولاد رحل البيضاء سبعين دوار ماعطاوا لبوهم ساعة ولا يوم
-8- من بعد هذه لياه حياة لعمار و الجهاد فراجة و سرور و نعوم
-9- و العرب ما قعدت ش نتاع نقار من عرب وحمير وفرسان مخزوم
-10- البلاد تنادي وبقات قِفَار تقول صابي من والديه مفطوم

[1] – يعني الشيخ بوعمامة وأتباعه .

-11- كان شي من الأبطال أولاد بكار   لا تخلوا عرش السلطان مقسوم

-12- في القبايل ما ليكم حدّ نعّار   لا تديروا راي العديان مذموم

-13- لوكان صبت مية(100)نجيب عليه مشوار   ما كان شي العسكر غيرالقوم في القوم

-14- و الرفاقة عندي زياخ شطار   خلط بالحربة والسيف مسموم

-15- بوعمامة [2] يعطي تسبيح لذكار   وبوعمامة سرّه في الناس مفهوم

-16- أنت مرافقني في الصحراء وقفار   وشادّ علامك بيدي به محروم

-17- أنت اللي بشناك و برضاك قصّار   أنت اللي فوزت كلامي على القوم

-18- ما نبيعك لو بألف قنطار   هاواه تغويني فيك دراهم السوم

-19- راه ربّ شاهد تخلف الثار   وعارف القلب اللي من خوه مهموم

Mausolée funéraire (Couba) de Sidi Cheikh. Démoli le 15 août 1881 par le général Négrier pour venger la défaite du colonel Inocenti. Il fut reconstruit par un architecte marocain de Figuig, en 1887.

قبة سيدي الشيخ. هدمها Général Négrier نقريي يوم 15 أوت 1881م ليأخذ الثأر من الهزيمة التي ألحقها الشيخ بوعمامة بالعقيد إنوسانتي. أعيد بناء القبة من طرف مهندس مغربي من فيقيق سنة 1887م.

[2] – يعني سيدي الشيخ .

وللعودة إلى أبوعمامة نضيف أنه بعد أن إستولى على فرندة كان يرتب نفسه ليهجم على تيارت حيث قدور ولد عدّة الصحراوي كان يفرض قانونه. هذا الأخير لم يجد الوقت إلاّ للفرار ."سعيدة" أصبحت مهددة أيضا فأفرغت في بضعة أيام من سكانها الأوربيين المحمومين بعدوى الهروب .

الهلع ملك جميع المعمرين في القرى المجاورة فهربوا في اتجاه مدينة معسكر أو بلعبّاس كما فعل سكان سعيدة و تريزيل (سوقر) .

كان يتهيّأ لمواصلة حركته الإنتصارية حين تلقّى خبرا محزنا أعاق مشاريعه و كسر حماسة مجموعاته: "رقاس" (أحد العيون) مقبل من واد قير أنذره أن سلطان المغرب أمر قبائل الجنوب المغربي أن يكوّنوا بسرعة "قوم" و يهجموا على بوعمامة، و أن الوحدات القبلية الأولى المرسولة على آثاره قد أخذت اتجاه العين الصفراء.

هذا الخبر أغرق أباعمامة و مقاتليه في الحزن و الخلط .

موقف سلطان المغرب مولاي الحسن الأول (1873-1894) كان مملى حسب الظروف آنذاك: العداء الفرنسي الإنجليزي وأطماع الإسبان التي لم تتوقف عن تهديد استقلال المغرب ووحدة أراضيه رغم ما توصّل إليه الإتفاق الدولي في مادريد(سنة1880). التنافس بين السلطة المدنية (المخزن) و السلطة الدينية (القضاة والعلماء والطرق الصوفية) ساعد على تلغيم سيطرة السلطان الذي بذل جهوده ليلعب دور السيادة. تحذيرات فرنسا كانت تزداد عسكريا. الدخول العابر للجنرال ويمفان Wimphen على رأس فيلق من ثلاثة آلاف رجل حتى أبواب تافيلالت سنة 1870. كل ذلك استدعاه للتفكير. فلم يستطع حتى أن يقاوم. لم يزد على محاولة إعادة تنظيم جيشه، ووضع حدّا للفوضى التي أنشأتها القبائل المناهضة للضرائب المفروضة، واسترجاع سلطة المخزن إلى حدوده المعتادة، والحد قدر المستطاع من نتائج الإتفاق الدولي المهين(سنة 1880) الذي يعترف للأجانب الحق في شراء الممتلكات بالمغرب.

لم يستطع أن ينصّب ممثليه في وجدة (1876) وفيقيق (1883) إلاّ بعد تنازلات عريضة قدّمها لفرنسا التي كانت ترفض منذ1845 م أن تضع الحدود الرسمية بين الجزائر (المستعمرة الفرنسية) و المغرب الشريفي. إضافة إلى ذلك كان يريد أن يجعل من القبائل العربية البربرية حدودا جزائرية . مغربية كمنحدر يصدّ به التوسّع الفرنسي .

وكان يبذل جهوده كلها ليتجنّب إعطاء ذريعة لإحياء الإتّفاق المبرم في باريس في 1880، الذي يضمن بموجبه لفرنسا مساعدته "المتهافتة " "المتسرّعة" لاستتباب النظام، ومعارضته لكل مساعدة يمكنها أن تقدّم في الجنوب المغربي لأولاد سيدي الشيخ المتمرّدين .

على ضوء هذه الأحداث يمكننا أن نفهم هذه " الطعنة من الخلف " للسي بوعمامة الذي فهم في الحال خطورة الموقف. وجد نفسه هو وأتباعه مأخوذا بين نارين: الجيش الفرنسي شرقا وفي الجنوب الشرقي وفي الشمال، والفيالق المغربية في الجنوب الغربي. كان لابد من معالجة الوضع غير المنتظر. إن صحّ القول : أنه غير منتظر. لأن السي قدور قد حذّره من احتمال وقوع مثل هذا الأمر. كما أنه رأى أن من الأصلح له الخروج من المأزق، الرجوع إلى المغرب لأنّ هناك قبائل عديدة مدرّبة على الحرب (مهاية، الأنقاد، بني قيل، إلخ ...) تؤيّده. مؤيّدة له وعاصية عمليا للسلطان.

وضع حدّا إذن لحملته وذهب ليستقر في ناحية قورارة في واحة دلدول. قضى هناك بضع سنوات قبل أن يلتجئ في الجنوب الغربي المغربي، خاصة في برقنت ثم العيون و العريشة. ولكي يأخذ ثأره من السلطان استعمل نفوذه الديني الوروث ليتحصّن به ضد سلطته. بقي حتى موته مغلوبا على أمره (مقتنعا)، ومتقرّحا من الإحتلال الفرنسي لتونس ولأقصي جنوب الجزائر(عين صالح: يناير 1900)، ومن الدخول الفرنسي ودخول الإسبان في المغرب.

بقي حتى موته في سيدي ملّوك حيث دفن (1908) مؤمنا تقيا رؤوفا بالمسلمين و شديدا اتجاه المسيحيين.وماتت معه كل مقاومةأولاد سيدي الشيخ ضد الإستعمار الفرنسي.

إن موته ألهمت قريحة أحد مريديه بقصيدة رثاء وهو المقدّم المهناني بن الاخضر من متليلي، مؤرّخة في 27 رمضان 1326 هـ (20 أكتوبر1908م)

وهي نفس السنة التي توفي فيها. فهي تعبر عن التعلق العميق لصاحبها بشيخه الروحي وعن الإيمان العميق، لكن الوزن والألفاظ ليست في المستوى المطلوب:

عزوني ياناس

هذه المنظومة على الشيخ سيدي ابي عمامة، للمقدّم المهناني من أولاد سيدي الحاج عبد الحاكم من أولاد سيدي الشيخ قالها بعشرين من رمضان 1326هـ(1909م)

-1- عزوني ياناس في شيخ العربان عزّي وعنايتي ومفتاح أورادي

-2- تبكي عيني على بوعمامة طول ازمان تبكي عيني عن امدكش ميعاد

-3- تبكي عيني عليه ما طال الزمان طول الحياة و الدموع على خدي

-4- تبكي عيني عليه مفتاح البيان نور الرحمة اللي على الخير يهادي

-5- تبكي الأرض والسماء والحيوان وتجاوبهم جبال بانواح تصادي

-6- تبكي الوحوش والطير مع البيان (غير واضح في المخطوط .)

-7- تبكي الرمال والسواحل والصحوان بلسان فصيح تذكر الحي البادي

-8- في فقدك ياالشيخ دخلها خذلان يبس نباتها اشواين واقعادي

-9- ضي الأبصار تتلذذ الأعيان بحر العلوم ذات علم مع الزهدي

-10- جوهرة الدين بايت في الأكفان وانا ماجبت له خبر تكمادي

-11- كنت معه كالوزير مع السلطان فالمملكة وزير تحت حرم سيدي

-12- متمتع بالهناء ورقاد في الامان لو يذهب عني الحزن وايطيب ارقادي

-13- بعد اغطايا اصبحت من ستري عريان ما نعرف واشتى هدف سل وسادي

-14- بعد انزوهي اصبحت في حالة الاحزان مالي تدبير كيف نعمل ياوعدي

-15- يام رقّدني في قفاية في الامان يام ورّثني بلاد من غير بلادي

-16- ما نحذر مانخاف من هم العديان ما نرحل ما نطوّل شقاء بولادي

إن وفاة السي بوعمامة رثاها الناس في كامل الجزائر.

الشيخ سيدي أبو عمامة

منظومة نظمها عليه أحد معاصريه قدور بن لخضر من مواليد متليلي الشعانبة 1327هـ الموافق 1908 عزّى الفقراء في شيخهم :

-1- عظّم الأجر على بكاكم يالخوان وعلى بالخصلة ديما

-2- غيّب قطب الدايرة مولى البرهان شيخ الفقراء بوعمامة

-3- غيّب قطب الدايرة معدن الاكوان نور وضي لكل ظلمة

-4- الاسقم بالخصلة وعمارة الاوطان تبري به اللي سقيمة

-5- يا فتي خليك راني في الاحزان جرحي ماتبريه حكمة

-6- وعلى شيخي بوعمامة غالي الشان قنطاس هدى وحرمة

-7- يطلع بالمخفوض و يحطّ الرفعان بحره ما قصّوه عوّامة

-8- على سيدي كادمة جميع الأركان البدر مع كل نجمة

-9- ياسايلني لاتسوّل عليّ لمحان جاروا

-10- هو وحشي طير مرقب ما عندي في الناس غيره

-11-شيخ الفقراء وين غيبّ من ضاري بضياه نسروا

-12- من به الزيار تطلب سَعدْ اللّي وفّى غديره

-13- والخاطي ملقاه خيّب اتاه بيعت شرو (؟)

-14- قصة وفاته عجيبة يوم رسول جاب خبرو

-15- ناض الحس وزاد شغبة وحلول الطيبة مراروا

-16- يالخوان بغير كذبة والهمني سيدي بسرّه

-17- في طرف العنوان كاتب قال القول دير بامره

-18- علينا بمجيك واجب وخطاك القبر تزوره .

- خاتمـــة -

الجزائر بتنوّعها الجغرافي وتباينها القبلي واختلافاتها الفكرية و فوارق سلالاتها البشرية، تستمدّ من الإسلام عوامل وحدتها الوطنية وفضائل انتمائها العالمي. إنها مدعوة لتلعب مستقبلا دور أول قوّة متوسطية عسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية وحضارية .

الشعب الجزائر المختلف كثيرا عن الشعوب اللاتينية وحتى عن الشعب العربي الذي يربطه به الدين بصفة عميقة أكثر فأكثر، ناتج عن امتزاج قبلي يظهر حيوية راجمة وعقلية شجاعة وإرادة للاستقلال لا تقهر منذ قرون من خلال صدّه لكل سيطرة أجنبية ومن خلال آلامه ودمه ودموعه وشدائده السياسية والمادية. إن أصل تكوينه ووحدته، وإن منبع قوته وأسباب أنفته واستقطاب انجذاباته لأمّة كبيرة، يرجع الفضل في ذلك كله إلي عرقه البربري وعرقه العربي رغم المناوشات التي لا يمكن تجاوزها وهي سطحية خارجية وظاهرية أكثر منها حقيقية أو متعمقة.

تحت سيطرة الرومان والوندال والأتراك، كما تحت الاحتلال الفرنسي، لم تقبل الجزائر أبدا القسر النهائي أو تبعية تمثيلية أو تثبيطا مذلاّ. في أي وقت من الأوقات لم يحس شعبها أنه مهزوم نهائيا عبر تاريخه المأساوي. منذ سقوط أمبراطورية الموحدين (1269) فإن المماليك الوقتية (الزائلة) المنحدرة من شتاتها (الحفصيين، الزيانيين، المرينيين، والحماديين إلخ ...) أخرّوا تكوينه كأمّة سيّدة لمصيرها مهدّدة بصفة خطيرة من ناحيةحدودها من طرف الإسبان والبابوية.الصوفية والأمبراطورية التركية حفظتاه من استعمار أوربي خلال العصور الوسطى. لكن رغم تشتّت (اختلاف) ردود الأفعال ضد الإمبريالية و تناقضاته الداخلية فإن عزم الشعب الجزائري على التحرّر من الإحتلال الأجنبي قد ظهر جليا ومأسويا غداة احتلال الجزائرالعاصمة من طرف الجنود الفرنسيين (5 جويلية1830م) .

ظهرت في المواجهة الصارمة لأحمد باي في الناحية القسنطينية، ولعبد القادر في الناحية الوهرانية، ولمدربي الرجال مثل رجال حجوط في المتيجة، وبومعزة في الظهرة وسهل شلف، و المقراني والحداد في القبائل، وأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الجزائري الوهراني وأقرب من ذلك مصالي الحاج قليلا قبل الحرية التي خاضها الزعماء التارخيون الجزائريون الستة، أبناء الجزائريين يوم أول نوفمبر 1954.

الحرية التي بفضل التضحيات الجسيمة التي قدمها أبناؤه وبناته الذين قاتلوا ليل نهار جماعات وفرادى مواجهين قوّة حاسمة في الجبال والسهول والغابات وكثبان الرمال، في المدن والقرى، البطن فارغ والأرجل دامية والروح ذات أنفة والقلب ذو عُلُوّ.

إن في هذه المقاومة التي لم تتوقف من خلال أبطال مجهولين والجماعات المنظمة أظهرت الجزائر أنها ترفض الركوع.

إن ضمن هذا الخط البطولي الذي لا يني سجلت مقاومة أولاد سيدي الشيخ . مقاومة جديرة بالملاحظة بمدّتها(حوالي 20 سنة) وبآلامها التي دفعتها للجنوب الوهراني بالأمل الذي كانت تدخله في نفوس العرب والبربر على السواء .

لقد اعترفت الحكومة الجزائرية للزاوية والأخوية بالأعمال الحربية العالية لأولاد سيدي الشيخ وخصصت احتفالا رائعا بالذكرى المائوية لانتصار الشيخ بوعمامة على الفيلق الذي كان يقوده العقيد انوسانتي في تازينة قرب شلالة(ماي 1881). ويبقي حقا أن نخلّد ونردّ الإعتبار للسي حمزة و السي سليمان والسي محمد والسي قدور والسي الاعلى الذين ماتوا كلهم من أجل الاسلام والوطن . حتى نكون منطقيين وعادلين تاريخيا.

الفصل الرابع

ملحق: سلالة أولاد سيدي الشيخ

ملحق

سلالة أولاد سيدي الشيخ

من الناحية الدينية كما من الناحية الأدبية والسياسية فإن أولاد سيدي الشيخ لعبوا دورا تاريخيا يقينيا. لنوضح السيرة التي نخصصها لهم، يظهر لنا ضروريا أن نبرز الدور الذي لعبه قادتهم وإتباع هذا العمل بجداول مشروحة لسلالة أولاد سيدي الشيخ وأحفاده .

جداول سلالة أجداد وأحفاد سيدي الشيخ

هذه الدراسة (الترجمة) السيرة تكون غير كاملة إذا لم نشفّعها بسلالة سيدي الشيخ أجداده واحفاده .سنفهم جيّدا الدور التاريخي الذي لعبه الذين ينتسبون إليه وكذا القبائل المنضمّة إلى طريقته الصوفية التي تشكل الأخوية، التي هي كما سبق أن ذكرنا إمارة سياسية دينية في جنوب الجزائر والمغرب، مستقلة من الأتراك والسلطان المغربي منذ القرن العاشر هـ 16م . سلالة سيدي الشيخ تتصل كما يعرف كل واحد بأول صديق و أول أتباع الرسول (ص) الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الدور الديني والتاريخي لأجداده وأحفاده يتميّز بفترات العظمة والضآلة (والصغار) التي تحتل بالمنطق والتناقضات، حكمة مسيرة ومنافسات تقسيمية. نعطي في الصفحات الآتية نسل أجداده وجداول سلالات مختلف الفروع لأحفاده. سنتم هذه القوائم مبرزين أهم الشخصيات التي ساهمت مباشرة أو بصفة غير مباشرة، معنويا أو سياسيا في فترات اللمعان أو الخفقات لهذه العائلة المحاربة والمتدينة في نفس الوقت.

حول الشخصيات المكونة للقائمة الإسمية لسلالته لم يسجل أي حدث متميّز في المراجع التي نمتلكها ابتداء من عبد الرحمن بن أبي بكر إلى سيدي معمر. إضافاتنا لا تتعلق إذن إلاّ بأجداده ابتداء من سليمان ابن أبي سماحة وأحفاده.

الأسماء والألقاب ستسجّل حسب لفظها "الدَّارِجي" وكذا الأسماء الجغرافية، كما سبق أن ذكرنا.

هذه الجداول مأخوذة من العمل الجميل بأمر من الحاكم العام جول كمبون J.Cambon سنة 1896 من طرف القبطان بنصارد Pansard، رئيس مكتب العرب في جريفيل(البيّض) حسب الوثائق التي أمكنه جمعها والمعلومات التي أعطيت له من طرف المهتمين بالسلالات محلّيا وألحقها بالكتاب المهم الذي ألفه لامارتينيير ولاكروا:"وثائق صالحة لدراسة شمال غرب إفريقيا" بالجزائر 1896 المجلد 2 .

سجلنا أن منذ حياة سيدي الشيخ فإنّ أبرز الشخصيات من بين أبنائه كان ***سيدي الحاج ابوحفص*** جد فرع الأكابر و***سيدي الحاج عبد الحاكم*** مؤسس فرع الأصاغر. لم يكن التداول على منصب رئاسة الطريقة يُعْتَمَدُ فيه حق أسبقية الولادة (البكورة) لكن بمنظور حق التصدر المعنوي الراجع إلى السنّ أو الجدارة الموجبة لتحمل مسؤولية حياة الأخوية:"كابر عن كابر والأديب فيها بوالي " [1].

كما كان يُعْتَمَد في هذه التسمية الشهرة المشتركة ورأي المنضمين إلى الأخوية الإيجابي أو السلبي.

جدول فرع الأكابر الذي يتوقف عند أحفاده السي حمزة سنة 1313هـ1893 م يستحق أن يتمّم بقائمة أحفاد أحفاده الذين هم كثر. ليس هناك منفعة ظاهرة أو حقيقية لذكرهم جميعا .

بتوقف المواجهات بوفاة السي قدور بن حمزة (1314هـ 1897م) ووفاة السي بوعمامة بن العربي(1325هـ1908) فإن أحفاد السي حمزة أعطوا الولاء لفرنسا. لما حققت فرنسا دخولها في إفريقيا الشمالية وإفريقيا السوداء فإن آفاق الإستقلال قد تبخّرت في الجزائر لمدّة عقود من الزمن. كان الأفق مغلقا تماما في هذا الصدد خاصّة بعد الانتصار على ألمانيا(1335هـ1918م).

طموح أغلب أحفاد أولاد سيدي الشيخ المتأخّرين كان أن يدخل في خدمة فرنسا بصفة آغا أو "قائد". لكن رغم هذا الإنقلاب المعنوي والظروف السياسية ونقص ذات اليد، فإنّ بعض هؤلاء الأحفاد اختاروا أن يبقوا مخلصين لتقاليد عائلتهم وأن يهتموا بكرامتهم واستقلالهم.

كما نسّجل في هذه التتمّة لسلالة أولاد سيدي حمزة أن الشخصيات البارزة مع انحنائها مثل جميع الجزائريين أمام حتمية الإستعمار وجدوا أنفسهم نزلوا إلى درجة "الإستنكار القبلي"(أضعف الإيمان).

عندما كان سيدي الشيخ حيّا لاقى آلاما من عداوة أعمامه وخاصة إخوانه وبالأخص إبراهيم. ذكرت المناقب النزاع الذي كان بينه وبين هذا الأخير حيال حميان الذين كان سيدي الشيخ يستنكر عليهم مساندتهم للإسبان الذين استقروا في وهران. عداوة ورثها أحفادهم إلى أيام متأخرة.

بالتالي نفس المنافسات ونفس النزاعات من أجل المصالح وُجِدَت عند أحفاد سيدي الشيخ أنفسهم ملحقين الضرر الكبير للعائلة ولِوِحْدَةِ الأخوية في مصلحة العبيد(عبيد الزاوية) الذين كانوا في مأمن من المراقبة الروحية والمادية عند انقسام أولاد سيدي الشيخ.

فيما يلي الشخصيات البارزة دينيا وتاريخيا سنشير إليهم بسرعة وسندخل الشخصيات التي تساعد على جعل هذه السلالة أكثر حداثة.

---

[1] – قصيدة الجلالة.

فرع الأكابر

-1- سيدي الحاج ابوحفص:أبوه سيدي الشيخ و أمّه بنت سيدي أحمد المجدوب، عَيَّنَهُ سيدي الشيخ في حياته كقائد العائلة والزاوية ووارِث للسلطات الدينية والسياسية. حج ثلاثين مرّة إلى مكة المكرمة على رأس من كانوا يحجون عن طريق البرّ. خلال واحدة من حجاته الأخيرة كان من بين مرافقيه ابنه الدّين.

عند وصولهم إلى تونس أحب هذا الأخير إمرأة جميلة من تلك المدينة إلى درجة أنّه أحجم عن الذهاب إلى الأماكن المقدسّة رغم سخط أبيه الكبير وبقي في تونس عند حبيبته التي جعل منها زوجة له.عند رجوع أبيه، توسّل إليه ليعفو عنه، ففعل دون عناء. لما رجع فيما بعد إلى الوطن برفقه زوجته وبعض الخدّام الذين يرجع أصلهم من منطقة توقرت(الفتايت)[240]، استقر في منطقة بدوية غير بعيدة عن بريزينة، في مكان منذ ذلك الوقت حمل اسمه. أبوه عند رجوعه وهبه واحدة من حجّاته الخاصة.

فأخذ منذ ذلك الوقت لقب سيدي الحاج الدين. لكن لما رآه أبوه سيدي الحاج ابوحفص فيه ذلك الضعف وعدم الأهلية، قدّر أنه ليس أهلا لتحمل إدارة الأخوية والإحتفاظ بالأسرار ومسؤولية الطريقة. أوصى عند موته (1066 هـ1655م) بالسلطات المادية والروحية لأخيه سيدي عبد الحاكم.

دفن بالأبيض وقبته مزار كثير من الناس. في حياته منحه سيدي الشيخ ثلث مداخيل الزاوية وكذا تركته الروحية. لذا يوجد بالأبيض زاويتان: زاوية سيد الشيخ الرئيسية وزاوية سيدي الحاج ابوحفص .

-2-بعد ***سيدي الحاج عبد الحاكم*** انتقلت إدارة الزاوية ومسؤولية الطريقة إلى إبنه ***سيدي ابوحفص الحاج*** الذي سلّم جميع إمتيازاته إلى ابن عمّه ***سيدي ابن الدين*** قبل أن يهاجر إلى مصر حيث توفى.دفن في القاهرة.

-3-مع ***سيدي ابن الدين*** الإدارة الروحية والمعنوية للأخوية عادت إذن إلى فرع الأكابر،الشيء الذي لم يعجب فرع الأصاغرالذي أسّسه ***سيدي الحاج عبد الحاكم*** كما سنراه فيما بعد .

سيدي إبن الدين كان أحسن ممثل لأخوية سيدي الشيخ في عهده وبعده. تاريخ ميلاده مثل تاريخ وفاته لم يضبط.

240– ما زال الفتايت إلى يومنا هذا محافظين على استقبال الزيار الذين يفدون إلى قرية سيدي الحاج الدين من كلّ مكان في زوايا بتناوب شهري.

منذ صغر سنه لوحظ فيه النزاهة والتقوى والتعلّق بطريقة سيدي الشيخ جَدِّهِ. بهذا جعل نفسه في خدمة عمه الكبير ***سيدي أبو حفص الحاج***. هو الذي تمسك بنصب القبب التي تؤوي أضرحة سيدي الشيخ وأبنائه وأحفاده المشهورين. قبل أن يهاجر إلى مصر لأسباب مجهولة، ولاّه ***سيدي أبو حفص الحاج*** سلطاته الروحية والمادّية. بنو عمومته من فرع الأصاغر لم يتوقفوا عن إحداث المشاكل له لكي يخنقوه بالإزعاجات. قتلوا واحدا من إخوته ومنعوه من أن يدفنه في الأبيض. كما انتهى به الأمر إلى مغادرة البلدة هذه،محقنا بالغضب والسخط نتيجة لضراوة جشع وسوء أدب بني عمومته. التجأ إلى القليعة التي سمّيت منذ ذلك الوقت المنيعة(أي الملجأ الصغير).

سكانها كانوا متعلقين كثيرا بذكريات جدّه ***سيدي الحاج ابوحفص*** فرحبوا به في بلدتهم.

لكنّ عداونية وشراهة أولاد سيدي الحاج عبد الحاكم الذين لم يرقبوا في أبناء عمومته ذمّة ولا حرمة جعل أتباع طريقة سيدي الشيخ يثورون ضدهم وقرّروا إبطال مفعولهم وذهبوا إذن إلى المنيعة لكي يرجعوا سيدي ابن الدين إلى الأبيض ورغم رفضه واعتراضاته أقنعوه بل أرغموه على الدخول إلي الزاوية ضامنين له مساندتهم له والاعتماد عليهم لإرجاع الأمور إلى مجراها السابق ليمارس سلطاته التي أخذها عن عمّه.

عمله الأول كان إرجاع الأخوية إلى مبادئها الأساسية ووضع حد لعقلية الكسب عند النازلين من فرع الأصاغر وأنانيتهم الشاذّة وتبجّحاتهم، و أن يجعل عبيد الزاوية يخضعون لنظام صارم.

لكي يعطي المثل، حفر لنفسه بئرا لسقي بستان، إستغله بعرق جبينه، وما زالت الى الآن بعض أطلاله باقية.

قبل سيدي ابن الدين كان الأبيض يحتوي على قصر واحد. وبسبب الخصومات والشقاق التي أصبح هذا القصر مركزا لها، أسس قصرا ثانيا، واقعا شرق القرية الأولى فأعطاه إسم القصر الشرقي. كان كثيرا ما يتدخل في النزاعات التي كانت تقوم بين القبائل ولم يكن أجنبيا عن القانون الذي وضع حدّا للتحدّيات المهينة التي كان يشكو منها القراريج والرزيقات من قِبَل قائد الماقان المعروف باسم الزناكرة؛ التحديات التي أوقفتها *معركة أم العطاطيش* بالإجلاء النهائي للزناكرة من منطقة جبل كسال وتنصيبهم في " شلالة وابن حماد ".

استرجعت الأخوية مجدها: انضم إليها كثير من القبائل ليس من المنطقة فقط لكن أيضا من الأغواط وشلالة وإبن حماد وتيارت وسعيدة، انضموا إلى الطريقة ووافقوا له شخصيا على هبة سنوية خاصّة.

توفي في جوّ قدسي في تاريخ غير محدد في الأبيض حيث قبة ضريحه عالية الوقار إلى اليوم. ألف عددا من المؤلفات في الصوفية وفي الأخلاق. مؤلفات هي اليوم في حوزة بعض أحفاده الذين

يعتبرونها ذخيرة تفاؤل. يخفونها غيرة ولا يتكلمون عنها أبدا، مَانِعِينَ بذلك الباحثين مِنْ أن يستخرجوا منها "المادّة الخام" أو "اللب الجوهري" لخدمة العلم. رغم أن الإسلام يحرّم "حبس الكتب". لكن كيف نتكلم عن الدين والعلم لأفضاض خرافيين مهتمين قبل كل شيء بمصالحهم المادية؟

كما يمكننا أن نعتبر كتاباته كأنّها ضاعت، مثلها مثل الكتب التي تركها جدّه سيدي الحاج ابوحفص.

-4-ابنه ***سيدي العربي*** هو الّذي خلفه. ما إن تسلم السلطة حتى عادت المنافسات السياسية والمزاحمات على المصالح مع أحفاد سيدي الحاج عبد الحاكم وخاصة *أولاد بودواية* ابن سيدي أبوحفص الحاج الذي تكلمنا عنه سابقا. لقد أطردوا سيدي أحمد التيجاني من الزاوية حيث كان مقدّما، وهو مؤسس طريقة التيجانية وحيث صومعته (خَلِيَّتُه) اليوم موجودة مهدمة في القصير الغربي بالأبيض .

الفرعان دخلا في نزاع مسلح. بعد معارك قاتلة في واد صقر والواد الغربي توصّلوا إلى تسوية سنة 1178هـ1765م فيما يخص الإتاوات السنوية لزاوية سيدي الشيخ: ثلث يمنح إلى عبيد القصر الغربي الذين أصبح لهم نفوذ فرع الأصاغر، وثلث إلى عبيد القصر الشرقي أصحاب نفوذ فرع الأكابر وثلث لعبيد زاوية سيدي الحاج ابوحفص التابعة للشراقة أيضا.هذا النوع من التقسيم مازال متبعا الى اليوم. ولم يضع حدا للعداوة المزمنة التي وقسّمت الفرعين وجعلت في أغالب الأحيان أحدهما يتصادم مع الآخر.

سيدي العربي توفي بعد 1180هـ1767م؟ بقليل. في فترة نشاطه لابد أن نشير إلى أن القصر الشرقي تطوّر.

دفن قرب سيدي الحاج الدين جدّه (القبتان متجاورتان) قبة مشيّدة على ضريحه تشهد على الإجلال الذي كان يتمتع به.

-5-ابنه ***سيدي بوبكر*** خلفه. لم يسجّل شيءُ مميّز حياتّه ما عدا بناء مسجد كبير في القصرالشرقي وقد أُصْلِحَ وَجُدِّ دَ قبل بضع سنوات (1403 هـ1982م).

كما أنه كان يلقب "بمولى الجامع" (أي باني المسجد). قبل موته (1251هـ1805م) أوصى بسلطاته لابنه النعيمي. ودفن في قبة سيدي الشيخ.

-6-***السي النعيمي*** عانى من استمرار التنافس المضادّ لفرع الأكابر الذي كان رئيسا له، أما فرع الأصاغر فكان على رأسه *السي سليمان* الحفيد من الدرجة الثالثة لسيدي عبد الحاكم. قرر إنهاء النقاشات المملّة التي لم تنته والمناوشات المصلحية التي كان يضعها فرع الأصاغر في طريق فرع

الأكابر لعرقلة مسيره. هجم عليهم قرب مخيّمهم وكبّدهم هزيمة نكراء في نواحي أربوات في معركة واد القليتة. في تاريخ غير محدد. نكبة أتبعت مرحلة سلام طويلة المدى. وسعيا لوضع حدّ لهذه المعارك التشتيتية والعقيمة والمستمرّة رأى السي النعيمي أن يضع الإسمنت لتمتين هذا السلام وهو المنتصر بسياسة الزواج. فعلاقات الزواج بين العمومية من شأنها بدون شك أن تنتصر على المناوشات المزمنة بين الفرعين وإنشاء ائتلافات للاتفاقات الحسنة والتآخي .

توفي سنة 1231هـ1816م ودفن في قبة سيدي الشيخ.

سياسة المصالحة تميّزت في حياته بمعركة ذات طابع بطولي أصبحت عملا تذكاريا في تاريخ المنطقة. معركة يصفها الرواة المحليون بكل إعجاب بكيفية عاطفية.ألا وهي العمل المسلح الذي عرف باسم "يوم قور سيدي امحمد عبد الله" أو أيضا "قصة سيدي احمدو".تستحقّ أن يعاد ذكرها للإعتبار.

قلت أن السي نعيمي عمل على إنشاء سياسة ائتلاف بين الفرعين. ولكي يعطي المثل والقدوة، فإنه زوّج أخاه سيدي الجديد بابنة السي سليمان بن قدور زعيم فرع الأصاغر.

سيدي الجديد كان رجلا عنيفا، أنانيا محرّضا ومخاصما. جميع سكان البدو كانوا يكرهونه حتى المنتمين إلى قبيلته مثل أولاد لزغم وأولاد مروان وأولاد سيدي عطا الله وأولاد سيدي معمر دون أن نذكر القبائل المنضمة للأخوية مثل الرزيقات وأولاد عيسي إلخ .. كما أنهم كانوا يجتنبون مجاورته بخيامهم. السبب الرئيسي لهذا الشقاق كان قصة حول أحقية وأسبقية من يسقي غنمه. كان الناس عادة يسقون أغنامهم في نواحي واحة بريزينة حسب أسبقية الوصول(من وصل الأول يسقي الأول) لكن السي الجديد رفض هذه القاعدة وفرض بالسلاح أن يسقي أغنامه أولا بدون أي إعتبار آخر، ممّا أثار غضب سكان البادية. كما أن خيمته وخيمة أخيه السي المعراج كانتا منعزلتين بعيدتين عن أي مخيّم صديق أو حليف. ففي الوقت الذي كانت ستحصل المصيبة كانت خيامها منصوبة في مراعي واد صقر على بعد بعض الكيلومترات عن قور سيدي امحمد عبد الله. داخل حريمه كان يسود عدم التفاهم والرعب بين زوجاته .

سبق أن قلنا أنه تزوج بنت السي سليمان زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة. أبوها رغبة منه في الوفاق قبل تزويجها للسي الجديد وذلك بدون موافقة أخيها سيدي أحمادو:وهو أيضا معاند (رأس خشن)،و بما أنّه كان يعرف المزاج الممقوت لسيدي الجديد فقد أعطى لأخته مسدسا لتدافع عن نفسها في حالة الضرورة.

لكن اندلعت مناوشات في حريم السي الجديد. النساء المنتميات إلى فرع الأكابر تآمرن على "الأجنبية – الغريبة" العدوّة التي يعود أصلها إلى فرع الأصاغر. ولكي تدافع عن نفسها هددت ضرّاتها بالمسدس.مما أدّى إلى إنهاء هذه المناوشات الغريبة في البيت.

لكن عندما رجع السي الجديد بدأن في الصياح مستنكرات عليه أنه لم يدخل عليهن امرأة ولكنها " غربية " خطيرة مسلحة بمسدس .

فَقَدَ السي الجديد أعصابه بما قصصن عليه، فضربها بوحشية حتى لطّخ كل ثيابها بالدماء. وضعت في أنبوب قطعة من ثيابها الملطخة وفتيلا من شعرها وسلمته لرجل إسمه ابن يمنة من فرع سيد الحاج أحمد لكي يوصله إلى أخيها سيدي أحمد قائلة له:"سيفهم ما سيفهمه". لما أخذ السي أحمدو الرسالة هذه المعبّرة عن الخطر، قرّر الثأر لأخته. نادى بعض أقاربه بحكم التآزر القبلي واتجه معهم نحو خيام السي الجديد وعند اقترابهم وجدوا امرأة سوداء (خادم) قرب موضع الماء الموجود غير بعيد من خيمة السي الجديد.

قاعدة الشرف عند العرب تقتضي أن أية معركة يجب أن تكون عادلة. فالهجوم علي حين غِرّة، والإغتيال كان في نظر الفرسان العرب نذالة وعارا وخزيا عند العوامّ. فكلّف السي أحمد وهذه المرأة أن تخبر سيّدها لكي يهيّئ نفسه للدفاع عن نفسه بسبب سوء المعاملة الذي عاقب به أخته المسكينة. رفض أن ينتهز فرصة المفاجأة والمباغتة الدنيئة فطلب منه المبارزة الثنائية بينهما فقط للغد.

السي الجديد لم يكن في بيته. الخادمة أعلمت الزوجة التي كانت تعتبر نفسها الضحية المجروحة في جسمها وفي كرامتها. فمنعتها أن تخبر أي أحد ودخلت إلى جهة الخيمة المخصصة للرجال والتي تستعمل كمستودع للسلاح. وضعت الزيب في المدافع والبنادق والمسدسات لكي تصبح غير صالحة أثناء المعركة المحتومة.

ما إن طلع الفجر حتى تقدم السي أحمدو وأصحابه أمام خيمتي السي الجديد وأخيه السي المعراج. بعد تبادل السباب والإتهامات والتبجّحات انطلقت المعركة.

معركة غير متكافئة حقيقة بما أن أسلحة السي الجديد صيّرت البارحة غير صالحة بطريقة ماكرة. سي جديد سرعان ما قتل هو وأخوه السي المعراج الذي ما إن سمع البارود حتى جاء لينصر أخاه.

الظروف متناقضة: عشية هذا الاندفاع كان السي الجديد قد أسخط أقاربه بسبب كبريائه. بعد أن تشاور هؤلاء، قرروا وضع نهاية لذلك فتوجهوا بهجوم ضده في الغد من ذلك.

في طريقهم نحو مخيمه، فوق الخيول، بهدف قتله، فجأة التقوا بمقربة من خيمته واحدا من المنضمين إلى الأخوية وهو من قبيلة أولاد عيسي، أتباع الشراقة فأخذ على نفسه أن يعلم الشراقة

عن موت "بني عمومتهم". كان لباسه وهيئته مقلقين. حيث أن عند العرب القدماء، عندما يراد الإعلام عن مصيبة، كانت التقاليد أن يلبس اللباس الأسود وتغطية عنق الفرس بقطعة بالية من ستار الخيمة، فكان هذا الفارس القادم في هذه الهيئة نفسها. و أخبرهم حقيقة أن السي الجديد قد قتل من طرف السي أحمدو بمساندة فرسان غرابة.

غيّرت الحملة (الفرقة) هدفها. السي الجديد لم يعد لِيُقْتَلَ، لَكِنْ لِيُثْأَرَ لَهُ . كان يجب بحكم العصبية الثأر لموت عضو من فرع الأكابر مقتول من طرف عضو من فرع الأصاغر المنافس مع أقربائه، فذهبوا بسرعة إلى خيمته حيث علموا أن السي أحمدو قافلا نحو مخيمه في نواحي الأبيض

فرقة الخيالة التي جاءت لتقتل السي الجديد تحوّلت إلى آخذة لثأره متتبّعة آثار قاتليه. لحقوا بهم بالمكان المسمى شعبة الهربة. اندلعت المعركة آخذة منذ البداية صبغة حماسية ملحمية. السي أحمدو قُتِلَ وأبيد أصحابه لكن بعد أن قدّم الشراقة العديد من القتلى ثمنا لذلك الإنتصار.

أخذ المنتصرون جثمان السي احمدو راجعين نحو مخيم السي الجديد. وضعوا جسده بجانب جثمان صهره، نادوا زوجته سبب الكارثة ثم قالوا لها:"ها هو ذا جثمان زوجك وجثمان أخيك، مات كل منهما بسببك. اختاري اذن أن تبكي هذا أو تبكي ذاك". فقالت:" إنّ ألمي شديد، سأبكيهما كليهما، وأقسم أن لن أتزوج أبدا".

وحتى تقرن القول بالعمل كسرت رباعيتها لكي تشوّه وجهها.

هذا الحادث المأسوي كان له صدى كبير في الصحراء، وإذا أضيف إلى هزيمة القليتة فإنّه يحمل في طياته استعادة العداوات الدائمة التي كانت بين الفرعين.

الهدنة المتفق عليها سابقا بين السي محمد بن سليمان ممثل الغرابة و بين السي النعيمي قد نقضت سنة 1246هـ1830م ولم يطق الغرابة البقاء في مثل هذه الوضعية المخجلة المهينة وعاودوا القتال بإيعاز من السي الشيخ بن الطيّب.

طيلة أربع سنوات استتمرت المعارك بلا هوادة مذكّاة بشعراء الفرقتين. فرع الأكابر تحت قيادة *السي أبو بكر الصغير* ابن السي النعيمي كان عليه أن يتكبّد هزائم جسيمة خاصة في شراية Charaya غير بعيد عن الغاسول، و في تاندرارة بالتل.

السي الشيخ بن الطيب أنتصر أنتصارا فائقا على السي ابوبكر الصغير في سنة 1240هـ1833 م في جبل سيد العابد. ثم توفي هذا الأخير بعدها بقليل ودفن في قبة سيدي الحاج الدين. ترك خمسة أطفال من أشهرهم السي حمزة والسي الاعلى والسي الزبير الذين دخلوا مباشرة في المقاومة الصحراوية للإحتلال الفرنسي.

مع السي حمزة. بدأ بالنسبة لأولاد سيدي الشيخ الشراقة مرحلة تاريخية جديدة : القتال ضد الإستعمار الفرنسي.

فرع الأصاغر بموجب إتفاقية وجدة (1261هـ1845م) أُلْحِقُوا بالمغرب وأصبح تاريخهم متصلا بتاريخ العرش العلوي. خلال مدة زمنية من السياسة المملوءة بالشكوك والتردّد (من 1261هـ إلى 1330هـ الموافق ل 1845م 1912 م)، وقبل إعلان الحماية الفرنسية على المغرب لعب في الجزائر ممثلو فرع الأصاغر وخاصة منهم سليمان بن قدور أدوارا مخزية :الغدر، الإزدواجية، والنهب ... زعيمها الشيخ بن الطيب منذ وصول الفرنسيين إلى الجنوب الوهراني لم يتوقف عن الدسائس واتخاذ العلاقات السرية مع القيادة الفرنسية بهدف القضاء على فرع الأكابر ولكي يعترف لهم على أنهم "الخدام الأوفياء الخيّرين" لفرنسا.

ومع ظهور ممثل فرع آخر "أولاد سيدي التاج" وهو الشهير *السي بوعمامة* على الساحة التاريخية الجزائرية في مدّة قصيرة، أصبح تاريخ زاوية وأخوية قبيلة أولاد سيدي الشيخ متداخلا مع تاريخ السي حمزة وأولاده .

أصبحت قوة وضعف الأخوية يتجسدان في السي حمزة وأولاده. كما أن فيهم كانت تتمحور حول مبتغاها و أصالتها الروحية في الرخاء و الشدّة .

السي حمزة ترك سبعة أولاد، أسماؤهم موجودة في جدول سلالة فرع الأكابر وهم: السي بوبكر والسي سليمان والسي محمد والسي احمد والسي قدور والسي الدين والسي بحوص.

الثلاثة الأواخر هم الذين كانت لهم ذرية عديدة نذكر قائمتهم فيما يلي. نذكر في هذه القائمة الشخصيات البارزة فقط باستثناء من قال فيهم القرآن :" وتحسبهم أيقاظا وهم رقود"[241] .

أ. **السي قدور** أبٌ لِ.

أ- السي العربي آغا سابق في القليعة و متليلي ترك :

-1- السي الدين مقدم لطريقة سيدي الشيخ توفي في الأبيض سنة 1958م–1378ه ترك إبنه محمد.

-2- العربي اغتيل في ضواحي الأبيض سنة 1380ه 1960 م أبو سليمان الذي استقر في مولان Melun بفرنسا منذ 1383هـ1964م.

-3- أحمد توفي في الأبيض سنة 1400هـ1981م أبو الدين الّذي استقر في الأبيض والعربي الّذي استقر في مو Meaux بفرنسا منذ 1390هـ 1970م.

ب–السي النعيمي توفي في (جريفيل) البيّض سنة 1334هـ1914م وترك أربعة أبناء منهم قدور أستاذ سابق في مدرسة بتلمسان يعيش في وهران متقاعد [1] **(والعربي والدين وحمزة).**

ج–السي حمزة توفي بالأبيض سنة 1931م و دفن في قبة سيدي الشيخ، باشاغا سابق لملحقة البيض، ترك 6 أطفال :

-1- الدين توفي سنة 1346هـ1928 تاركا طفلين هما: حمزة أبو الدين الذي استقر في فالونتان Valentin(ضواحي باريس)، وحمو أبو الشيخ و عبد القادر، استقر في باريس منذ 1399هـ1980م) .

-2- سليمان: قايد سابق بالأبيض توفي سنة 1360هـ1942م في جريفيل، أبومحمود الذي يعيش بالأبيض،والعربي استقر في مولان melun (فرنسا) منذ 1383هـ1964م.

-3-الشيخ قايد سابق بالأبيض أبوالعربي وعبد القادر، حمزة، سليمان وبحوص وأحمد وبوعمامة وقدور والدين والطيب ومحمد بورقعة والجيلالي وعليّ ..

-4-آل سيد بوبكر ولد سنة 1330هـ1912 م في بريزينة، كاتب ورئيس زاوية سيدي الشيخ بانتخاب اجماعي لأولاد سيدي الشيخ بالجزائر والمغرب في جويلية 1369ه 1949م، أعيد إنتخابه في فبراير1372/ 1953 أستاد ميرّزبجامعة فرنسا،عضو في العديد من المراكزالعلميةمنها:المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة والمؤتمر الدائم لعلماء الإسلام(الأزهر)

---

[241] مع الاحترام الكبير للشيخ بوبكر حمزة إلا ان مثل هذا الإسقاط لا يليق، ثمّ ان هذه الآية نزلت في حق أصحاب الكهف وهم فتية صالحون خلّدهم الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم

[1]– ولد سنـــة 1914 بالبيض وتوفي في وهران فـــي يـــوم الأربعـــاء 03 جمادي الأول 1416هـــ/الموافـــق لـــ 27 سبتمبر 1995م.

وعضو مجامع"مشهد"(أكاديميات)مكسيكو،بروكسيل،...إلخ مترجم القرآن الكريم والبردة إلى الفرنسية ومؤلف كتاب"البحث العصري للألوهية في الإسلام" خبير مقرّب من المجلس الأعلى الأوربي "سطراسبورغ Strasbourg".نائب سابق و رئيس المجلس العام للواحات. عميد المعهد الاسلامي لمسجد باريس(من 1376 إلى1400هـ الموافق لِ1957 إلى1981م).عميد شرفي لنفس المؤسسّة.أب[242] لطفلين منهما وارث ومواصل مهمته:دليل.

– دليل بوبكردكتور حكيم مولود في (فيليب فيل) سكيكدة سنة1942/1360م مدرس وفاحص وباحث في كلية الطب، رئيس مصلحة في مستشفى باريس صلبترير Salpetriere، عضومرسم لمجلس نقابة أطبّاء باريس، كاتب عام لأخوية وزاوية أولاد سيدي الشيخ منذ تقاعد أبيه سي حمزة بوبكر (1409/ 1985). أبوسامي سي قدور المداوم مستقبلا ورئيس أخوية سيدي الشيخ إن شاء الله ولد في باريس سنة 1396هـ/1977 م[1] .

ب. **سي الدين**:ترك ست أطفال هم:أحمد(قائد سابق لأولاد سيدي الشيخ توفي سنة1339/ 1921م) وعبد القادر(باشاغا سابق في جريفيل توفي 1349هـ1930م) ومحمد(قائدسابق في بريزينة توفي1340هـ 1920م) والعربي(قائد سابق ونائب رئيس بلدية جريفيل، توفي 1382هـ 1962م) وبوبكر (باشاغا سابق في "أهل قياقال" توفي 1366هـ1947م وترك ابناً هو المخزومي محمد بالبيّض) والشيخ (موجود بمتليلي) .

جـ .**السي بحوص** : ترك 3 أولاد[1أ] منهم :الحاج أحمد مقدّم طريقة سيدي الشيخ

د .**سي لعلى**[2] **وسي زبير**[3] **وسي المعراج**[4] يعيش أولادهم حاليا عيشة متواضعة — على الأقل الّذين

---

[242] هو صاحب الكتاب الشيخ بوبكر حمزة رحمه الله.

– [1]– أشار إلى 6أولاد ولم يذكر إلاّ 4 : الإثنان الباقيان هما: الطيّب وُلِدَ سنة 1916 وتوفي1965(وله عبد القادر1953)
وأحمد ولد1905 وتوفي يوم1985/7/19م.

[1أ]– هذا العدد غير صحيح بل ترك 10 أولاد و 4 بنات هم:

1. أحمد(ولد1903وتوفي يوم1997/11/23 بمتليلي وله عدة أبناء وبنات نذكر منهم:عبدالقادروبحوص وبلعلوم والعربي ومحالطيب وعبدالرحمن والحسين وبوبكر والغزالي وموسى وعيسى والمختار..)
2. والخثير(ولد1905 ومن أبنائه دين وعبدالرحمن ومعمروبحوص..)
3. وعلي(ولد1909 وله عبد القادر والخثيروبوعلام وعبدالحمن ويوسف..)
4. والبدوي(ولد1915 وله طاهروأحمدوبحوص..)
5. ومحمد(ولد1910 وله محمدالعربي)
6. وعبدالحميد(ولد1916 لم يتزوج)
7. وبوسيف(ولد1912 لم ينجب)
8. وعبدالله (ولد1915 وله محمدوبحوص والشيخ وأحمد والعربي وبغداد وعبد القادر..)
9. ولحسن(ولد1921 وله أحمد ومحمد وبوعمامة ونورالدين وبومدين والعربي وعبد القادر وحمزة وفتحي..)
10. والحسين (ولد1923 وله حمزة و**محمد** ومصطفى وجمال وبلعلوم..)
11. البنات :أم الخير وأسية وفاطمة ومريامة.

[2]– السي لعلى: عمّ المجاهدين ومستشارهم الأول ولد1820 وتوفي 1896/01/01م له أربعة أولاد هم:

1. محمد(1860) وله ثمانية أولاد:منهم أحمد (ابنه محمدالطيب)
2. والسهلي(لم ينجب)
3. والعربي(وله عبد المجيد والهاشمي وبوعمامة وعبدالقادر)
4. وبوبكر(وله محمد وأبوحفص والدين وعبد القادر و أحمد)
5. والمصطفى (وله أبوحفص وخالد وع القادر و عبد الرحمن)
6. ولعلى توفي 1977 (وله السهلي ومحمد وبوبكر)
7. وأبوحفص (وله عتيق والمدني وزهيروعبد القادر وبوبكر ومصطفى)
8. وعبدالقادردربالي توفي 1968 (وله أحمد1935).

*.أحمد (مكنّى دهان 1862) وله ولدان هما:محمود (توفي بالمنيعة 1981) ومحمد.

*.محمود (1865) وله ثلاثة:أحمد(لم ينجب) ومحمد(وله عبدالله توفي1977، ولخضروالدين ومحمودوأبوحفص) والدين (لم ينجب).

شجرة النسب لأجداد سيدي الشيخ

(الأسهم تدل علي البنوّة المباشرة)

أ- من أبي بكر الصديق إلى سليمان :

أبوبكر ←عبدالرحمن ←محمد ←سفيان(صفوان) ←زغوان ←آزو ←المديو ←طفيل ← زيد ← زيدان ← عيسي ← محمد ← الشابّي ←الثادي← عيسي ← أحمد ← زيد ← عسكر← حافظ ← حرمة الله ←عقيل← عاقل ← سعد←سليمان←معمر←عيسي← ابوالحياء ← ابوليلي ←ابوسماحة ← سليمان.

ب - **سليمان** له ابنان بنت:

- محمد ← عبد الله ← التومي ← ابوسماحة
- المجدوب (أحمد)
- صفيّة (بنت) .

ج– **محمد** له 6 أولاد وعدّة بنات: النبّال بودربالة وإبراهيم وعبد الرحمن والطاهروأحمد و**عبد القادر**الملقب سيدي الشيخ .

د– **سيدي الشيخ** له 18 ولدا وعدّة بنات هم: 1–محمد بن الشيخ و2–بن عيسى و3–التاج و4–مصطفى و5–امحمد عبد الله و6–عبد الرحمن و7–الحسن

و8–الحسين و9–بوحاسن و10–عبدالحاكم و11– و**بوحفص و**12–زروقي و13–الحاج الشيخ و14–بونوار و15–الحاج الدين و16–ابراهيم و17–المدني و18–الحاج أحمد(المازوزي).

---

*. بوبكر(1866) وله الشيخ(بوهراوة:لم ينجب) وأحمد(أنجب بحوص ومحمد وحمزة كلهم بتيميمون) ولعلى (ولد1912وتوفي1983وله عشرة أولاد منهم بوبكر ومحمد..) والزبير (وله عبد القادر ولعلى والشيخ) ومحمد (وله سليمان ومحمد وعبد القادر).

–[3]– سي الزبير بن بن بوبكر الصغير ولد1826 وتوفي بقورارة 1879 وله محمد (أنجب أحمد ونعيمي لحرش وعبد القادر السابق وبوبكر والزبير) والشيخ (أنجب محمد والزبير والمعراج وبوبكر)..

[4] – لعله يقصد سي المعراج بن نعيمي بن بوبكر الصغير ،ولد1845 شارك في معركة عوينات بوبكر حيث استشهد وله (نعيمي ولد1880، والتاج ولد1879م،و الشيخ ولد1874م).

صورة لمجموعة من اولاد سيدي الشيخ الذين شاركوا احداث المقاومة المجيدة لأولاد سيدي الشيخ وعاصروها.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
	الإهداء مقدمة المترجم مقدمة الطبعة الثانية صورة الغلاف في النسخة الأصلية صورتان للشيخ بوبكر حمزة ***<u>الفصل الأول</u>*: حياة سيدي الشيخ بإيجاز** بيان مؤلفات عن أولاد سيدي الشيخ ***<u>الفصل الثاني</u>*: الياقوتة والجلالة** 1) الياقوتة ✓ المقدمة ✓ حمدلة ✓ فضل الله ✓ الإنتفاء عند الصوفية: مقدماته ✓ النداء الإلهي ✓ التشدد في حفظ السرّ ✓ متطلبات طريق الصوفية المقدمة لطالب الوظيفة ✓ الدفاع عن الطريقةالتي أنشأها ضد الوشاة والحاسدين ✓ عرض مبادئ الطريقة ✓ سلسلة ذهب الطريقة ✓ التعليمات الأخيرة 2) الجلالة مقدمات: شروط ما قبل الذكر ملحق و ملاحظات المراجع والمصطلحات.. ***<u>الفصل الثالث</u>*** :مقاومة أولاد سيدي الشيخ 1) سيدي حمزة بن أبي بكر 2) سيدي سليمان بن حمزة - معركة عين بوبكر 3) سيدي محمد بن حمزة - معركة قارة سيدي الشيخ (واد الناموس) 4) سيدي أحمد بن حمزة

معركة ابن حطاب
قصيدة : ياطالب وين زوانا
قصيدة : اللي باغي الجنة يضاد الكافرين
قصيدة : ساروا يا ضيمي ساروا
قصيدة : يافارس لله عد عليّ
5) سيدي قدور بن حمزة
قصيدة : نهار القارة الغشوة
قصيدة : عارفين بحَيْحِبص غرور
عارفين بحَيْحِبص طيور
قصيدة : يوم ماقورة
قصيدة : كذا من شيخ في المنيعة
6) سيدي بوعمامة
قصيدة : الشيخ تبنى والاّ مازال مهدوم ؟
فصيدة : عزوني يا ناس
قصيدة : الشيخ سيدي بوعمامة
7) خاتمة
__الفصل الرابع__ :ملحق سلالة أولاد سيدي الشيخ
فرع الأكابر
شجرة النسب لأجداد سيدي الشيخ
صورة لجماعة اولاد سيدي الشيخ المعاصرين للمقاومة
الفهرس

الترجمة إلى اللغة العربية:
محمد آل سيد الشيخ بن الحسين بن بحوص بن حمزة بن بوبكر الصغير